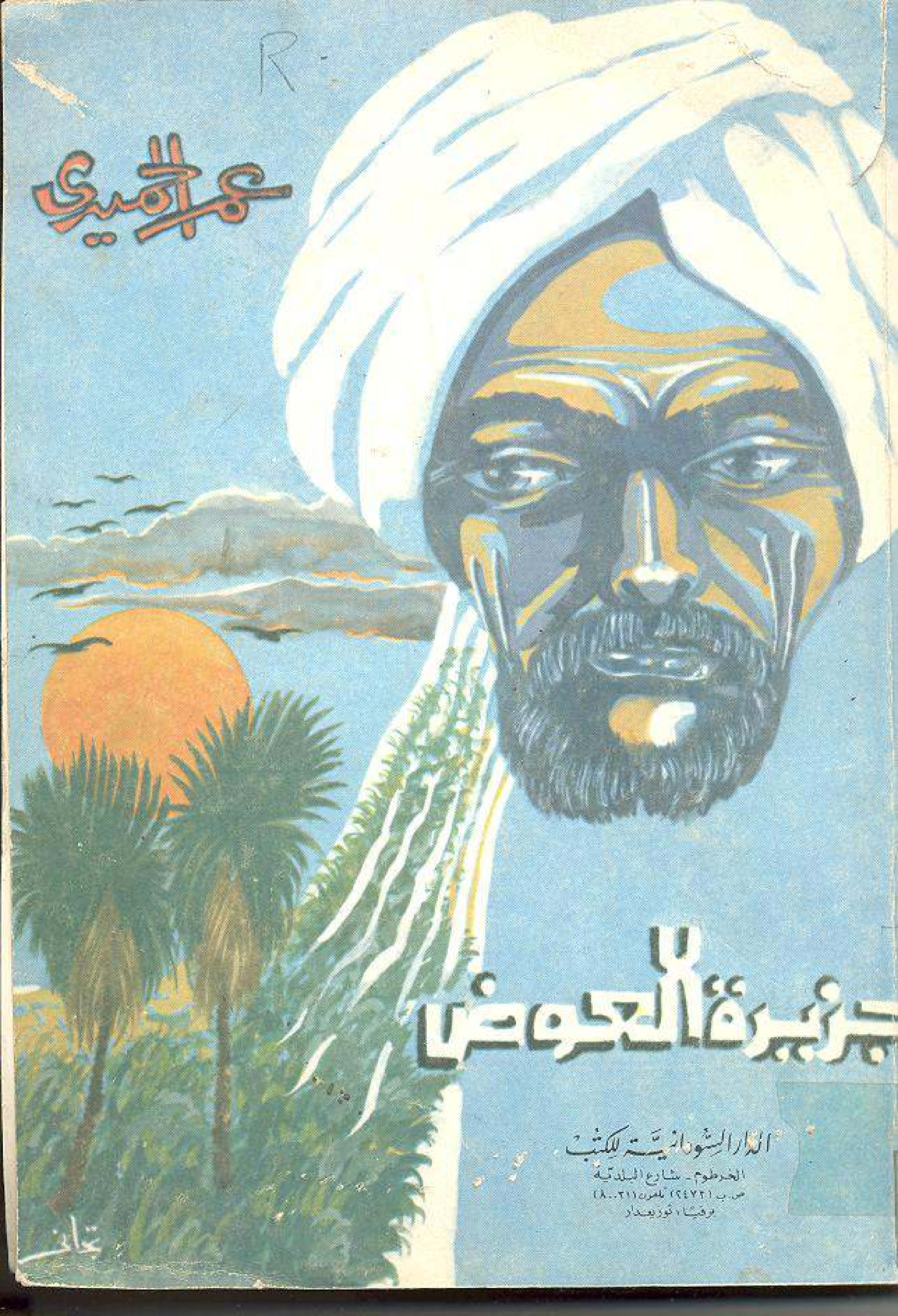
المرتضى

لكتب السودانية


عمر الحميدي
جزيرة العوض
الدار السودانية للكتب
الخرطوم - شارع البلدية
ص . ب (٢٤٧٣) تلفون ٨٠٢١١
برقيا : نوريهدا

جزيرة العوض

عمر الحميدي

جزيرة العوض

الدار السودانية للكتب
الخرطوم - شارع البلدية
ص ب (٢٤٧٢٢) تلفون (٨٠٠٢١)
برقياً : توزيعدار

بسم الله الرحمٰن الرحيم

الإهداء

إلى أرواح أجدادي الطاهرة...

من صنعوا (حوض السليم) بمدينة دنقلا:

الحاج محمد حسن الحميدي

الحاج محمد صالح

الحاج محمد علي صالح

الحاج عباس صالح

الحاج عبيد حسن الحميدي

رحمهم الله...

وإلى والدي — أمدّ الله في عمره —

الذي سار على أثرهم

أهدي هذه الرواية.

أبو محمد المنتصر عمر الفاروق

أعمال للمؤلف

مسرحية «يلدناس فاطمة»

عرضت بالمسرح القومي بأم درمان سنة ١٩٧٦.

مسرحية «السيل»

عرضت بالمسرح القومي بأم درمان سنة ١٩٧٧.

مسرحية «دربكين الليل»

عرضت بالمسرح القومي بأم درمان سنة ١٩٧٩.

مسرحية «الرمح»

مطبوعات دار العودة بيروت سنة ١٩٧٩.

قريباً :

الليلة الأخيرة في حياة مثقف سوداني

(قصة طويلة).

مقدمة

بقلم الأستاذ جمال محمد أحمد

أجرؤ أقول أن جزيرة العوض ، رواية السبعينات في العربية ، فقد كتبت فيها ولا شك ، بقدر من السعد قليل ، يمكن لها أن تكون رائعة معاصرة ، يقف عندها مؤرخو الرواية العربية ، من القابل ، الرواية بمعناها المستحدث ، الذي بدأ موكبه هيكل بزينب في العشرينات ، ولحق به عواد بقميص الصوف في الثلاثينات ، وعلى أثرهما محفوظ الذي فتح فتوحاته الكثر بزقاق المدق في الأربعينات وأولاد حارته في الخمسينات والطيب صالح الذي أخذ بيدنا للموكب في الستينات ، لن يعلم المؤرخون للرواية على النحو الذي أرى موكبه ، أي فقد يفقدون إن لم يدفع قليل من السعد بجزيرة العوض علماً للسبعينات .

على أن جزيرة العوض غير دعية ، تجيئك على حذر ، من قرب قرية « لا داعي لذكر اسمها ما دامت لا تثير شيئاً » أهلها سوقة ، ما بينهم « من يشذ عن الآخرين ، فلا عظيم في الماضي أو الحاضر » . وراوية الرواية لا يرى أن أياً منهم في ضمير الغيب ، لن تكون إلا بضعاً من أيام مضت وأخرى بين أيديهم . يؤكد لك انه « لا يوجد بينهم من يمكن أن يكون نابغة أو عبقرياً » وانهم « يتحولون كلما تقدموا في السن الى مخلوقات مملة ورتيبة » .

ونعود الى الفقرات الأولى من الرواية، وقد طوف بك رواية ماكر قادر في مشاهد ومواقف، فتراها رؤية غير هذه الرؤية. صاحبنا كان ماكراً خادعاً، ككل الرواة الذين يفتنونك عمن حولك، وعما حواليك، تسير ممسكاً أنفاسك. سرنا معه لحيث يريدك أن تسير، جاحظ العينين، واجف القلب، ممسكاً أنفاسك. سرنا معه حتى أطلّ بنا على الموت، يقول لنا وهو مشرف عليه، «قبل هذه اللحظات كنت أحب الحياة وأعشقها، وأعتقد أن حياتي مقبرة للجميع، عجبت للتشابه الكبير والمطابق بين بطن الأم وبطن الأرض، فكلاهما مظلم وضيق حسب ما هو شائع ومعروف، إلا أنني أجدهما من الاتساع بحيث أجد فيهما راحتي تماماً» ثم يموت، وقد ترحلنا معه منذ كان طفلاً في السادسة حتى لحظاته تلك، وقد أربى على التسعين، ثم يفلت من الموت، بخدعة؟ ربما لا. راوينا لا يعرف حدوداً تحد بين الحقيقة وغير الحقيقة، تتداخل الدنياوات عنده. الزمان طوع يديه. إن أراد له أن يقف وقف، شاهد هذا انه معنا، قاهراً للزمن، مروّضاً إياه، يودعنا شق من الدنيا عرفه، يروح لشقه المقابل، شأنه شأن من ينتقل لحجرة في داره، من حجرة أخرى لأمر من أموره:

«بعد أن ووريت الثرى، وابتعد الناس عني، رأيت جمعاً من الملائكة، وهم جمع من الخلق لا يشبهون الخلق في شيء، يقتربون مني، ويهيئون لي مكاناً فسيحاً ومريحاً أستجم فيه من عناء الحياة، لأنني بعد قليل سأكون في الحضرة الإلهية، وهذه الحضرة لن أتحدث عنها، لأنها تحتاج الى لون من الكتابة يتشكل بزمن لا كالزمان، وبكلمات غير منطوقة أو مكتوبة، إنني لا أملك إلا أن أستودعكم الوداع الأخير من مرقدي هناك، لحين نلتقي أنا وأنتم، وعندها سوف تعجبون كيف اننا كنا مجرد أطياف وأشباح هائمة، وإنما هنا كانت الحياة الحقة، وأنا أعرف أن أكثركم لن يقنعه هذا اللقاء، ولكن سواء اقتنعتم أم لم تقتنعوا، فسوف نلتقي جميعاً، لا تفرق بيننا سوى صالح الأعمال. وداعاً والى اللقاء هناك».

هكذا ينهي عوض النور رواية حياته المليئة لنا، عابثاً في النهاية، عبثه في البدء،

راضياً بالهدى وبالضلال ، ذاك ما وجده . ما أضاع وقته يسب الزمان وأهله ، ولا أضاعه بحمد الزمان وأهله ، أنفق وقته يحيا ، وراح «يرجانا» .

لا تحملنك «فصاحتي» هذه على الظن بأن «جزيرة العوض» رواية عابسة ، لا ولا هي بلهاء تضحك حتى تهتز ، في غير ما سرور ، وما في شخوصها واحد أخذ على نفسه أن يكون الضاحك ، أو واحد أخذ على نفسه أن يثقل عليك بحكمته . الناس ناس ، حكمة وغباء ، ضحك وبكاء ، جرمة الأكول مثلاً ينهض حيث الناس جلوس يبحثون شأناً لا يفقه له أول ولا آخر . إنه واحد من أخريات الناس «ولما كان بديناً فقد انحشر ثوبه من الخلف بين عجيزتيه ، فصاح حسين سعد الله ، البغله سافه يا جرمه . اضطرب جرمه وسحب ثوبه ، وعلق سعيد ، يا جماعة اعذروه ، إنه حامل في الشهر السابع» وينظر الرجل المذهول عن ذاته وعن غيره ، فيبتعد متثاقلاً وهو يهمهم بكلام غير مفهوم» وفي كل قرية عندنا «جرمه» هذا . يراه بعضنا ولياً صالحاً ، ويراه بعضنا قلقاً ، ويراه العارفون بالخفي عنا ، أذى يفسد على النساء دينهن . عوض النور في شغل عن هذا بجزيرة العوض . «جرمه» واحد من الناس . كذلك المزارعون الذين تشب بينه وبينهم الشر يقدمهم لنا ، نحس ونحن نستمع ، انه يخصنا بشيء ، نحن أصدقاء عرفناه منذ أن كان صبياً في السادسة ، يبني جزيرته حوضاً بعد حوض ، ويزرع شجرها واحدة بعد أخرى ، سهر الليل وعرق النهار ، حتى اكتهل وبلغ الخمسين ، يقول لنا في ودّ وطيبة قلب :

«من المفيد لمن يقرأ هذه القصة أن يعرف شيئاً عن المزارعين الثلاثة الذين يعملون معنا ، وهذا ما سأفعله» ثم يمضي عوض يحدثنا عن فضل وعثمان وجابر ، يحدثنا بمقدار لا يطيل في أنسابهم وأحسابهم ونشأتهم ، وما ذاك مرماه ، يخلق المواقف التي يقفونها ، والمشاهد التي يريد لنا أن نراهم خلالها . إنه معنى بأن يحكي ، ويحسن الحكاية والسرد ، ولولا ثرثرة تغلب عليه بعض الأحايين ، لكان نغم الصوت أشهى وطريق الحكاية ميسورة لا تؤودها عراقيل . يقول لك مثلاً : «صلينا على الأرض ركعتين» ويقول لك : «كان هناك احمرار قد انبثق من ناحية الأفق» عوض «صلينا ركعتين» وعوض «انبثق احمرار في الأفق» . ويذهب أحياناً مذهب التقرير ، يقول

لك : « يمارسون صناعة الخمور المحلية المشهورة من التمر وهي ما تعرف بالعرق » من يدري ، ربما كانت ثرثرة من اكتشف لسانه . لن أفسد عليه فرحة اكتشافه . وإن كنت ذاك الذي يأخذ نفسه بشدة في شأن الكلمة . هي السيدة ، دونها الأمر كله خواء وطنين.

« جزيرة العوض » تعرف للكلمة مكانها السامي . يتحدث كل فرد فيها بلغته هو ، ولا تتدهور على يديه لسوقيه يقول بها كثيرون . للشيخ صاحب التقى والزهد لغة تذكر معها دلائل خيراته ، وللساسة لغة تذكر معها بعض ما تسمع منهم . محمدة في الرواية مدروسة . تجزع على هذه المحمدة من تعابير لا تعرف كيف تسللت لهذا الأسلوب الطيع المتعمد . « أصبح شخصاً ممكن أن يرتكب أي حماقة ... » « كنت قد استقلت تماماً ... » لا يجزعن من يأخذون أنفسهم بالشدة في شئون اللغة ، هذه قليلة ، يقيني انها تسللت وكاتبنا مأخوذ بالناس والأشياء من حوله ، يلطف فيهم النظر ، يفتنونه حتى عن سرده العذب ، تأتيه لغة طائعة منغمة تنغيماً مع السرد ، أقوم ما تكون معه وهي حالية ، إن لم تكن هذه الحال ، ما تأويل هذه الوقفة عند والد هدى . أنا لا أحدثك عن بعد الكاتب بالانسان ، هو جديد نعم ، أنا أحدثك عن اتساق اللغة والسرد ، «والد هدى رجل بسيط وطيب اسمه أحمد محمد أحمد» وماذا يكون رجل وقره أهله باسم كهذا ، يحمله طوق حديد ، حتى ينصب عمره ، الشاهد «ولا يقولون له شيخ أحمد ، أو حاج أحمد ، لأن هذه الألقاب أكثر من أن تطلق عليه لقلة شأنه ».

قرأت جزيرة العوض بشيء من الحنين. أؤكد لك مع هذا ، إن الذي أقول عنها ، لم يمله الحنين الذي أقول به ، ربما كان عنصراً من عناصر هذا الشغف ، بالشخوص والمواقف والرؤى . وتساوق الأسلوب والحكاية . سيتمتع به غيري ممن تربوا ونموا بعيداً عن السواقي وجرارها ، والشواديف وأنينها ، وجلستك على « السقم » أمير عصاتك من جريد النخل طويلة حانية تدلك ظهر ثورك ، تلمسه رفيقة وهو «يدور يخطر طرباً ، يتوقف برهة يعبر عنه ، «فيضرب الأرض بقدميه الأماميتين فيحدث حفرة صغيرة ، ويرتفع الغبار ويظل معلقاً في الهواء على انخفاض قريب من الأرض ،

ثم يرسل خواره ويتنفس من بين فوديه فيسمع له شخير وزفير، ثم يهز رأسه فينفض أذنيه فيسمع لها طقطقة وهما يلامسان جانبي رأسه، ثم يواصل الدوران، فتمتزج كل هذه الأصداء مع سهل الأرض وامتدادها في الشمس فترتعش الأشياء جميعاً في الحرارة، والحلقة الكبيرة تدفع بالحلقة الصغيرة، فيدور الدولاب الاسطواني بما علقت عليه من «قواديس»، فيتدفق الماء منها ثم يندفع عبر الجداول والأحواض.

ما نسيت أن أقول لك إن النيل هو بطل هذه الرواية، لكني خشيت أن أضلك. ينفس علينا بطولته هذه راويتنا عوض النور، وربما اخترته أنت بطلاً اختيارياً، أن النيل وعوض وأصحابه وأهله، يكادون يكونون دمىً طوع مزاجه، إن فاض وأغرق النخيل والأرض سهروا الليل ورأوا نجوم الضحى، إن شح وضمر، لعنوا الدهر العنيد، وعاشوا الزمان الشديد، وهو على بأسه هذا في إفقار أطفاله، عند الهياج وعند الضمور، يمشي أكثر وقته سهلاً رهواً، على ضفتيه وفي جزره حياة، لا تغني فتبطر، ولا تفقر فتذل، وتشغلهم عن ذواتهم بالأحابيل، شغلت صبا عوض مرة بجيفة:

«جلست وحيداً، وفي تلك اللحظة اتجهت ببصري نحو الشمال حيث يندفع الماء أملس هادئاً، باستثناء بعض الأخاديد التي يحدثها التيار، أبصرت حدأة ذات جناحين طويلين، أسودين، تحلق أمامي على صفحة النهر، وما هي إلا لحظات حتى أسفت على نحو خاطف، مائلة على جناحيها المنحرفين الى الوراء، ثم أنشأت تحلق وجناحاها جامدان لا حراك بهما، وفجأة انقضت من حالق على جيفة معزى طافية على سطح الماء يدفعها التيار في تؤدة وبطء، وهي ترتفع تارة وتنخفض تارة أخرى، ثم رفرفت بجناحيها مرتفعة الى أعلى وقد أصابت لها شيئاً.

ويشغله بحمار أبيض أصيل اشتراه من علي عكود، ولما يطوعه فيسرع به للجزيرة:

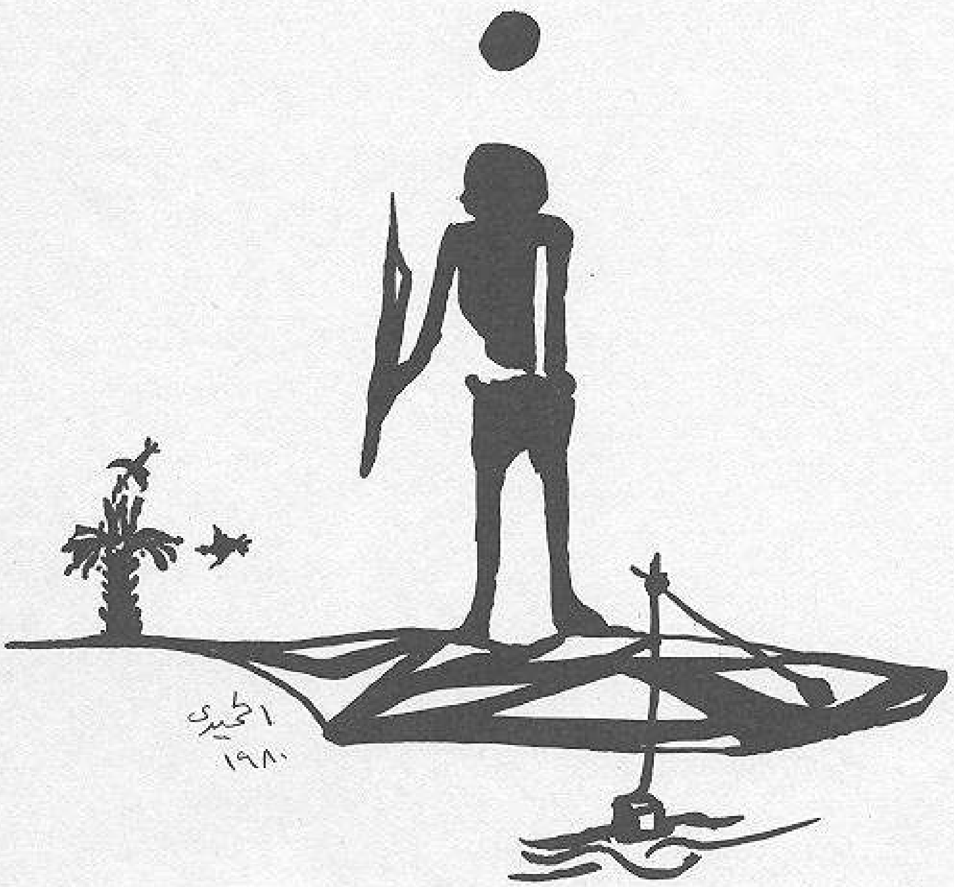
«وأنا أقوده بحبل مشدود الى عنقه، وهو يسرع تارة ويقفز أو يتوقف تارة أخرى مثل طفل مشاغب، حتى وصلت الى الشاطىء، وقد وجدت صعوبة كبيرة في

حمله على الدخول الى المركب...... إن هناك طريقة متعبة لإدخال الحمار في المركب ، يمسك شخصان بكل قدم من قدمي الحمار الأماميتين ثم يسحبانه نحو المركب ، ويثبتان قدميه به من الخلف ، وقد يقف آخر على حافة المركب فيمسك بإحدى أذنيه ليساعد في حمله وجره للوثوب داخل المركب » وراويتنا شاب حلو ساحر ، يقول لك في طيبة الشباب «إنها عملية صعبة وشاقة ، ولكن بعد عدة محاولات تعلم حماري كيف يقفز وحده ويخرج وحده » . ويكبر الحمار «يشق دروبه الصغيرة في الجزيرة والبر الغربي . كان ينطلق بي ، وفجأة يتوقف ليشمّ روث حماره لم يجف بعد ، ثم يرفع رأسه الى أعلى مطبقاً على أسنانه جميعاً ، وبعد لحظات يفرج ما بين قدميه الخلفيتين ويتبول ، ثم يهز رأسه ، فتتلاطم أذنيه مع جنبات رأسه فتطقطق ، ثم يفردهما في قوة وصلابة ، واحدة تمتد للأمام وأخرى للخلف ثم يواصل سيره وهو يرسل نهيقاً عالياً يسمعه الناس فيستدلون بصوته على مكاني » .

وسرائح أخرى من العيش على النيل كثيرة ، « الأروتي) الذي يفلّ القمل من ثنايا قميصه الأوحد ، والعمدة الذي يلف سيجارته لا ليدخن فحسب بل ليجعل منها عملاً فنياً يعجبه ويرضي مزاجه » وعذاب « شواويل » ليالي الفيضان ، وبعد هذا كله وقبله ، عين صاحبنا الماكرة ، أوهمنا باديء الأمر قال « نظري ويحه ضعيف كقلبي » ثم مضى فوق السنين ، يبين لنا عن حقيقة عينيه ، «تبصر الحسن من وراء حجاب » .

القسم الأول

الجزيرة



١

بلدتنا هي قرية صغيرة تقع على النيل بشمالي السودان ، ولا داعي لذكر إسمها ما دامت لا تثير شيئاً ، فهي قد جاءت إلى الوجود دون أن يعرف ذلك أحد ، وليس بين أهلها من يشذ عن الآخرين ، فلا عظيم في الماضي أو الحاضر ، ولا يوجد من يمكن أن يكون نابغاً أو عبقرياً ، أو من يمكن أن يكون على قدر من نباهة الذكر بحيث يصبح إنساناً فذاً يثير الإنتباه أو الرغبة في الاقتداء به ، وفي تصرفاتهم الطيبة والحميدة أحياناً أثر من السوقية والوقاحة ، وليس لديهم أي آمال أو رغبات كبيرة ، لأن جذوة التفوق والطموح خامدة فيهم ، ويمكن القول إنه لم تكن هناك جذوة ما ، وهم يتحولون كلما تقدموا في السن إلى مخلوقات مملة ورتيبة ، ويؤدون أعمالاً وأفعالاً وأقوالاً تتكرر في كل لحظة وفي كل يوم في رتابة وبلادة لا يحسون بها ، فيتحولون بالتدريج إلى كائنات تدعو إلى الرثاء مثل آبائهم الأولين.

بعضهم يعمل سعياً وراء لقمة العيش فقط ، والبعض يعمل للثراء ، والمتزوجون منهم يتحدثون عن ليلتي الإثنين والجمعة ويطلقون على كل منهما ليلة السنة حيث يمارسون لذائذهم مع زوجاتهم ، وإن كان البعض منهم لا يعترف بهاتين الليلتين فكل الليالي سواء ما دام الأمر رهين بحالة لا ترضخ لميعاد أو نظام ، ولا أعتقد أن هناك ما هو أهم من هذين الموضوعين في هذه القرية ، وهما موضوع العمل وموضوع النساء ، إذ كيف السبيل إلى مواضيع غير تلك المواضيع ما دامت قريتي لا تعرف الحفلات أو الأندية أو الرحلات وليس بها مدارس أو مكتبات أو حدائق ، ولكن هناك مناسبتين يجدون فيهما نوعاً من المتعة والتغيير ، وهما مناسبتي الزواج والموت. فإذا ما رأيت الرجال يسيرون في جماعات صغيرة ذات مساء وهم يتبعون بعضهم كما

يتبع القطيع آثار قطيع قبله ، فإنهم لا شك ذاهبون إلى مأدبة تقام بمناسبة عقد قران فلان من الناس ، أما إذا رأيت النساء مهرولات مثل صيد مذعور ، فلا شك في أن هناك شخصاً يحتضر ، ولا يمكن أن أمر على ذكر مناسبتي الموت والزواج ، رغم ما بينهما من تباين واضح ، دون أن أذكر مناسبة هامة ذات شأن كبير في قريتي ، ألا وهي مناسبة (الحضرة) حيث يجتمع أهل قريتي بعد صلاة العشاء في باحة المسجد أو في باحة خلوة الشيخ طه المنحول فيذكرون الله ورسوله وأصحابه والتابعين وتابعي التابعين والأولياء الصالحين ، فيمدحون بأصوات عذبة أو يتمايلون بأجسادهم في حركات مثيرة ومتنوعة ، ولا يعني ذلك بالطبع أن الناس هنا يكرهون حياتهم هذه ، بالعكس ، أنهم قد اعتادوا على هذه الحياة بحيث تبلغ الحماسة ببعضهم فيعلنون أنهم أسعد خلق الله جميعاً.

وفي هذه القرية الصغيرة ، كما في قرى العالم أجمع ، يوجد ما تعارف عليه الناس من حب شريف وغير شريف ، ومن خيانات زوجية ، ومن صداقات ومنازعات ، ومن صحة ومرض ، ومن منافسة شريفة وغير شريفة أحياناً ، ومن تعاون وقطيعة وغير ذلك مما يمكن أن تكون طبائع بشرية موجودة في كل زمان ومكان.

ولكن ما يميز قريتي عن بقية القرى هو أن تلك الوحشة والجمود التي تعيشها قريتي تشترك في إذكائها الطبيعة القاسية ، فالجوّ عندنا صحراوي ، والجو الصحراوي كما هو معروف لا يعرف سوى فصلين من فصول السنة ، فصل الصيف وفصل الشتاء بكل ما فيهما من حرّ شديد أو برد شديد ، ونحن نسمع بالربيع وبالخريف دون أن يكون لها أثر عندنا إلا عندما نحلم أو نتغنى بهما ، لذلك فلا توجد زهور أو غابات أو حشائش ، والقرية في حد ذاتها عبارة عن مستطيل رفيع يمتد محاذياً للنيل حيث ينتهي كما إبتدأ عند نجود ووهاد صخرية ، وهي من ناحية الشمال عقبة الصعيد ومن ناحية الجنوب عقبة السافل ، أما من جهة الغرب فلا شيء سوى رمال على امتداد البصر إذ هي جزء من الصحراء الكبرى ، كبرى صحاري العالم ، وأما من جهة الشاطىء الشرقي للنيل ، فلا شيء سوى كثبان رملية هائلة من الرمال الصفراء توجد خلفها ما تعرف جغرافياً بصحراء العتمور.

بدأت أضيق بهذه القرية وبمن فيها ، وقد تحول ضيقي إلى كراهية للناس ، لأنهم اختاروا لأنفسهم أن يعيشوا هنا من دون سائر بلاد الله الجميلة ، وقد كرهت أفراد أسرتي لأنهم ولدوني هنا حيث فرضوا وجودي في هذا المكان الذي يطوقه العذاب ، هذا الإحساس بالضجر قادني إلى أن أصبح دائم الكآبة والصمت والإنعزال عن الناس ، الأمر الذي قادهم لأن يظنوا أن بي لوثة من جنون أو عارضاً من بله أو غباء ، ورسخ هذا الاعتقاد تأتأة تحول بيني وبين التعبير عن نفسي في سلاسة وطلاقة ، لذلك فقد كنت دائم التطلع إلى مكان آخر يكون أجمل من هذه القرية ، مكان خاص بي أنا وحدي أجد فيه الخلاص لنفسي ، وقد تحقق لى ذلك ، في ذات صباح وأنا أسبح في النيل مع رفاقي في القرية وهم سعيد هلال ، وإبراهيم عبد الوهاب وحسن التوم ، رأيت أنا وحدي ومن دونهم جميعاً شريطاً أبيض طوله نحو عشرين ياردة قد ظهر فجأة في وسط النيل ، شعرت بقوة خفية ، وزغبة ملحة تجذبني نحوه ، فسبحت إليه ، وهناك وجدت أن هذا الشريط عبارة عن رمال ناعمة بيضاء ارتفعت هنا لتصنع هذا المرتفع الجميل في وسط النيل.

قفزت وضحكت ، وجريت هنا وهناك وأنا عاري الجسد ، كان الماء ينساب من جسدي ونسمة من الهواء البارد تغمرني وتلفح جسدي الضامر الصغير فتجففه ، كانت قدمي تنزلق في سهولة ويسر على تلك الرمال الهشة الناعمة ، وما هي إلا لحظات حتى لحق بي رفاقي ، وبعد أن جرينا وتسابقنا ، جلسنا في دائرة وكومنا كومة من الرمال الناعمة ولعبنا لعبة «الفار دخل بجماعته» لعبة شائقة وممتعة ، وما زلنا في صخب وضحك حتى إذا ما توسطت الشمس كبد السماء ، وأصابت أشعتها أجسادنا العارية فلفحتنا حرارتها ، وثبنا مرة ثانية إلى النيل ، فسبحنا عائدين إلى الشاطىء الغربي ، كانت ثيابنا الممزقة والبسيطة مكومة هناك وقد وضع كل واحد منا حجراً على ثيابه حتى لا ينثرها الهواء فتطير أو تقع في الماء. ارتدينا ثيابنا ثم شرعنا في العودة إلى الديار.

كانت الأرض رملية وحارقة ، فكنا نحسّ بلسع حرارتها الحارقة تحت أقدامنا الحافية ، فنجري ونحن نقتلع أقدامنا من حرارة الرمال المتوهجة لنقطع المسافة ما بين

ظل شجرة وأخرى أو نصل إلى جدار حائط يكون من الارتفاع بحيث يسمح لنا بشريط رفيع من ظلّ جاف نلتصق به ونسير محاذين له بضعة أمتار.

وهكذا سلكنا طريقنا في تلك الظهيرة وسط القرية التي لا تحدّها حدود من شوارع أو دروب، فقد كانت الدور تبنى حيثما اتفق، وأخيراً فرقت بيننا المسالك والسبل وقصد كل واحد منا إلى داره.

وفي الدار كانت الأفكار التي تراود ذهني كثيرة ومتشعبة حول ذلك المرتفع الرملي الناعم الذي رأيته وسط النيل، فما أن أتتني فرصة الحديث مع والدي حتى أفرغت له كل أفكاري في قالب مسموع حول ذلك الشريط الرملي لأسمع رأيه فيه، وما كان له أن يقول لي رأيه بسرعة، فقد كان يجد لذة وسعادة في تلعثمي وأنا أنزع الكلمات من فمي بصعوبة وضيق حتى أكاد أن أختنق، وأخيراً وبعد أن كرر السؤال مرات ومرات وهو يمد عنقه نحوي ليسمع أكثر، ويفتح لي فمه لأسرع في الكلام، ويفتح لي عينه حتى لا أغيب عن باله، إبتسم في سعادة لا معنى لها، ثم عاد إلى وضعه الطبيعي وهو يدعي أنه قد فهم قصدي فقال لي:

— ما أكثر ما تظهر هذه التلال الرملية في النيل، ولكنها سرعان ما تختفي لتظهر في مكان آخر.

لقد صدمني هذا القول من أبي، وما كنت لأنتظر من أب مثل أبي يعاني من كثرة الأبناء وقلة الحال أن يقول غير ذلك دونما إهتمام لما يمكن أن تكون مشاعري أو آمالي، ولكنني ولسبب أعرفه لم أصدق ما قاله هذا الأب، والذي هو أبي من دون سائر الآباء.

عند العصر عدت مرة أخرى إلى الشاطىء، فقد كنت في شوق شديد لمعاودة السباحة مرة أخرى نحو ذلك الشريط الرملي الجميل الذي بهرني جماله، وتيقنت من إمتلاكه، لقد ظلت صورته عالقة بذهني لا تكاد تفارقه لحظة واحدة منذ أن رأيته في هذا الصباح، فما أن وصلت الى الشاطىء حتى خلعت ملابسي وسبحت وحيداً إلى أن، وصلت إليه، كان مكاناً بعيداً ووحيداً، وتحيط به المياه من كل جانب،

خطر ببالي أن أمتلك هذا المكان لجماله ووحدته وصمته ، تطلعت إلى الغرب فرأيت قريتنا تكاد تختفي وسط أشجار النخيل ، لقد تلاقت ذوائب الأشجار هناك ، فبدت للعين كأنها مرج ، تعجبت كيف أعيش وسط كل هذا الإخضرار الكثيف ولا أشعر به ؟ وتطلّعت نحو الشرق فرأيت كثبان الرمال الصفراء ترتفع عالياً ، لتنحدر انحداراً شديداً حتى تلامس النيل وهي صامتة متوهجة في وجه الشمس ، وكنت أنا وجزيرتي الصغيرة نقف في الوسط كزورق في مجاهل المحيط بعيداً عن أذى الناس جميعاً .

جلست وحيداً ، في تلك اللحظة اتجهت ببصري نحو الشمال حيث يندفع الماء أملساً وهادئاً باستثناء بعض الأخاديد التي يحدثها التيار ، أبصرت حدأة ذات جناحين طويلين أسودين تحلق أمامي على صفحة النهر ، وما هي إلا لحظات حتى أسفت على نحو خاطف مائلة على جناحيها المنحرفين إلى الوراء ثم أنشأت تحلق وجناحاها جامدان لا حراك بهما وفجأة انقضت من حالق على جيفة معزى طافية على سطح الماء يدفعها التيار في تؤدة وبطء وهي ترتفع تارة وتنخفض تارة أخرى ، ثم رفرفت بجناحيها مرتفعة إلى أعلى وقد أصابت لها شيئاً .

شعرت بالانقباض لدى مشاهدتي لهذا المنظر المنفر ، ولم يخفف من شعوري بوطأة الحزن هذا إلا منظر بعض الأسماك الصغيرة وهي تنبثق فجأة من الماء وهي تتواثب في الهواء في قفزات رشيقة وسريعة ثم تستدير وتنقض غائصة مرة أخرى في قفزة سريعة ، لست أدري إن كانت تلعب أو هو نوع من الغزل بين عالم الماء وعالم الهواء .

وتراقصت في ذهني صور لا حد لها ، صور طفل يصنع عوالم لم تخطر ببال بشر ، وما زلت في أحلامي وتصوراتي تلك حتى رأيت قريتي تتوهج باحمرار قرمزي ، فقد كانت الشمس تنحدر نحو المغيب فأسرعت بالعودة إلى الديار .

كانت أفكاري قد وضحت تماماً بشأن هذا المكان ، ففي صباح اليوم التالي طلبت من والدي أن يعطيني فسيلة من شتل النخيل ، وعندما سألني عن السبب

أخبرته بأنني سوف أغرسها في ذلك الشريط الرملي الذي حدثته عنه ، ولأن والدي كان يعتقد أن هذا الشريط الرملي سوف يختفي بعد أيام كما ظهر واختفى من قبل ، فقد رفض أن يعطيني واحدة ، واعتبر أن هذا الطلب لا يعدو عن كونه خسارة لا مبرر لها ، فالفسيلة يمكن أن تعود عليه بمليم أو مليمين يستفيد منهما ، ولكنني لم أيأس وتعلقت به ورجوته أن يعطيني فسيلة واحدة ، واحدة فقط ، كنت ألحّ وأرجو حتى كاد البكاء يغلبني في كثير من الأحيان وأخيراً رقّ قلبه لي وأعطاني واحدة كان يعتقد أنها من أردأ الأنواع.

لم أضيع دقيقة واحدة ، لقد حملتها وكان جزؤها الأسفل ملفوفاً بعصابة من خيش شدّت بحبال ملفوفة حولها حتى تحتفظ بالطين الذي يلمّ جذورها ، وهناك على الشاطىء وضعتها ثم أحضرت لوحاً من الخشب وثبت عليه الفسيلة ثم وضعت لوح الخشب برفق على الماء ، ثم سبحت بجانبه وأنا ممسك به ، كانت هذه المحاولة شاقة ومتعبة ، وغير مضمونة النتائج ، كنت أدفع اللوح الخشبي بيد وهو يميل يميناً ويساراً ، وأسبح باليد الأخرى وأنا أغطس في الماء أحياناً في محاولة لتغيير اتجاهه ، وأحتفظ بتوازنه حتى لا ينقلب ، لقد خارت قواي ، وكدت أغرق لولا أنني كنت مصمماً على أن أصل بها إلى جزيرتي الصغيرة . كنت على وشك أن أفقد السيطرة على نفسي وعلى لوح الخشب ، عندما لامست قدمي القاع ، وهكذا وجدت نفسي وقد وصلت إلى المخاضة القريبة من الشاطىء فجذبت لوح الخشب وحملت الفسيلة برفق ووضعتها على أرض جزيرتي الصغيرة.

كنت قد لاحظت وأنا على الشاطىء ، أن ذلك الشريط الرملي يمتد من الشمال إلى الجنوب ويرتفع تدريجياً حتى يبلغ أعلى مرتفع له عند الناحية الشمالية ، قد قررت في نفسي أن أغرس هذه الفسيلة في أعلى مكان بالجزيرة ، أي في الناحية الشمالية عند قرن الجزيرة الرفيع.

كان أمر غرس الفسيلة لا يحتاج إلى جهد فقد حفرت بيدي حفرة بعمق قدم في الرمال الهشة كان الماء ينساب من كل جانب ، لقد كنت في واقع الأمر أغرف طيناً ، وبعد أن جهزت الحفرة فككت الرباط الذي يحيط بالفسيلة ، ثم وضعتها في

الحفرة بأناة ثم أهلت التراب الذي يكاد أن يكون طيناً عليها من كل جانب حتى ثبتت تماماً وتساوت مع الأرض، ثم جلست أنظر إليها وأنا أتمثل فيها نخلة باسقة ذات أكمام وأغصان وجريد وثمار، آكل من طرحها وأجلس تحت ظلها.

مرت الأيام، ولم تختف جزيرتي كما قرر والدي وكما قدر الآخرون، ولكنها كانت في كل عام تزداد طولاً وعرضاً، لقد صارت جزيرتي فسيحة، ومن جانب آخر فقد ثبتت جذور نخلتي وطال جريدها، وحتى أوفر على نفسي تعب السباحة صباحاً والعودة ظهراً، ثم السباحة عصراً والعودة مساء، فقد درجت على إحضار طعامي معي وهو غذاء بسيط يتكون من قرص من دقيق القمح المخلوط بالتمر، كنت أحزم ملابسي وطعامي وأضعها فوق رأسي ثم أسبح نحو جزيرتي، لم أكتفِ بذلك فحبي لجزيرتي جعلني أفكر في المبيت فيها وذلك في الليالي المقمرة حيث أستلقي على ظهري وأراقب القمر وهو ينساب بين السحاب الذي يتشكل في هيئة أجسام وكائنات غريبة، ثم أنام دون أن أدري، فأحلم بالأسماك الصغيرة وهي تتواثب من الماء، وبالتماسيح وهي تلعب وتقفز، تماسيح صغيرة لها عيون كالقمر، ولكن بين هذه التماسيح تمساح كبير يكبر ويطول، إنه يشعرني بالخوف والرعب، إنه يقترب مني وما أن يجسم على صدري، ليخنقني حتى أتململ وأفيق منزعجاً.

ذات صباح حدث حادث سعيد، ملأ قلبي بالبهجة والفرح، فقد شاهدت عصفورين حطا على نخلتي الصغيرة، عصفورين من تلك العصافير الصغيرة ذات المناقير الصفراء والأذيال الحمراء وهما يغردان بأصوات عذبة، ويقفزان من جهة إلى أخرى في خفة ورشاقة، وأظن أنهما كانا ذكراً وأنثى وهما يمارسان لوناً من الدعابة والغزل الفاضح دون الاهتمام بأمري لأنهما ربما اعتقدا أنني صغير لا أفقه في هذه الأمور شيئاً.

٢

تصرمت الأيام والأعوام وفي كل عام كان والدي وأهل قريتي يقدرون أن جزيرتي سوف يبتلعها الفيضان، ولكن كان النيل في كل عام يفيض ثم ينحسر وقد إزدادت، جزيرتي طولاً وعرضاً ولأن إسمي عوض، فقد أطلق عليها الناس إسم: جزيرة عوض وقد سرني هذا الإسم لأنه مأخوذ من إسمي.

ومن جانب آخر فقد طالت نخلتي، وولدت ثماراً، وأكلت من ثمرها وفرحت بطعمه الحلو اللذيذ، فقد كان لون قشرتها من أسفل بنفسجياً غامقاً، ومن أعلى قرمزياً فاتحاً، حملت بعضاً من هذا الرطب لوالدي، وبعد أن أكل منه واحدة وثانية وثالثة أثنى على طعمه الحلو وقال لي بفرح ودهشة:

— إنه من نوع «القنديلة» حجمه كبير ونواته صغيرة، ولكن شكل تمرته يشبه الحربة ومنذ ذلك اليوم أطلقت على نخلتي إسم «رأس الحربة» فكان الناس كثيراً ما يطلبون رطبها فألبي طلبهم بفخر وسرور.

كنت أملك حريتي في سلوكي وتصرفي، فوالدي كانا يحباني شأن معظم الآباء إلا أنهما كانا لا يأبهان لشأني وذلك راجع إلى طبعي الذي يميل بي الى الصمت والعزلة، وكثيراً ما يسرح ذهني فلا أنتبه لما يقال لي، أو ما يدور حولي، كنت أحدق في فزع في الأشياء من حولي، وذهول يفقدني الإحساس بأي شيء، وقد أعتقد والدي أنني لن أعيش طويلاً وإن عشت فسوف أكون عبئاً عليهما، لقد كنت موضع ازدراء وسخرية، وأحياناً موضع حنان وشفقة فشببت وأنا لا أحمل أي ود

تجاه والدي ، وهما من جانبهما قد إكتفيا بما عندهما وهم تسعة أبناء ، لقد تركوني وشأني لأبعد عن بقية اخوتي غائلة العين والحسد.

تقبلت جنوني أو بلهي حسب ما يعتقدون ، تماماً كما يقبل الإنسان في حياته عمله وموته ولكنني كنت أدرك حقيقة الأشياء من حولي بوعي الشديد ، وإدراك عميق وحساسية مفرطة تجعل من الحدث الصغير أو التافه أمراً جديراً بالتأمل والإهتمام ، وهذا هو سر شذوذي ، الشخص الوحيد الذي كان يحبني ويسأل عني هو الشيخ طه المنحول وهو ولي من أولياء الله الصالحين ، كان كثيراً ما يسأل عني ، ويتابع أخباري ، وقد فرح بجزيرتي ودعا الله أن يحفظها لي من كل مكروه ، وقد وعدني بزيارتي هناك.

كنت قد دأبت على زراعة الترمس بواسطة «السلوكة» على أطراف جزيرتي كل عام وذلك عندما يبدأ النيل في الانحسار ، وبعد شهور قليلة يطول فيحجب الجزيرة فأحس برائحته تنفذ في أعماقي ، حتى إذا جفت قشرته واصفرت ، قمت بحصاده ، فكنت أبيع منه فأكسب مالاً يوفر لي إحتياجاتي البسيطة والقليلة ، أما في داخل الجزيرة فقد شققت الجداول الكبيرة وزرعت على أطرافها البطيخ والقثاء والخيار ، فكانت أرض الجزيرة الرملية الخصبة تغل لي بطيخاً أحمر حلواً ، آكل وأبيع منه ، وأحمل بعضه لأهلي في البر الغربي فيأكلون منه بفرح وغبطة.

وفى الشيخ بوعده ، ففي يوم من الأيام رأيت الشيخ طه وبعض أتباعه يرسون بمركب العم هلال على جزيرتي ، وكانت هذه الزيارة حدثاً جديراً بالإهتمام ، أدخلت الفرح والبهجة في قلبي ، وجعلتني أحس بنفسي وكأنني شخص مرموق رغم صغر سني.

نزل الشيخ ومن معه وقد رحبت بهم وسررت لقدومهم ، تطلع الشيخ باعجاب نحو جزيرتي ثم قال لي:

— إنها جزيرة جميلة وكبيرة وخصبة ، وسوف تكون جزيرة مباركة بأذن الله ،

رددت خلفه ومن أعماق قلبي:

— إن شاء الله.

وكذلك دعا لي أتباعه.

أردف الشيخ قائلاً:

— أزرع بها يا ولدي بعض الحبوب والخضروات، وأصنع لك شادوفاً تسقي به الزرع.

كانت فكرة الشيخ رائعة، وقد وعدت بتنفيذها، لقد كان الشيخ ورعاً وتقياً وصالحاً، أعطاه الله الرفعة بين الناس والقبول التام، وحببه إلى الخلق جميعاً فهم يتطلعون اليه وقد امتدت أعناقهم لما يقوله لهم، كان نحيلاً من كثرة السهر والصوم والعبادة، لذلك فقد سماه الناس الشيخ المنحول، كانت ثيابه بسيطة ونظيفة، فهو يرتدي عمامة بيضاء، ويتوشح بشال أبيض من الكتان، وينتعل في قدميه حذاء خفيف من صناعة الأسطى شريف كركب.

وفي غبش الضحى المرنق، جلس الشيخ وأتباعه على رمال الجزيرة الطرية والناعمة وجعلنا ننظر إلى النيل، كانت أمواجه الهادئة تتلاطم فوق سطحه المائج وتتعانق فتحدث همساً ناعماً وقطع من الأخشاب والأعواد تتأرجح فوق سطح النهر، كان بعضها يتوقف ويدور حول نفسه دورات سريعة، وذلك عندما يمر بواحد من تلك الدوامات التي يحدثها التيار، ثم يواصل رحلته المجهولة المدى نحو عالم بعيد، ونحن نتابعه بنظرات فيها الحنين حتى يختفي هناك وكانت تحلق فوقنا أسراب من القطا سرعان ما تهبط فتلامس بأجنحتها الماء ثم ترتفع مرة ثانية فتنثر علينا رشاشاً من الماء المتطاير من أجنحتها المبتلة، ثم تحلق بعيداً مرة أخرى.

نهضت وقد شعرت بأنه قد آن الأوان لأقوم بواجب الضيافة نحو الشيخ وأتباعه فمشيت بين الجداول التي تناثرت على جوانبه أعداداً من البطيخ الكثير، بعضه صغير، وبعضه متوسط أو كبير، فأخترت بطيختين كبيرتين عرفت أنهما حمراوان في لون الدم وذلك بعد أن نقرت عليهما بأطراف أصابعي فسمعت لهما رنيناً ناعماً صافياً

ينبيء عن مدى نضجها ، حملت كل واحدة منها تحت واحد من إبطي وتقدمت نحو ضيوفي وأنا في حيرة من أمري إذ كيف أقطعها وأين أضعها؟

تطلع الشيخ نحوي وبثاقب من بصيرته الصافية اللماحة أدرك ما أنا فيه من حيرة والتباس ، فما كان منه إلا أن إبتسم إبتسامة هادئة ورقيقة ، تشع بأجمل ما في الإنسان الطيب من رقة وصفاء ثم قال :

ــ يا ولدي ضع بطيختيك هنا أمامي.

وبسرعة وضعت البطيختين أمامه وقد أدركت أنه قد وجد حلاً لما كنت أظنها مشكلة مستعصية ، وفعلاً فقد ضرب على واحدة منها فشقها إلى نصفين ، ثم تناول أحداهما فقسمها مرة أخرى إلى نصفين ، فأعطى من حوله ، وكذا فعل بالنصف الآخر من البطيخة وبالبطيخة الثانية حتى نال كل واحد نصيبه ،وأمسك كل واحد منا نصيبه من قطعة البطيخ الأحمر في إنتظار أن ينال الشيخ نصيبه فيأذن لنا بتناوله ، كان كل واحد منا ممسك بقطعته فيقدر حجمها وطعمها ، ثم يبتلع ريقه ويختلس النظر إلى من حوله فيقارنها بالقطع الأخرى ، وأخيراً تطلع الشيخ نحونا وقد أمسك بقطعته وهو يقول لنا ضاحكاً :

ــ هكذا كنا نأكل البطيخ ونحن صغار ، إنها لمتعة كبيرة أن يقلد الكبار الصغار ، وأظن أن إبننا العوض يأكل بطيخه بهذه الطريقة ، هيا لنأكل كما يأكل الصغار.

ضحكنا لدعابة الشيخ السمحة ، وما هي إلا لحظات حتى غاصت أفواهنا في لب البطيخ ونحن نتابع التواءاته وإنحناءاته في نشوة ولذة حتى نلم بكل طرف من مذاقه الحلو اللذيذ ، فالفضاء الرحب ، وهواء النيل المنعش ، جعلنا نحس بالجوع ، ولم ينس القوم وهم على ما هم عليه من قضم ومضغ وقد سالت عصارته على جوانب أفواههم أن يثنوا على طعمه ومذاقه الشهي.

وبعد أن فرغنا من الأكل ، شمرنا عن ثيابنا وخضنا في النهر بضع خطوات وقد أنحنى كل واحد منا ليغسل يده وفمه ، وقد يغريه الماء بصفائه وعذوبته فيملأ راحتيه

بالماء فيشربه ، جفف الشيخ وأتباعه أيديهم وأفواههم باردانهم ، وقد شكرني الشيخ ومن معه ثم دعوا لي وقفلوا عائدين يتقدمهم نحو المركب العم هلال .

طربت لفكرة الشيخ بشأن الشادوف ، وسرعان ما أحضرت جردلا وربطته بحبل ثم شددت الحبل على عود من خشب وثبت هذا العود على دعامة كبيرة من الخشب بعد أن غرستها في الأرض وهكذا أصبح عندي « شادوف » أغرف به الماء من النيل ثم أسكبه على الجداول فيجري فيها متدفقاً نحو الأحواض متى بدأت الزراعة .

في شهر نوفمبر قمت بزراعة القمح والفول وبعض الخضروات من البندورة ، والباذنجان والملوخية والبامية والبصل والثوم ، وبدأ الشادوف يعمل في ري الأرض .

كان فرحي يزداد يوماً بعد يوم وأنا أرقب الزرع وهو ينمو ويكبر ، وكان الليل عندي أحزن الأوقات ، ففيه أشعر بالوحشة والصمت ، فكنت أتطلع بشوق عارم إلى تباشير الفجر ، في ذلك الوقت عندما يكون العالم بين النور والظلام ، إستيقظ من نومي فأذهب الى حافة النهر فأتوضأ وأصلي صلاة الصبح ، كنت أطيل في الصلاة فليس في ذلك الوقت ما يدفعني إلى العجلة ، وعندما أفرغ من الصلاة أسير بين الجداول والأحواض وأرقب ما جد على الزرع من نمو وإزدهار ، تماماً كما يراقب الآباء أبنائهم وهم يكبرون حتى إذا جاء شهر مارس كان الزرع جاهزاً للحصاد ، فأحصد القمح وأحزمه في حزم ثم أكومه إستعداداً لدرسه ، وكذلك الفول ، كانت الخضروات من بامية وملوخية وباذنجان خضراء يانعة ، والبصل مدفوناً تحت الأرض وقد إستقامت أوراقه إلى أعلى حتى إذا جذبت واحدة منها نفذت رائحتها الشهية إلى أنفي فأحس بلهفة إلى أكلها كانت البندورة حمراء أو صفراء أو خضراء وهي في أعداد كبيرة ، أجني منها ما أراه يانعاً .

وفي صباح يوم باكر أسرعت الى الشيخ وأخبرته بسرور وفرح ما تم من أمر الزراعة ، أصغى لحديثي باهتمام شديد ، ثم إستعد هو وأتباعه للذهاب معي إلى

الجزيرة كان أحد أتباعه قد تخصص في تزرية القمح والفول فتبعنا وهو يحمل مزراته.

كان مركب العم هلال ينتظرنا على الشاطىء فأخذنا على مركبه إلى الجزيرة، تطلع الشيخ وأتباعه باعجاب وسرور إلى الجزيرة وإلى جرن القمح والفول وقالوا ببهجة وفرح:

— ما شاء الله... ما شاء الله.

قفز أتباع الشيخ فوق جرن القمح وأخذوا يقفزون فوقه وهم ينشدون وكأنهم يذكرون:

— صلوا عليه... صلوا عليه.

النبي... صلوا عليه.

الخاتر بي... القاعد بي.

نبينا محمد... صلاتنا عليه.

صلوا عليه... صلوا عليه.

وبعد ساعات قليلة من الزمان، درس القمح وصار كومة من التبن، ثم أمسك (الحوار) بمزراته وأخذ يذرو القمح، كان الهواء معتدلاً، فما أن يدفع بمزراته حفنة من الهشيم عالياً حتى يذروها الهواء، فيطير التبن بعيداً ليصنع مرتفعاً أبيض وجميلاً وناعماً، بينما يسقط الحب قريباً من الجرن ليصنع شريطاً أحمر جميلاً هو محصولي من القمح.

ومثلما فعلوا مع القمح فعلوا مع الفول أيضاً، وهكذا أصبح عندي محصول حقيقي من القمح والفول، كنت قد أعددت أكياساً جديدة، فعبأنا فيها محصولنا، فكان عائدي من القمح أربعة أكياس ونصف، ومن الفول ثلاثة أكياس، وكان كل كيس من هذه الأكياس يحمل خمسة عشر ربعاً لقد ارتكزت الأكياس على بعضها في صف طويل يسر العين ويبهج الفؤاد.

كان يوماً حافلاً ، فقد إتخذ الشيخ من ظل رأس الحربة مكاناً يجلس تحته ، وتحتها أيضاً كنا نقوم باعداد الطعام الذي كنت قد أعددته مسبقاً لهذه المناسبة ، أنه يوم «الفزعة» عندي ، وقريباً من رأس الحربة أيضاً فرشنا بعض الحصير لنأكل ونصلي عليه.

بعد صلاة المغرب إستعد الشيخ وأتباعه لمغادرة الجزيرة بعد أن أعطيتهم بعضاً من القمح والفول والخضروات ، وعند توديعي لهم قال لي الشيخ مبتسماً كعادته :

— يا ولدي العوض ، إنك تحتاج إلى كوخ ، تصنعه من خشب السنط وأعواد القصب للسكن فيه ، فيقيك حرارة الصيف وبرد الشتاء.

قلت بفرح وسعادة :

— حاضر يا سيدي.

ثم ركبوا المركب وأبحروا عائدين يقودهم العم هلال.

نظرت إلى الجزيرة في ذلك المساء العامر وقد صارت جرداء. ولكن كان هناك ما يدل على أنها لم تكن دائماً جرداء ، هناك بقايا من سنابل القمح تساقطت على الأرض ، وبعض أعواد الفول تناثرت هنا وهناك ، وهناك أحواض الخضروات ما زالت جنية وطازجة ويانعة ، كان المساء يعبق برائحة مدهشة هي رائحة الزرع بعد حصاده ، ورائحة التبن المنثور هباء ، والقشور المتطايرة ورائحة الارض وهي تتنفس بارتياح بعد أن نفضت عنها أعواد القمح والفول اليابسة ، ورائحة النيل وهو يجري ساكناً ، هذه الروائح تمتزج بنسمات الهواء الساخن لتصنع ذلك الجو الذي يعبق بكل ذلك السحر المبهم والغامض الذي يثير كوامن الشجن فيحس الإنسان بأنه قد ذاب تماماً في ثنايا الوجود ، أحسست أنني في هذا المكان لست وحيداً ، ففرشت ثوبي فوق جرن التبن الرخو وأستلقيت عليه منهكاً وأنا أغوص فيه ، وفي هذا الجو الصاخب بالحياة المبهم بالغموض إستغرقت في نوم هادىء عميق وأنا أحلم بالتماسيح الصغيرة التي لها عيون كعيون القمر وهي تلعب فوق الرمال البيضاء والتي تزداد بياضاً

في ضوء القمر، بينما كان هناك تمساح كبير... يكبر... وينمو... ويكبر بصفة مستمرة وينظر إلي بغضب وضراوة وشراسة.

عندما إستيقظت في صبيحة اليوم التالي كانت فكرة الشيخ في أن أصنع لي كوخاً قد أعجبتني وأستحوذت على تفكيري، فجزيرتي أصبحت عامرة والحمد لله، فنخلتي رأس الحربة قد طال ساقها وكثر جريدها ويمكن للرائي أن يراها وهو في البر الغربي أما إذا دقق النظر فيمكن القول أنه سيشاهد ثمارها أيضاً، والشادوف الثابت على حافة النهر ينبىء عما جد في الجزيرة من زراعة مروية، والجزيرة لم تعد رمال بيضاء، بل هي بنية اللون حيناً، وخضراء أو صفراء حيناً آخر، كل هذا يقف شاهداً على أنني قد أصبحت أملك شيئاً يستحق أن أشيد من أجله كوخاً أسكن فيه، وقلت في ذات نفسي:

ـــ عندما أشيد الكوخ، سوف أحضر بعضاً من أواني الشاي، وصاجاً أخبز عليه أقراصي المفضلة من دقيق القمح المخلوط بالتمر، ويمكنني بهذه الطريقة أن أعتمد على نفسي، وأجعل من الجزيرة سكناً دائماً لي.

سبحت الى البر الغربي وأنا أحمل ملابسي فوق رأسي كالعادة، حتى إذا ما وصلت إلى البر الغربي إرتديت ملابسي وقصدت العم هلال الذي كان يجلس على سطح مركبه مع إبنه سعيد، سلمت عليهما وخاطبت العم هلال:

ـــ لقد سمعت يا عمي ما قاله الشيخ لي مساء البارحة بشأن الكوخ؟

ـــ نعم يا ولدي... وأنه رأي سديد.

ـــ هذا صحيح، ولقد جئتك لتساعدني أنت وأخي سعيد لنحضر من حظيرة والدي ما يلزمنا من خشب السنط وأعواد القصب لنشيد الكوخ.

لقد جرى الأمر بعد ذلك في سهولة ويسر، فالحياة الرتيبة التي يعيشها الناس هنا، تجعل من العمل أمراً شائقاً يبعث البهجة وينسي الضجر، لقد نقلنا على ظهور الحمير ما يلزمنا من الخشب والقصب والحبال وأدوات الحفر ووضعناها على المركب

ثم أبحرنا نحو الجزيرة حيث تولى العمّ هلال إدارة العمل لتشييد الكوخ بحكم خبرته ، لقد اخترت وسط الجزيرة تماماً ليكون مكاناً لكوخي ، لأنه يشعرني بالأمان والسيطرة ، لقد بدأنا العمل بهمة ونشاط وكنت أنا وسعيد نقوم بتنفيذ ما يأمر به العم هلال حتى فرغنا من تشييده ، وعندما فرغنا من العمل ودعاني بعد أن شكرتهما ، وقد تركا لي القيام بالمهام الصغيرة كتنظيف الكوخ وتأثيثه وما إلى ذلك من الأمور.

ولم تمض أيام قليلة حتى كنت قد انقطعت تماماً عن العالم المحيط بي ، حيث يمكنني أن أعيش في وحدة وأنا أتأمل العالم والناس ، كانت حياتي بسيطة إلا أنها جميلة خاصة وقد أصبح عندي عائد من الحبوب والخضروات يسد لي حاجتي ويوفر لي مالاً أستفيد به في إنجاز ما يجد لي من مهام.

٣

مرت الأعوام، وفي كل عام كان الشيخ يزورني هو وأتباعه، ومريدوه ومحبوه وذلك في أيام الحصاد، وكنت في كل عام أزيد من رقعة الأرض التي أزرعها، فزاد بذلك محصولي من الحبوب وقد تطور الأمر بالنسبة لموضوع درس هذه الغلال، وأصبحت أسلك طريقة أكثر تقدماً وراحة وذلك بواسطة الحمير، كان أتباع الشيخ يحضرون معهم خمسة أو ستة من الحمير، وكنت أثبت عوداً من الخشب في وسط الجرن في حفرة عميقة نغرسه فيها بحيث لا يهتز، ثم نقوم بعد ذلك بربط الحمير من أعناقها ببعضها ثم نشدها الى ذلك العمود ونجعلها تدور حوله وهي تدوس بحوافرها على الجرن فتتكسر الأعواد والسنابل وتتفتت قشور الحب حتى يصبح الجرن كومة من التبن فنذروه بالطريقة المتبعة.

أما الذرة فكنت أحضر أعواد رفيعة من الخشب بطول مترين تقريباً، فيقف الحضور من أتباع الشيخ بالإضافة إلى صديقيَّ سعيد وابراهيم في صفين متقابلين بينما «قناديل» الذرة مكومة في الوسط، فيضربون عليها بتلك العصي، فريق يهوي عليها، وفريق يرفع عنها في حركة مثيرة فقد كان لوقع العصي على «القناديل» وأناشيد الرجال وأنفاسهم اللاهثة المتلاحقة، والمنتظمة أحياناً، أشبه ما يكون بالدوي العنيف الذي يهز أقطار النفس مثلما يكون الإنسان في عبادة خاشعة.

وأمام هذه التطورات قال الشيخ لي:

— إن الشادوف يا ولدي العوض لا يفي بالغرض، الأرض زادت وإتسعت

والحمد لله أفضل لك أو اقتنيت ساقية ، وعندي غلام إسمه توفيق ، وهبه الله لي وهو ولد نشيط وهادىء ، وسوف أدفعه للعمل عنك (أروتياً) ويساعدك في العمل.

رحبت بفكرة الشيخ أيما ترحيب ، ووعدت الشيخ بشراء الساقية ، لم أنم في تلك الليلة من الفرح ، فقد كانت الفكرة تتحول عندي إلى كائن حي ، فها أنا أقف أمام الساقية التي يجرها الثور ، وتوفيق خلفها يلوح بعصاه ، والساقية تدور وتدور وهي ترسل أنينها الحنون فيخطر الثور طرباً وهو يدور ،وهو إذ يعبر عن طربه يتوقف برهة فيضرب الأرض بقدميه الأماميتين فيحدث حفرة صغيرة ، ويرتفع الغبار ويظل معلقاً في الهواء على إنخفاض قريب من الارض ، ثم يرسل خواره ويتنفس من بين فوديه فيسمع له شخيراً وزفيراً ، ثم يهز رأسه ينفض أذنيه فيسمع لهما طقطقة وهما يلامسان جانبي رأسه ، ثم يواصل الدوران ، فتمتزج كل هذه الأصداء مع سهل الأرض وإمتدادها في الشمس فترتعش الأشياء جميعاً في الحرارة ، فيهتز الكون بالألحان والأنغام ، والحلقة الكبيرة تدفع بالحلقة الصغيرة فيدور الدولاب الأسطواني بما علقت عليه من جرار فيتدفق الماء من الجرار ، الواحدة تلو الاخرى ثم يندفع الماء عبر الجداول والأحواض ليسقى الزرع .

في صباح اليوم التالي قصدت العم هلال ، وكان إبنه معه ، وكان العم هلال على فكرة مسبقة بمشروع الساقية ، فقصدنا الأسطى عبد الوهاب الذي برع في نجر السواقي والمراكب وهناك في غابة السنط القريبة من الشاطىء ، التقينا به حيث يقيم في هذا المكان الذي يوفر له الأخشاب والظل المبعثر ، كان الأسطى عبد الوهاب والذي يبلغ الخمسين من عمره ، جالساً على منشارة الذي يقف على أخشاب محمولة على أربع دعامات من الخشب وفي وسط هذه السقيفة التي ترتفع لأكثر من مترين كان منشاره يصعد وينزل في حركة آلية وسهلة ، يساعده في ذلك غلام صغير يمسك بمؤخرة المنشار ليدفع به إلى أعلى أو يسحبه الى أسفل.

أما ابنه ابراهيم فقد كان يقف غير بعيد وهو يحمل فأساً ضخمة وثقيلة ، وقد أكب على جذع شجرة ليقطعها ، وكان عاري الجسد إلا من سروال من الدمورية

أكتسب لوناً طينياً غامقاً وذلك من أثر العرق والغبار ، رحب بنا الأسطى عبد الوهاب وإبنه إبراهيم ، وقد رأى في زيارتي له أمراً غير مألوف ، لذلك فقد تطلع الينا في إنتظار ما سنقوله له .

وحتى لا أدع حيرته وفضوله يطولان ، دخلت في الموضوع مباشرة وطلبت منه أن يبيعني ساقية ، لم يكن هناك أي خلاف ، فالساقية جاهزة والثمن معروف ومتفق عليه والدفع على قسطين قسط يدفع فوراً والقسط الآخر يدفع بعد الحصاد نقداً أو عيناً ، دفعت جنيهين ووعدته بدفع الباقي عند الحصاد كما هو متبع ومعروف ، كنت زبوناً سهلاً ومرناً لم أساوم أو أخل بالشروط كما يفعل البعض أحياناً ، وقد أعجب الأسطى عبد الوهاب بي فصادر صديقاً لي رغم فارق السن بيننا .

وهكذا حسمت هذه المشكلة ، وتعاونا جميعاً على حمل أجزاء الساقية المختلفة والتي تتكون من ثمانية قطع رئيسية وبعض القطع الإضافية الصغيرة ، وحملناها إلى المركب التي أقلعت بنا جميعاً حتى رست على الجزيرة ، فنقلنا أجزاء الساقية قريباً من الموضع الذي كان به الشادوف الذي أبعدناه ، وقد دعوا الله مخلصين أن تكون الساقية مباركة وسعيدة الطالع وأن أجني من ورائها عشرات الارادب من القمح والفول والذرة بأذن الله ، رددت معهم :

— آمين ... آمين ... آمين .

شكرتهم على شعورهم الطيب ، وإنفردت بالعم هلال وطلبت منه أن يشتري لي ثوراً بمعرفته من الشيخ إدريس الذي اشتهر بثيرانه القوية المدربة ، وأعطيته من المال ما طلب ، ثم التفت نحو البقية وشكرتهم للمرة الثانية ، وقد وعدوا بأن يحضروا في فجر الغد الباكر لينصبوا الساقية ثم أقلعوا عائدين الى البر الغربي .

وفي الصباح الباكر من اليوم التالي كان العم هلال والأسطى عبد الوهاب وولداهما سعيد وإبراهيم ومعهم الثور يرسون على جزيرتي ، فما أن رآني العم هلال حتى صاح وهو يطوي شراع مركبه :

— يشهد الله إننا كنا نتحدث عنك الليل كله ، وقد وفقنا الله فأشترينا الثور في الليلة ذاتها ومن فضل الله عليك ، أن الشيخ إدريس عندما علم بأن الثور لك راعانا فيه كثيراً ، يشهد الله إنك إبن حلال ، وأمورك ميسرة والحمد لله.

رحبت بهم ونحن في منتهى السعادة ، وفي همة ونشاط نصبنا الساقية ، وشددناها بالحبال وعمقنا الموضع الذي توضع فيه الجرار لتغرف منه الماء فصار أشبه ما يكون بالبئر ، لقد كان الأسطى عبد الوهاب والعم هلال صاحبي خبرة ودراية في هذا المجال ، أما نحن الشبان فكنا نسمع ونلبي ما يطلبونه منا ، وأخيراً ربط العم هلال الثور من رقبته وعلق عليها قطعة الخشب التي تدور بالحلقة الكبيرة ، لقد كان ثوراً أحمر قوياً مدرباً على جر السواقي ، وقبل أن تبدأ الساقية في الدوران توجه العم هلال نحو القبلة ، وأذن للصلاة بصوت ليس بالجميل ، ولكنه صوت عميق ومسموع ، توضأنا جميعاً وصلينا على الأرض ركعتين حمداً لله ، ثم أسرع العم هلال ووقف خلف الثور ، فصاح (هاع .. هاع) فدار الثور فدارت الساقية وهو يصلي على النبي ونحن ننظر اليه وإلى الساقية فرحين مهللين وأن كنت أنا أكثر الجميع سعادة وبهجة.

إنتشر الخبر بسرعة ، وكيف لا ينتشر مثل هذا الحدث الكبير وسط قريتنا الصغيرة لقد كنا نشاهد بعض الناس وقد تجمعوا على الشاطىء وهم يتابعوننا بنظراتهم ، ثم يناقشون الأمر دون أن يصلوا الى قرار ، ثم ينصرفون أخيراً ، مرجئين النقاش الى حين ، وأعتقد أن الخبر ما زال ينتشر ويسري حتى وصل للشيخ الذي أسرع الينا في جمع من أتباعه ، ولم ينس أن يحضر معه غلامه توفيق.

رسى مركب الشيخ على شاطىء الجزيرة بجانب مركب الشيخ هلال ، وأصبح في مقدور الناظر الينا من البر الغربي أن يشاهد مركبين قد طويا شراعيهما وألقيا مراسيهما على جزيرة العوض وأن هناك ساقية يجرها ثور أحمر صقيل ، تدور ويسمع أنينها الجميل وأن هناك عشرات الجرار عصبت رؤوسها بالحبال خلف بعض كصفوف المصلين ، وهي تغرف الماء من البئر ، ثم تفرغه على حوض من شجر الدوم المجوف لينساب بعد ذلك عبر الجداول والأحواض.

دخلت كوخي ومعي إبراهيم وسعيد ، وأعددنا الصاج وخبزنا عدداً من أقراص القمح ، وكان العم هلال في أثناء ذلك يقوم بذبح شاة وتوضيبها ، وما هي إلا لحظات حتى أصبح اللحم جاهزاً ، ووضعنا الأقراص في أربع من الأقداح ثم سكبنا على كل منها الأدام واللحم فأكلنا ، وشربنا الشاي ثم ضحكنا وثرثرنا وحمدنا الله كثيراً .

وعندما مالت الشمس الى المغيب ، أستأذن الحضور في العودة الى الديار في البر الغربي لكن الشيخ قال :

— خير لنا أن نصلي المغرب هنا ، أن المغرب وقته ضيق كما تعلمون.

وهكذا شمرنا عن ثيابنا ، وطويناها حول أوساطنا ، ثم خضنا في النيل بضع خطوات ، ثم توضأنا وبعد الوضوء إصطففنا للصلاة ، وكان أمراً غريباً أن يقف الشيخ بيننا في الصف ، لأننا كنا جميعاً نتطلع اليه ليتقدمنا ويؤمنا ، ولكنه أقترب مني وقال :

— أنت صاحب الجزيرة ، ولا يجوز أن يصلي بنا غيرك.

ترددت كثيراً ، لكنه ألح وأصر قائلاً :

— هذه سنة محمودة ، أن يصلي صاحب الدار بضيوفه .

وهكذا تقدمت الصف ، وصليت بجمع فريد يضم الشيخ وأتباعه والعم هلال والأسطى عبد الوهاب ورفيقا العمر ، سعيد وإبراهيم ، إنه جمع فريد ، له مكانته ووزنه في القرية بالبر الغربي .

وبعد الصلاة رفع الشيخ كفيه بالدعاء ، ودعا الله أن يحفظ لي الجزيرة ، وأن يوسع لي في رزقي ورزق جميع المسلمين ، وأن يهبنا الصحة والعافية ، وأن يرحمنا ويرحم موتانا وموتى جميع المسلمين ، وكنا نردد خلفه بقلوب راجية :

— آمين... آمين... آمين.

غربت الشمس ، تاركة غسقاً متلألئاً على الأرض والوجوه ، كانت العيون تبرق بانعكاسات السماء حيث تلتقط النور ما إستطاعت إلى ذلك سبيلاً ، وحبات من الرمال البيضاء عالقة على الجباه من أثر السجود ، وبحث القوم عن أحذيتهم الممزقة والبالية فلبسوها بعد أن نفضوا عنها التراب ثم إتجه الشيخ وأتباعه نحو مركبهم ، وكذلك العم هلال والأسطي عبد الوهاب وسعيد وابراهيم . وفي ذلك المساء الساحر المهيب نشروا شراعي مركبيهما اللذين انتشرا في الفضاء كأعلام الفوز والانتصار ثم أبحروا عائدين.

وفجأة وجدت نفسي وأنا محاط بعدد من المسئوليات ، توفيق ، والساقية ، ورأس الحربة ، والثور ، والأرض ، والكوخ ، والجداول ، والأحواض ، لقد شعرت إزاء ذلك كله بالخوف والرهبة وسرت في سكون المساء الأغبر الصامت العجيب ، كانت الأرض قد إكتسبت بغلالة رمادية تميل للسواد كلما تقدم المساء ، وفي هذا الجو الذي يلفه الخوف والغموض والغربة والصمت ، تبدد أملي في حياة العزلة والوحدة ، تلك الحياة السهلة الخالية من التبعات والمسئوليات ، كان توفيق يتابعني بنظراته وهو في حيرة من أمره ، لقد كان واضحاً أنه من ذلك النوع الصامت الذي لا يتكلم إلا إذا سئل لقد كان علينا بادىء ذي بدء أن نعد المكان ونعيد كل شيء إلى مكانه . نظرت الى توفيق فنظر إليّ وقد فهم ما أعني ، فجعلنا نعمل في صمت وهدوء في اعداد المكان ، هكذا صار من عادتي أن أتفاهم مع توفيق في أغلب الأحيان بالنظرات.

وما هي إلا أيام قليلة حتى بدأت الأحوال تسير في الجزيرة على وتيرة واحدة ، وكأنما صارت الأمور وكأنها تسير من تلقاء نفسها ، فقصة يوم واحد يمكن أن تكون تكراراً لكل يوم مع قليل من التغير ذلك التغير الذي يحدث عندما نحرث الأرض ونبذر البزار ثم نراقب نمو الزرع يوماً بعد يوم ونحن في شوق إلى يوم حصاده.

وإذا أردت أن أضع هيكلاً وظيفياً في الجزيرة ، فيمكن القول أنني كنت أشغل وظيفة (الصمد) بينما كان توفيق يشغل وظيفتي (التربال والأروتي) ، يبدأ العمل في

باكورة اليوم ، أنا أقلب الأرض ، وأفتح الماء على الأحواض ، بينما يقوم توفيق بربط الثور إلى الساقية وإدارتها ومراقبة الماء في الاحواض بحيث يغيرها من حوض الى آخر ، وفي الضحى نفطر ثم نرتاح إلى ما بعد الظهر حيث نواصل العمل مرة أخرى حتى تغرب الشمس ، فيقوم توفيق بفك الثور وسقيه ثم ربطه وتقديم العلف اليه ، ثم يذهب الى النهر حيث يستحم ثم يعود ونتناول طعام العشاء ثم نخلد للنوم حتى صباح اليوم التالي.

كانت حياة رتيبة وبطيئة ، تذكرني بحياة أهلي في البر الغربي ، وكان يزيد من رتابتها حركة توفيق المتمهلة ، والثور بطيء الحركة ، وهو يثير الغبار المتمهل مثله لكنها كانت حياة متجددة رغم رتابتها وسخفها ، لقد كانت هي السبيل الوحيد للتغلب على الوحدة ، وقد أدركت أن الإنسان وحده لا يساوي شيئاً ، كنت بجانب ذلك لا أحمل عداء تجاه أحد أو تجاه أي شيء ، فاذا غلت الارض وأنتجت نتاجاً طيباً حمدت الله ، وشكرته ، وإذا أتى مرض (العسل) فأفسد الذرة ، أو أتت (الحمرة) على القمح فأهلكته ، فأنني أوكل أمري الى الله ، فهو الرزاق وهو المانع ، إنني إنسان أحمل جسداً وروحاً ، فالأرض والساقية والكوخ وتوفيق أشياء من جسدي وذاتي ، ولكن روحي هي التي تميزني في الكون ، هكذا توصلت الى حل أزمتي.

٤

ضحك الشيخ في سعادة ثم قال :

ـــ الحمد لله الذي مد في عمري حتى أراك ، وارى جزيرتك على هذه الحالة التي تبهج العين وتسر الفؤاد ، لو قدر لي أن أموت الآن ، فسوف أموت قرير العين لأن جزيرة ولدي العوض قد إتسعت ورسخت وصارت حقيقة واقعة .

قلت له في لوعة وأسى وأنا أراقب اعلال صحته :

ـــ أسأل الله أن يمد في عمرك ، وأن ينفعنا بعلمك وصلاحك ودعواتك .

لكنه هز رأسه ضاحكاً ، وكأنه يسخر منا ، ثم قال في نبرة واثقة :

ـــ لكل بداية نهاية .

وفي الواقع فقد لاحظت في الأعوام الأخيرة أن الشيخ قد صار هزيلاً ، وأن جسده ليهتز ويميل كلما تحدث أو سعل سعالاً خفيفاً ، كان هذا آخر لقاء لي مع الشيخ في الجزيرة ، ورغم ذلك فقد كان يوماً حافلاً من أيام الحصاد ، وقد حثني الشيخ لكي أشتري لي مركباً ، كانت الفكرة واردة في ذهني ، ولكنني كنت في حاجة لمن يشجعني عليها ، فأنا في حاجة إلى مركب لقد أصبحت رشيداً ، وصارت لي مكانة مرموقة بين الناس ، ولا يعقل أن أعبر النهر سابحاً وأنا أحمل ملابسي فوق ظهري ، أو أنتظر العم هلال الذي قد يكون مشغولاً ، وقلت في ذات نفسي :

ـــ يجب أن أعبر النيل إلى البر الغربي وأنا في كامل هيئتي وملابسي ، وفي

الشتاء لن أخاف الماء ، وقد يحدث حادث بالليل يستوجب ذهابي إلى البر الغربي ، يجب أن أكون مستعداً للاقلاع بمركبي وقتما أشاء ، وهكذا تمكنت مني فكرة إمتلاك المركب فأخبرت العم هلال بما عزمت عليه ، فتولى هو الأمر بنفسه فأشترى لي مركباً متوسطاً يفي بالغرض من الأسطى عبد الوهاب ، وفي صباح يوم من الأيام رأيت مركباً ما زالت أخشابه جديدة لامعة ، وشراعه أبيض يرسو على الجزيرة وعليه العم هلال ، لم يكن هذا المركب سوى مركبي الجديد ، لقد أعجبت به ، وعدد لي العم هلال محاسنه ، لقد شكرته لكنه علق قائلاً :

— لم يبق لك سوى أن تشتري لك حماراً .

ضحكت وقلت له بحماسة وفرح غامر :

— نعم... لا بد من أن تبحث لي عن حمار .

وعلق العم هلال ساخراً :

طبعاً ، بشرط أن يكون حماراً أبيض نجيباً ، كريم الأصل ، لقد أصبحت غنياً والحمد لله .

ولو سئل أي واحد من أهل قريتي عن الغنى ، لأجاب بثقة وإطمئنان ، إن الغنى هو أن تملك أرضاً وساقية وحظيرة مواشي ، ولو سئل شخص آخر من أهل قريتي سبق له أن درس في مصر او عمل بها بواباً أو طباخاً عند أحد الباشوات ، لأجاب إجابة مفصلة عن معنى الغنى ، ولحدثك حديثاً طويلاً عن القصور والحدائق والسيارات والموائد الفاخرة والحصُر والخدم وغير ذلك مما لا يخطر ببال ، إننا نرى مظهراً من مظاهر الثراء يتمثل في سراي الحاكم الإنجليزي في المديرية ، ولكن ليس هناك من يفكر في منافسة الحكومة ويعيش في سراي ، ولأنني فهمت الثراء كما نفهمه نحن ، فقد إعتقدت أنني ثري بمقياس ذلك الثراء الذي نفهمه وأنني حسب ما قاله العم هلال ، أحتاج إلى حمار حتى أكمل بعض مظاهر هذا الثراء فسألت العم هلال :

— أين يمكنني أن أجد هذا الحمار؟

— أذهب لعلي عكود، إن له حماراً أبيض صغيراً وأصيلاً لم يتم من تطويعه بعد.

قابلت علي عكود، واشتريت منه «الدحش» الأبيض وأسرعت به نحو الشاطىء وأنا أقوده بحبل مشدود الى عنقه، وهو يسرع تارة أو يقفز أو يتوقف تارة أخرى، مثل طفل مشاغب، حتى وصلت الى الشاطىء، وقد وجدت صعوبة كبيرة في حمله على الدخول الى المركب، ولولا مساعدة بعض الأهالي الموجودين على الشاطىء لما إستطعت أن أحمله على الدخول في المركب. إن هناك طريقة متبعة لإدخال الحمار في المركب، يمسك شخصين بكل قدم من قدمي الحمار الأماميتين ثم يسحبانه نحو المركب، ويثبتان قدميه الأماميتين على حافة المركب، ثم يأتي شخص آخر فيدفع به من الخلف، وقد يقف آخر على حافة المركب فيمسك بأحدى أذنيه ليساعد في حمله وجره للوثوب داخل المركب، إنها عملية صعبة وشاقة، ولكن بعد عدة محاولات تعلم حماري كيف يقفز وحده ويخرج وحده، لقد تعهده توفيق بالعلف والرعاية فصار حماراً قوياً معافى يشق دروبه الصغيرة في الجزيرة والبر الغربي بقوة ونشاط، كان ينطلق بي، وفجأة يتوقف ليشم روث حمارة لم يجف بعد، ثم يرفع رأسه إلى أعلى مطبقاً على أسنانه، فاتحاً ما بين شفتيه فتبرز أسنانه جميعها، وبعد لحظات يفتح ما بين قدميه الخلفيتين ويتبول، ثم يهز رأسه فتتلاطم أذنيه مع جنبات رأسه فتطقطق، ثم يفردهما في قوة وصلابة، واحدة تمتد للأمام وأخرى للخلف ثم يواصل سيره وهو يرسل نهيقاً عالياً يسمعه الناس فيستدلون بصوته على مكاني لقد صار حماري يعرف بعض الأشياء التي تدور حوله، فهو يعرفني ويعرف توفيق والجزيرة والمركب والحلاق الذي يحلق جسده، فيرسم عليه زخارف جميلة، أما إذا ما رأى شخصاً غريباً فأنه يقف وينظر اليه متوثباً وهو يهز ذيله ويحركه بخفة وسرعة، وقد صارت بينه وبين الثور علاقة ذات طابع خاص.

٥

كان يمكن للأحداث أن تسير سيرتها الطبيعية لولا حادث قد حدث ، هذا الحادث تمخّضت عنه نتائج غير متوقعة أو منتظرة في تاريخ الجزيرة ، ففي صباح يوم من الأيام رست إحدى المراكب على الجزيرة ، ونزل منها بعض أتباع الشيخ أسرعت لإستقبالهم وعندما طلبت منهم أن ينزلوا عندي ، قال لي الشيخ حبيب عبد الستار والحزن باد على وجهه :

— إن الشيخ مريض جداً وقد يموت في أي لحظة ، وقد أرسلنا اليك لتحضر عنده .

وبسرعة جهزت نفسي ، وطلبت من توفيق أن يهتم بالجزيرة في غيابي ، وأسرعت عائداً معهم ولدى وصولنا الى منزل الشيخ أيقنت بالخبر ، كان الناس يجلسون على الأرض مسندين ظهورهم على جدر الطين الباهتة أو المتشققة وقد ران على الجميع صمت شديد ، حتى إذا خرج أحد من غرفة الشيخ تطلعوا نحوه في إنتظار أن يخبرهم بالنبأ الذي ينتظرونه ، دخلت غرفة الشيخ فوجدته مستلقياً على السرير ، كان وجهه يلمع ببريق جميل وإن كان مظهره ينبىء على أنه مريض مرضاً بالغ الخطورة ، كان عاجزاً عن الحركة بينما راح الناس يتحدثون عن الرائحة العبقة التي تعطر المكان وقد زعموا ، إن هذه الرائحة هي رائحة أهل الجنة ، جلست بالقرب منه على حافة السرير ، كان السرير واسعاً لأن الشيخ لا يشغل منه سوى حيزاً صغيراً رقيقاً بطول جسده النحيل أمسكت بيده وأخذت أقبلها وأبللها بالدمع ، كان

واضحاً أنه في النزع الأخير فتح عينيه وعندما رآني نظر إليّ ملياً ، ثم إبتسم إبتسامة راضية ، وأشار عليّ بأن أقترب منه فأنحنيت برأسي حتى صرت قريباً من وجهه ، ثم همس قائلاً :

— ابني العوضي !

— نعم يا سيدي .

— أريد أن أوصيك !

— نعم يا سيدي .

— بعد أن أموت أريد أن أدفن عندك في الجزيرة قريباً من رأس الحربة .

— نعم يا سيدي ، بعد عمر طويل إن شاء الله .

لقد كان تنفسه أثناء حديثه ثقيلاً جداً ، وعضلاته جميعاً تختلج بشدة ، وفجأة إهتز جسده وكأنه تلقى ضربة على حين غرة ، نظرت إلى عينيه فاذا هما شاخصتان إلى أعلى عميقتان ، عارفتان ، نيرتان ، توقف التنفس ، فقمت وأغمضت جفنيه ، وأنا في رهبة من نظرته المهيبة النافذة .

كان الناس خارج الدار قد تململوا في أماكنهم على أصداء الموت ، فأصاخوا بسمعهم ، وتطلعوا هادئين ، وهم يسمعون النبأ الذي كانوا ينتظرونه ، وفجأة دبت فيهم الحياة ، فهبوا واقفين وهم ينفضون الغبار العالق بمؤخرتهم حيث كانوا يقعدون .

مات الشيخ وأنتشر الخبر كما إنتشر خبر وصيته لي حتى ملأت الآفاق ، وأقبل الناس من كل صوب ، وما هي إلا ساعات قليلة حتى أُعِدَّ جثمان الشيخ لنقله إلى الجزيرة إزدحم الشاطىء بخلق كبير ، وتبرع كل صاحب مركب بمركبه لنقل الناس الى الجزيرة ، كانت المراكب تمتد بطول الشاطىء على إمتداد البصر وقد ألقت مراسيها وطوت أشرعتها القديمة وإرتفعت الساريات أمام سهل الفضاء والماء والسماء .

قبل نقل جثمان الشيخ إلى الجزيرة سبقتهم أنا وبعض الأتباع لاعداد المكان الذي سوف يدفن فيه الشيخ الطيب ، وقد حددنا موضع القبر قريباً من رأس الحربة .

بعد ساعات قليلة أقلعت نحونا عشرات المراكب تتقدمهم مركب العم هلال التي تحمل جثمان الشيخ ، بينما كانت بقية المراكب تحمل المشيعين والمريدين والأحباب ، وهكذا شهدت الجزيرة يوماً حافلاً لا مثيل له في تاريخها ، لقد إنتشر الناس هنا وهناك ، ولأن الوقت لم يكن وقت زراعة فقد سار الناس في الجزيرة ، بينما جلس البعض على حافة الجداول والأحواض اليابسة الا من بعض الحشائش الجافة ، وعندما حان وقت الصلاة على الميت ، إصطف الناس في صفوف طويلة بعضها خلف بعض ، وقد صلى بنا الحاج عبد الرحمن أمام المسجد ، وبعد الصلاة نقل الجثمان قريباً من القبر ، وهناك تلقته الأيدي الممتدة من حفرة القبر فأخذته برفق وأناة حيث وضع في مثواه الأخير ، ثم أهلنا التراب عليه بمجراف له حبلين ، كنت أنا من أمسك بالمجراف ، بينما أمسك سعيد بحبل وابراهيم بحبل ، يشدانه اليهما كلما إمتلأ المجراف بالتراب ، فنسكبه ، في حفرة القبر ، فيرتفع الغبار وترتفع ذراته لتختلط بالعرق الذي يسيل على الوجوه ، فنصنع كرات من الطين ، تتدحرج لترسم خلفها خطوطاً سوداء ، وعندما فرغنا من دفنه ترحمنا على روحه الطاهرة ، وقرأنا سورة الفاتحة للمرة الأخيرة ، وبعدها بدأت المراكب تستعد لرحلة العودة ، وقد عاذ الناس إلى ما كانوا فيه من صخب وعبث ، كانت المراكب تقلع الواحد تلو الآخر دون ترتيب أو إنتظام ، فيسرع كل واحد ليلحق بالمركب الذي أتى عليه حتى يستطيع العودة الى القرية التي أتى منها ، وقد تخلف العم هلال وبعض الأتباع ورجل كنت أسمع به وإن كنت لم أره من قبل إسمه حاج النعمة لا أدري ما الذي جمعه مع العم هلال وأتباع الشيخ في مركب واحد ، وقد إشتهر بين الناس بغلظته وطمعه وجفاف طبعه .

أعد لنا توفيق شاياً ، فطلبت من الحاضرين أن يقتربوا ليشربوا الشاي معي ففعلوا فمنذ الصباح ونحن لم نذق شيئاً ، فقد شغلتنا المأساة عن الإهتمام بالطعام

والشراب فجلسنا في حلقة صغيرة نشرب الشاي في صمت وإرتياح ، وأخيراً بدد حاج النعمة هذا الصمت عندما سألني وهو يتطلع في أنحاء الجزيرة :

ــ منذ متى وأنت في هذا المكان؟

ــ منذ حوالى عشرين عاماً.

ــ ما شاء الله ، يا لها من جزيرة عامرة ، ولكن قل لي ، هل هي لك أنت وحدك ، أم معك شريك؟

ــ إنني أعمل فيها وحدي ، ويساعدني توفيق حوارى الشيخ هذا الذي تراه يسكب لنا الشاي وهو بمثابة الشريك.

رفع توفيق بصره ، ونظر إلى حاج النعمة ، ليؤكد نفسه له ، ثم ابتسم في أدب وتواضع. رمقه حاج النعمة بنظرة سريعة ، ولم يقتنع بأنه شريكي في العمل وفي الجزيرة ، فواصل شربه للشاي ، ثم تحدث الشيخ حبيب عبد الستار خليفة الشيخ فقال :

ــ الشيخ أوصى بأن تكون أنت الحارس على قبره.

ــ إن شاء الله.

ــ أما النذور والهبات التي تأتي من زيارة المستنجدين والمعتقدين والمريدين لضريحه ، فسوف تكون من نصيبك ، تتصرف فيها كما تشاء ، حسب وصيته لي.

ــ خيراً إن شاء الله ، سوف أنفق من كل ذلك على الأحباب والفقراء والمساكين بأذن الله.

وبعد أن ذكرنا طرفاً من أخلاق الشيخ وسماحته وكرمه ، إستعد القوم للعودة ، يتقدمهم العم هلال إلى مركبه العتيق ، ثم نشر شراعه الممزق مثل راية الهزيمة وأقلع بهم نحو البر الغربي.

نظرت إلى الجزيرة وقد بدت لي وكأنها مكان وجد قبل أن يوجد النيل ، ويضم

الآن قبر الشيخ طه المنحول ــ رحمه الله ــ تطلعت نحو قبره ، رأيت ذلك الكوم من التراب الرمادي اللون ، سرحت بفكري وأنا أسترجع ذكرى تلك الأيام الجميلة ، عندما كان الشيخ يزورني هنا ، حياً بلحمه ودمه ، نشيطاً ، باسماً فرحاً ، كم من الزمن مر على تلك الأيام؟ سؤال لم أجد له جواباً ، فقد بدت لي قريبة وبعيدة ، إنه الزمن ، ذلك الغول الخرافي الذي يركض خلفنا ، إنه لا يتوقف ولا يستريح ولا يستجم ، الليل والنهار ، والنهار والليل ، وفجأة نجد أنفسنا ونحن أمام ذلك القدر المجهول الذي ننساه في كل لحظة ، وكأن حياتنا لم تكن سوى لحظات قصيرة جداً ، فاذا نحن كومة من تراب .

لم أكن أميل كثيراً لمثل هذا الحديث ، فقد كنت معجباً بما كان يردده الشيخ من مأثور القول ، وذلك عندما يقول لنا :

ــ أعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً ، وأعمل لآخرتك كأنك تموت غداً .

ولكن موت الشيخ أثار في نفسي إنطباعاً متشائماً ، وصدقت حديث الناس عندما يقولون عن الإنسان : إنه كومة تراب .

سرحت بفكري يسيطر على الفزع الغامض ، وأنا أحدق في القبر ، وفجأة رأيت الشيخ ينهض من قبره في كفنه الناصع البياض ، كنت قد نسيت أنه قد مات ، أقترب مني كعادته ، وبتلك العبارة الموجزة القليلة ، قال لي باسماً :

ــ الموت يا ولدي العوض ، حادث كأي حادث ، ولكن أجمل الأحداث أن تكون حياً ، وأن تجتهد في تعمير الجزيرة .

وعندما رأى ذهولي وصمتي أقترب مني وقال :

ــ أم أنك تريد أن تأتي معي؟

وفجأة أفقت من ذهولي ، وأشحت بوجهي بعيداً عنه ، وتذكرت أن الشيخ قد مات ، فتلاشى الشيخ في الهواء والضوء ، وكنت من خلال قصص سبق أن سمعتها عرفت منها أن الميت إذا نادى الحي ليذهب معه ، وحدث أن أستجاب له الشخص

الحي ، فان هذا الشخص لا محالة ميت ، لذلك فقد إعتبرت نفسي محظوظاً عندما إبتعدت عن الشيخ.

كان توفيق داخل الكوخ ، ولم يكن هناك أي مخلوق في الجزيرة سواي ، لكنني رأيت الثور والحمار يرفعان رأسيهما وينظران إليّ ، وكأنهما قد رأيا شيئاً ويريدان مني أن أشرح لهما ما حدث ، لقد أخافاني وهما يتابعانني بنظراتهما بتلك العيون الواسعة الغامضة ، وعندما ايقنا من إنصرافي عنهما واصلا أكلهما للعلف الذي وضعه لهما توفيق.

وقد فهمت من ذلك الحادث أن الشيخ لا يريدني أن أفكر فيه ، وأنه يريد أن يرقد مرتاحاً في عالمه الجديد بعد أن عاش بيننا حياة حافلة وطويلة كلها صلاح وتقوى وورع.

قادتني قدماي لأجد نفسي واقفاً على حافة جرف الجزيرة من الناحية الجنوبية متجهاً نحو الغرب حيث أواجه الشمس ، كان النهر يتألق أمام الشمس الغاربة ، وسطحه أملس رائقاً لكنه يتوهج بالضوء فترتعش المياه ، ومن خلال الظلال الداكنة التي تلقيها أشجار النخيل والجميز والسنط على النيل من الضفة الغربية ، برز كلب يسبح وهو يشق طريقه نحوي ، كان يسبح بسرعة وعندما صار قريباً مني أبطأ قليلاً وصار ينحرف مع التيار في هدوء وبطء ، وقريباً من الساقية إنبثق من النهر ثم استوفز على شاطىء الجزيرة ، نفض جسده بشدة ثم قوس ظهره وتمطى ، وبعدها رفع رأسه ونظر إليّ لحظة ثم هز ذيله على دفعات سريعة متتالية ، وعندما رآني أنظر اليه ساكناً وكأني أستقبله كضيف عزيز ، ألصق أنفه بالأرض ، وقد تدلت أذناه ، وصار يشم الأرض عبر الجداول والأحواض إلى أن صار قريباً مني ، فأضجع على الأرض دافناً رأسه في الغبار ، فاقتربت منه وجلست القرفصاء ومسحت بيدي على ظهره ، رفع رأسه وتطلع نحوي ، ثم هب واقفاً بثقة ، وإنطلق نحو بئر الساقية ، لعق قليلاً من الماء ، ثم وقف ينظر إليّ متأملاً وهو يهز ذيله ، كان كلباً أحمر وقد أحببته لأنني رأيت في سلوكه لوناً من الكياسة والأدب ، وسرعان ما صرنا أصدقاء ، لقد عرف مكانه قريباً من الثور والحمار ، حيث استلقى هناك بجانبهما وهم يتبادلون النظرات ،

أمسكت بغصن يابس كان ملقى على الأرض أمامي ، ورحت أزيح الحشائش الجافة وأساوي الأرض حتى أستطيع أن أرسم أفكاري به ، وسرعان ما إنسجمت في رسم زوايا ودوائر صغيرة ، وبينما أنا غارق في أفكاري شعرت بحشرة تقرصني في رقبتي ، فأمسكت بها ، ولم تكن هذه الحشرة سوى نملة حمراء من ذلك النوع الذي يؤلم ، وبدون أن أشعر سحقتها بين إبهامي وسبابتي ونفضتها في الغبار ، القيت بالغصن وعدت أحك الموضع الذي قرصتني فيه النملة مرة ثانية ، حيث طفح الجلد في موضع القرصة بتورم صغير ، رفعت رأسي ونظرت إلى الغرب ، كان هناك احمراراً قد إنبثق من ناحية الأفق ، كانت الشمس قد أرست خدها عند الأفق وعانقته العناق الأخير وهي تتلاشى رويداً رويداً خلفه ، مخلفة وراءها سحابة داكنة يشع الوهج من أطرافها وهي أشبه ما تكون بدثار يهم أن ينشر فوقها ، وطفقت الطيور تزقزق بقوة وعنف على الأشجار في البر الغربي ، كان الظلام يتزلق خلفي من ناحية الشرق ، فنهضت وإبتعدت في غبشة المساء وأنا أكثر حزناً ووحدة ، ورحت أغز الخطا نحو الكوخ الذي كنت أراه أمامي وهو أكثر وحدة وحزناً .

لم تمض بضع شهور على موت الشيخ حتى بدأت الجزيرة تشهد زيارات منتظمة تقوم بها نساء القرية لضريح الشيخ ، وعادة ما تكون هذه الزيارات في عصر يوم الأحد ليلة الإثنين أو عصر الخميس ليلة الجمعة ، وهكذا بدأت الجزيرة تشهد هذا العنصر الغريب عليها ، ألا وهو عنصر النساء .

٦

كنت أراقب هذا الحشد من النساء بعداء شديد ، فقد كانت تسيطر على فكرة فحوها أن النساء مخلوقات شريرة يجب أن يتجنبها الإنسان قدر المستطاع ، وإن كنت في دخيلة نفسي أتمنى لو أفوز بجلسة بينهن ، ولكنني كنت أكبح هذا الشعور بعناد غريب وشديد حتى ابدو أمامهن بأني حسن الأخلاق وكريم الخلال ، كنت أراقبهن عن كثب معللاً نفسي ببعض المهام المتعلقة برأس الحربة أو الساقية وهما قريبتان من ضريح الشيخ .

لقد لاحظت أنهن يجدن في زيارة الشيخ متعة وأنساً ، فينطلقن في ضحك وصخب محدثات بذلك جلبة وضوضاء ، وقد رأين في هذه الزيارات لوناً من الإحتفالات ، والمهرجانات والأعياد وأكثر ما كان يثيرني عبث أطفالهن بالزرع ، كانت هذه فرصتي لمواجهتهن والتحدث معهن ليراقبن أطفالهن ، ومناسبات الزيارة معروفة ، فهذه تريد طفلاً ، وتلك تتوسل بالشيخ أن يرد غربة زوجها الذي طال غيابه ، وهذه تسأل الله متوسلة بالشيخ أن يشفيها وغير ذلك من أحوال الحياة ، ورغبات الإنسان التي لا تحدها حدود ، وتجد في مثل هذه الأشياء عزاء وسلوى ، إن فراغ الحياة يجعل من همومنا الصغيرة ، منفذاً ننطلق منه ، لنتصور لأنفسنا مهام ذات شأن وجلال .

ومن خلال هذه الزيارات إكتشفت زينب ، ومن يومها بدأت أفكر في النساء بطريقة أخرى وأنهن فردوس الحياة الدنيا ونعيمها ، وأن لهذا الإحساس قصة أرى من الأفضل أن أقصها لكم من البداية .

كانت قوافل النساء هذه تأتي لزيارة الشيخ في تلك المناسبات التي ذكرتها، ومناسبات غيرها، وكن يحضرن النذور والهبات للشيخ والتي غالباً ما تكون نقوداً أو جدياً وأحياناً حملاً أما «الكعك» والشاي فقد كانا من الأشياء الثابتة، وكان نصيبي أنا وتوفيق يصلنا باستمرار وبكميات وافرة، وهذا لن يضرنا بشيء ما دمنا نشرب من الشاي أكثره ونحفظ ما بقي من الكعك للأيام التالية، وهكذا أصبح عندي مورداً ثابتاً للرزق لم يكن في الحسبان.

بمرور الزمن فترت حماستي ضد عنصر النساء، فقد كن يبذلن جهداً كبيراً لارضائي والتقرب مني بصفتي حارس الضريح ولدي سر من أسرار الشيخ، ولقد نجحن في ذلك، واني اشكر لهن هذه المبادرة، وفي الحقيقة فقد كن يرين في نفوري وانصرافي عنهن نوعاً من الغبط والغرابة لأنهن يعرفن جيداً قدرهن لدى الرجال في البر الغربي.

وبدأت أتعرف على الكثير منهن، عرفت من كن في عمر والدتي، مثل آمنة زوجة العم هلال، وسكينة زوجة الاسطى عبد الوهاب، وهناك من كن في مثل عمري أو أصغر، كشقيقات سعيد وابراهيم، وعرفت أيضاً زينب وهي امرأة مات عنها زوجها وهي ما زالت شابة، وتدور عنها شبهات أعتقد أنها مختلقة، شأنها في ذلك شأن أي أمرأة أخرى شابة وجميلة تعيش في ظروف كظروف قريتنا، التي يطلق الناس فيها لأخيلتهم العنان لتصور لهم أحداثاً يعجزون عن تحقيقها في واقع الحياة.

وكنت أعرف حاجة الزلال، فقد كانت تحضر في كل مرة مرشداً ودليلاً لقوافل النساء، ومهنة حاجة الزلال، أنها تبيع العطور والحناء ولوازمها بالأقساط للنساء، وهي تعيش وحيدة لا أهل لها، وتقول للناس أن أهلها موجودون في بلاد السافل، كنت أشاهد جمع النساء المتزوجات، وجمع الفتيات، وكانت زينب تملك حريتها في الانضمام لأي جمع تراه بحكم موقعها المحايد، انها صديقة للجميع.

استطاعت زينب أن تكسر حاجز النفور هذا بيني وبين النساء عامة، وبيني

وبينها خاصة لقد كانت لها جاذبية خاصة ، وكان طبعها أقرب ما يكون لطبع طفل مشاغب ، كانت جميلة ، وكان لون بشرتها أشبه ما يكون بوشاح زيتوني لامع ، وكنت عندما أتأمل وجنتيها أرى عليهما تورداً بنفسجياً شفافاً ، كانت قسماتها صيغت كما يهوى قلب الانسان ، واذا ابتسمت افترت شفتاها عن أسنان ناصعة البياض تبرقان بريقاً جميلاً ، كانت عيناها كبيرتين تشعان كما تشع النجوم ، ولها شعر أسود ناعم ، كنت أحس بعجزي أمامها وأنني غير قادر على عصيان ما تأمر به مهما كان هذا الأمر ، لقد عرفت أن للجمال سحراً يستعبد اقوى الرجال .

كانت بجانب ذلك لها قوام جميل متناسق ، كان نصفها الأعلى بديع التكوين يضم نهدان متكوران لونهما أبيض من لون بشرتها وذلك عندما أختلس النظر اليهما ، عندما تتعمد أن ترخي الثوب عن صدرها قليلاً لتقول لي ، إنني أملك صدراً جميلاً يمكنه أن يضمك اليه في حب وحنان اذا اردت ذلك ، وعندما كنت أصافحها أجد يدها بضة ناعمة ، كانت تعرف أنها جميلة ومرغوبة لدى كل الرجال ، ولكن كانت مشكلتها أن الشباب يهاب من أرملة ، والمتزوجون يخافون من زوجاتهم ان هم اقتربوا منها ذلك الاقتراب الذي يجعلها على وشك أن تخطفه كما يقولون ، خاصة والقرية صغيرة لا تخفى فيها خافية ، لم يكن هناك رجل يملك حريته ليتمكن من امتلاك هذا الجمال سواي .

كانت تحضر لزيارة الشيخ مع كل قافلة ، حتى أنها بدأت تحتل مكانة حاجة الزلال في قيادة النساء ، كانت تتقدمهن مرفرفة مثل بيرق النصر والجمال ، وكنت أسمع لصوتها وضحكاتها فأحس بأن الفضاء من حولي يرن بأصداء والحان سماوية عذبة .

كانت النساء يفضلن أن تكون زينب معهن ، لأنها أصبحت أثيرة عندي ، فقد كنت أفرح عند حضورها ، وأهش لاستقبالها ومن معها ، وقد تهامس النساء فيما بينهن بأن زينب روضتني وأسلست قيادتي أنا الذي كنت أنفر منهن أشد النفور وأقابلهن بصدود وجفاء ، لقد اكتشفن هذه الحقيقة ، ولدى النساء عموماً حاسة

قوية لأدراك مثل هذه الامور ، من لمحة سريعة خاطفة وقد بدأن يستثمرن هذه المعرفة ، فهن يرسلنها اليّ لتطلب بعض الأكواب أو الملاعق أو قليلاً من السكر أو غير ذلك ، وهي التي تتولى احضار نصيبي ونصيب توفيق من « الكعك » والشاي وهي تدخل الكوخ وتضع ما تريد وتأخذ ما تريد شأن من يملك حقاً معلوماً في كوخي .

أما حاجة الزلال فقد تقلص نفوذها ، فقللت من زيارتها للضريح ، إلى أن انقطعت نهائياً وتركت الأمر برمته للفاجرة — تقصد زينب — ومن حق حاجة الزلال أن تغضب وأن تنعت زينب بأي صفة تراها ، فقد كانت تجد في زيارة الضريح مناسبة تعرض فيها بضاعتها على النساء وتجمع بعضاً من أقساطها لدى النساء ، بجانب ذلك انها تجد لذة الرفقة ، ومتعة الانس والسمر مع شرب الشاي الدافىء والكعك اللذيذ .

بمرور الزمن أصبحت زينب تتصرف معي وكأنها ذات سلطان في حياتي ، وصاحبة حق معلوم في الجزيرة وفي الهبات والنذور ، فهي التي تقترح على طريقة توزيعها ، ومن الذي يستحق ومن الذي لا يستحق ، وهي التي ترشدني إلى أن جماعة فلان يعيشون في ضائقة لأن رب أسرتهم لم يرسل لهم شيئاً منذ زمن طويل ، وأن أخباره إنقطعت عنهم ، وأحياناً كانت تأخذ أحد الجداء فتذبحه وتطهوه عندها وترسله لي مع توفيق بعد أن تتصدق بجزء منه ، لقد أعجبني فيها بجانب جمالها أنها كانت من ذلك النوع من النساء الذي يجد لذة في العطاء .

في زيارة من تلك الزيارات لضريح الشيخ ، أغفلت حمل متاعها عندي في الكوخ وعندما وصلت إلى البر الغربي وغادر النساء المركب ، صاحب مذعورة من أنها نسيت متاعها عندي في الكوخ ، وهكذا رجعت مع توفيق منفردة .

لقد روعتني عودتها مرة ثانية ، وان كنت أحسست بفرح غامر يملأ أقطار نفسي ، لقد كنت أتألم وأشعر بوحشة وفراغ رهيب عندما أراها تغادر الجزيرة مع قوافل النساء ، كان وجودها يسعدني ويجعلني أمتلىء بحضور عجيب يجعلني انساناً

باتساع الزمان والمكان، انه الحب، ذلك الشيء الجميل الذي لا ندرك حقيقة معناه الا عندما نفتقده، وعندما نفتقده نظل لسنين طويلة نحس به بجوارنا حنوناً... دافئاً... رقيقاً.

انشغل توفيق بالمركب، والهبات والنذور وأحوال الثور والحمار والساقية وتلك المهام التي اعتاد القيام بها كل مساء، واختليت أنا وزينب في الكوخ.

قلت لها:

— لماذا عدت؟

نظرت الي باسمة وقالت:

— لقد نسيت متاعي هنا.

— ومتى ستعودين؟

قالت دون أن تنظر الي وقد انشغلت بجمع متاعها:

— الآن اذا شئت.

ولأنني سكت فقد فهمت أن مشيئتي هي أن تبقى، توقفت عن جمع متاعها، ثم تطلعت نحوي تطلع من يود شيئاً، كنت غير مستقر على حال، ولكنني كنت بادي السعادة والارتياح؛ وأخيراً جلست على حصير مفروش على الأرض وقالت بصوت خافت كأنها تحلم كله تمن ورجاء:

— ليتك تحبني كما تحب الجزيرة!!

كان هذا أول موقف لي يمكن أن يقال فيه بداية بث الغرام، أنني الآن وقد تخطيت الثلاثين من عمري يمكن أن أقول أنني أضعت زهرة عمري دون أن أكتشف هذا العالم الرائع، عالم الحب وزينب بكل ما فيه من غموض ورفعة؛ لقد جاء الموقف الذي طالما تخيلته، ولكنه عندما صار حقيقة واقعة تملكني شعور بالخوف والاضطراب، وعندما لاحظت اضطرابي ضحكت، حتى كاد الضحك أن ينقلب

الى قهقهة صاخبة ، فدفنت وجهها في حجرها ، وعندما هدأت من الضحك ، رفعت رأسها مرة أخرى وهي تبتسم وقد برقت عيناها بذلك البريق الجميل ، كانت تصغرني اذ انها لم تتجاوز العشرين من عمرها ، ورغم ذلك فقد كانت تسيطر على الموقف بشكل مثير ، تطلعت نحوي ثم قالت بأسلوبها المرح الخفيف :

— اليوم سوف أعلمك شيئاً قد يجعلك قريباً مني ، شيئاً لم تكن تعرفه في حياتك كلها .

لقد هزتني كلماتها ، فشعرت بالوهج يغشى وجني ، جذبت سلتها ، ثم أخرجت منها بعض قوارير العطور ، ثم أخذت تسكب منه على راحة يدها ثم تمسح به جسهادها ، لم تعرني أي أنتباه ، بل كانت تدلك جسدها ... ساقيها ، فخذيها ، نهديها ، في حركات رقيبة لكنها مثيرة ومدهشة ، لقد أنحسر ثوبها عن أكثر الأشياء والأجزاء أثارة ، تلك الأجزاء التي لم أرها في حياتي ، ثم تمتمت قائلة وكأنها تحدث نفسها :

— إن هذا الدلك يجعلني قادرة على العودة مرة أخرى لأنام نوماً هادئاً وعميقاً :

بدأ جسدها يلمع لمعاناً صافياً ، ويعكس أضواء تشع من جسدها كالبلور في عتمة الكوخ ثم أمسكت بجدائل شعرها ، وأخذت تمرر يديها عليه بما بقي من عطر على راحتيها ، لقد انحنت برأسها جانباً ، وبذلك تمكنت أن تنظر الي نظرة حالمة أودعتها كل معاني اليأس والحزن والحب والعناء .

كنت مبهوراً لا أدري ماذا أصنع ، لقد شعرت بأثارة ونشوة ، العطر قد ضمخ المكان ، وامتزج برائحة النيل ، والمساء بظلاله الراقصة ، والعشب المشبع بالماء ، فجلست بالقرب منها ثم مددت يدي لأتحسس شعرها وجسدها ، شعرت بأن يدي خشنة وجافة وقذرة أمام جسدها فهمهمت :

— المعذرة ، ان يدي خشنتان ، لأنهما لم تمسكا من قبل سوى الفاس والمحراث .

قالت ضاحكة :

ـــ وهذا ما يضيئها.

قلت لها وقد هدأ روعي قليلاً ، وأنا أتحسس جسدها :

ـــ جسدك كالحرير.

برقت عيناها لحظة ، وتوقفت عن دلك جسدها ، ثم قالت برجفة السعادة الغامرة وقد سرها أنني أدركت بعضاً من جمالها :

ـــ وماذا أيضاً.

صمت لحظة ، كنت متردداً كيف أرتاد هذا العالم ، عالم زينب الذي لا أعرف له مثيلاً ، كنت أتحسس بيدي أي موضع من مواضع جسدها ، أي موضع تقع عليه يدي ، كنت كمن يتخبط ، ذلك لأنني أريد شيئاً أعجز عن مناله ، وأخيرا شعرت برعدة في جسدي وبأنني يجب أن امتلك هذه المرأة ، امتلاكاً حقيقياً ، لا اثم فيه ولا فجور ، فقد كان عندي من قوة الخلق ويقظة الضمير ما يعصمني من التردي في مهاوي الرزيلة والفحش ، وهكذا قلت لها وانا أرتعد :

ـــ يجب أن أتزوجك.

نظرت الي وكأنني أكلمها عن أمر من الأمور العابرة ثم قالت :

ـــ أعرف ذلك.

قلت بدهشة وفرح :

ـــ تعرفين ذلك ! ! كيف؟

ـــ شعور أحسست به ، انه يقول لي ، انك سوف تكون زوجي ، وسوف تحبني كما تحب الجزيرة.

نظرت الى من ستكون زوجتي ، وشعرت بزهو الحياة ، وأنا أمتلك كل هذا الجمال ليصبح شيئاً من أشيائي التي لا مثيل لها في حياتي ، وأخيراً قلت لها :

— نعم سوف أحبك كما أحب الجزيرة وأكثر ، والآن ينبغي أن تعودي فأن أمر سلامتك يهمني يا زوجتي الحبيبة .

عادت زينب بالمركب مع توفيق بعد أن ضمتني اليها في وداع حار ، فامتزجت أنا والمكان بالعطر والشوق والحنين ، بقيت وحيداً الا من ذكر أمسية رطبت حياتي الجافة وعلمتني — كما قالت زينب — شيئاً لم أعرفه في حياتي ، وان كنت أدركه بخيالي كرؤية غامضة ، الا أن لها من السحر والقداسة والجلال ، ما يجعلها تستحق كل ذلك التقدير والاهتمام عند البشر .

وفي الزيارة الثانية ، كنت أكثر انطلاقاً وأكثر مرحاً مع قوافل النساء ، وقد رحت اداعبهن وأسأل عن أحوالهن ، الأمر الذي أثار دهشتهن واستغرابهن .

وبطريقة لبقة أعلنت زينب خطوبتنا وذلك عندما قالت لي مداعبة :

— لقد صرت الرجل الذي أحبه ، أنك نعم الزوج .

أصغى النسوة الى العبارة الأخيرة بكثير من الدهشة والاهتمام ، ثم ملن برؤوسهن في همس لا سبيل الى انهائه .

أما أنا فقد رددت في ذات نفسي :

— أيتها السعادة ، ما أنت الا زينب .

٧

وفي صباح اليوم التالي لأمسية العطر والحب وزينب ، حدث حادث عكر صفو حياتي ، وأن ترتبت عليه نتائج ذات أثر خطير في حياة الجزيرة ، وفي تاريخها .

كنت قد ذكرت أن الحاج النعمة قد التقى بي يوم موت الشيخ ودفنه في الجزيرة ، وسألني يومها بعض الأسئلة المتعلقة بالجزيرة ، كان يمكن لحديثه ذاك أن ينتهي عند تلك الأسئلة العابرة لولا أنني في صباح ذلك اليوم شاهدت مركباً يرسو على الطرف الجنوبي للجزيرة ، كان هذا الجزء شبه مهجور ، ولكنني كنت أستفيد منه ، ففيه ينمو بعض العشب ، فأحصل منه لثوري وحماري ، وفيه ينمو أيضاً نبات الحلفة الذي « يحش » منه توفيق ويفتل منه الحبال التي نحتاج اليها في كثير من المهام المتعلقة بالساقية والمركب والثور والحمار وغير ذلك ، وكان هناك شجر الطرفة الذي نستفيد منه في الوقود بعد جفاف أعواده ، وأجعل منه ساتراً لقضاء الحاجة ، كان هذا الجزء متروك على الفطرة ، فكان له بذلك سحره الخاص .

رأيت رجلاً ينزل من ذلك المركب الذي رسا على الجزيرة ، وبعد أن تقدم بضع خطوات ، انحنى على الأرض كمن يجمع شيئاً ، اسرعت نحوه لأعرف حقيقة الأمر ، يسبقني اليه جاسر — وهذا هو الاسم الذي أطلقته على كلبي — كان يعدو أمامي ثم يقف متحفزاً وهو ينظر الي ثم ينظر الى الرجل ، وعندما اقتربت من الرجل حييته وعندما رفع رأسه ليرد التحية ، رأيت فيه حاج النعمة ، بشواربه الكثة وعينيه الحمراوتين المتورمتين اللتين تكادان أن تختفيا تحت أجفانه الخشنة ، وفمه الغليظ

الملىء ، الذي هو أقرب ما يكون لماً ساخراً أو شهوانياً ، ان شكله لا يوحي بالحب أو الثقة ، رد على تحيتي باقتضاب ثم واصل جمعه للعشب.

سألته بدهشة وحيرة :

— ماذا تفعل هنا من فضلك؟

رد دون أن ينظر الي :

— انني أجمع بعض العشب لأغنامي ، فالعشب هنا كثير ، ألا توافقني في ذلك ؟

قلت له ، أنه من الأصول المرعية بين الناس ، أن يسأل الطارق صاحب الدار ليأذن له ، وأفهمته أن طريقته هذه تعد تجنياً على حقوق الآخرين ، لأنني أنا صاحب هذه الجزيرة.

استمع لحديثي بصلف وغرور ثم رد علي ساخراً :

— هذه يا بني ليست جزيرتك ، هذه جزيرة ربنا ، وهي مشاعة للجميع ، وليس من حقك أن تدعي ملكيتها أو تمنعني أو تمنع غيري من جمع العشب أو بعض الأشياء الأخرى.

ان لدي من الصبر ما يجعلني قادراً على احتمال أي شيء ، ولكن عندما يكون الأمر متعلقاً بحقي في الجزيرة ، فأن الأمر يخرج من يدي ، وأصبح شخصاً ربما يرتكب أي حماقة في سبيل الدفاع عن الجزيرة ، وهكذا وجدت نفسي ودون ارادة مني أثب عليه وأمسك بخناقه ، كان حاج النعمة رجلاً ضخماً قوياً رغم كبر سنه ، ولكن للمفاجاة أثرها الفعال ، لقد كان يظن أنني سوف أتساهل معه فأسكت أو أساوم على جزيرتي.

وفي صراعي مع الحاج النعمة تجلت مقدرة توفيق في ادارة هذه المعركة لصالحي ، فمنذ أن شاهدني وأنا أتجه نحو حاج النعمة توجس شراً ، وظل يراقبنا عن كثب ، كان يدور بالساقية خلف الثور ، وهو ممسك بعصا ربط على طرفها حبلاً

طوله حوالى مترين ملفوفاً بقطعة من القماش كان توفيق يستعملها في طرد أرجال الجراد والعصافير بعيداً عن قناديل الذرة ، وذلك بأن يلوح بها في الهواء ثم يجذبها فتحدث صوتاً أشبه ما يكون بطلق ناري فيذعر الجراد والعصافير فتطير بعيداً.

ما أن رآني توفيق أثب على حاج النعمة حتى أقبل مسرعاً ، وقد انطلق جاسر نحوه ، وكأنه يحثه للاسراع والمشاركة في الصراع ، وعندما اقترب منه صار يلوح بالحبل ويقذفه نحو حاج النعمة فيلتف حول عنقه أو يده أو رجله حسبما يتفق ثم يشده فيفقد حاج النعمة توازنه فأتمكن أنا منه ، وأخيراً تمكنت من طرحه على الأرض ، فأمسك توفيق بقدميه وقيدهما ، وجلست أنا على صدره أسدد له اللكمات حتى استسلم صاغراً طالباً الرحمة ، وجاسر يدور حولنا وهو يقفز في سعادة ، ثم يقترب ليهجم عليه فأمنعه بأشارة من يدي ، وعندما رأيت انهيار قواه واستسلامه تركته أنا وتوفيق وقلت بلهجة آمرة وحازمة ونفسي يعلو ويهبط :

— غادر الجزيرة فوراً ، ولا تعود الى هنا أبداً.

نهض وهو لا يكاد يقوى على المشي ، ثم طأطأ رأسه في ذلة وانكسار ، وراح يجر قدميه وهو يلهث ويتعثر حتى وصل الى مركبه ، فتحامل على نفسه ثم اقلع مبتعداً ، وأنا وتوفيق وجاسر نتابعه بأنظارنا حتى اختفى بعيداً هناك ، نظرت الى توفيق ، ونظر توفيق الي وقد هزنا النصر ، لقد كان هذا أول صراع لنا دفاعاً عن الجزيرة ، وقد انتصرنا فيه ، وما أكثر ما ستتعرض له الجزيرة من محن وكوارث وأعتداء ، وما أحوجنا الى أن نكون واثقين وقادرين على الدفاع عنها في كل وقت ، ثم مضينا لنباشر شئون العمل.

في صبيحة اليوم التالي ، زار الجزيرة وفد يمثل قمة السلطة في منطقتنا ، وهم العمدة عبد الله والشيخ محمد أحمد وأثنان من الخفر ومعهم حاج النعمة ، لا شيء يجمعني مع هؤلاء القوم ، فأنا لا أعرف طريقهم لأنني لا أريد أن أعرفه ، فليس هناك من يدفعني لذلك ، فهم الحكومة والدولة والسلطة ، وان لهم لرهبة في النفس ووقع في الفؤاد كوقع يوم الحساب والعقاب ، أما الآن فقد وجدت نفسي قوياً

متماسكاً ثابت الجنان بعد أن عرفت سبب الزيارة ، وكان واضحاً أن الحاج النعمة قد تقدم بشكوى للعمدة ضدي ، وأدركت أن لهذه الزيارة أهمية قصوى ، وعواقب وأثار بعيدة المدى .

كان العمدة عبد الله رجلاً نحيلاً ، يميل الى الطول ويوحي مظهره بالثقة ، والاحترام ، كان قمحي اللون ، أما شاربه ولحيته القصيرة فقد جللها الشيب ، كان يرتدي ثوباً ناصع البياض ، ويتوشح بشال من الكتان زينت أطرافه بجدائل من الحرير الأبيض طرزت بعناية ، وينتعل حذاء من جلد النمر المشهور في غرب السودان ، كان يبدو كما لو كان مبتسماً دائماً ، مما يضفي على شخصيته المهابة والاحترام ويجعل من الحكم شيئاً له كل ذلك الجلال والبريق .

نزل العمدة ومن معه فأسرعت لاستقبالهم ، حياني العمدة ولكنه ظل واقفاً في مكانه ، وقد أدركت أنه ينتظر مني الاذن ليتقدم نحو الجزيرة ، وأدركت الأمر بسرعة ، فطلبت منهم أن يتفضلوا ، ما أن سمع العمدة دعوتي له حتى شكرني ثم تقدم الجمع بينما سرت أنا أمامهم أحدد لهم مواقع أقدامهم بين الجداول والأحواض حتى وصلنا الى الكوخ ، كان الكوخ يلقي بظل بارد يغري بالجلوس ، ففرشت لهم بساطاً فجلسوا وقد توجهت أبصارهم نحو الزرع والنهر ، كان الزرع يتألق في الضحى الرائق ، وقد التقط بعضهم بعض الأغصان الجافة وراحوا يخططون الأرض بها ، وما هي لحظات حتى أعد لنا توفيق الشاي ، فجعلنا نشرب منه ونحن نتجاذب أطراف الحديث في امور عامة .

أخيراً أعتدل العمدة في جلسته ، ثم أخرج من جيبه علبة تبغه وأوراقه ، نزع ورقة ووضع عليها قليلاً من التبغ ، ثم جعل يلف الورقة حول التبغ ، كانت الورقة بما عليها من التبغ تدور بين أصبعي يديه الاثنتين ، وهو يحاول أن يبرمها ليجعلها منتفخة قليلاً من أعلى «ورهيفة» بعض الشيء من أسفل ، كان اهتمامه واضحاً في أن يجعل منها عملاً فنياً يعجبه ويرضي مزاجه وقد ظهر ذلك واضحاً في أصراره المستمر على أن يمسك عليها بيده اليسرى ثم يوقفها الى أعلى فيمرر عليها أصبع يده اليمنى الابهام

والسبابة من أسفل الى أعلى لتستدير وتتساوى ، وبعد أن أتم صنعته هذه مسح على حافة الورقة بلسانه حتى بللها بريقه ثم ألصقها وثنى طرفيها من أعلى ومن أسفل.

كنا نحن طيلة هذا الوقت صامتين، نراقبه بأهتمام وفضول، بينما كان الشيخ محمد أحمد يلف طرف شاربه بطرف أصبعيه الأبهام والسبابة، وهو يتنقل من الجانب الأيمن الى الجانب الأيسر وهكذا دواليك، أما حاج النعمة فقد أراد هو الآخر أن يرضي مزاجه بطريقته الخاصة فأخرج من جيبه علبة سعوطه، وبعد أن نقر عليها فقرتين، فتحها وتناول منها قبضة كبيرة من السعوط، وبعد أن عصرها وكورها بين أصابع يده اليمنى على راحة يده اليسرى، مد يده اليسرى وجذب شفته السفلى، ثم وضع السعوط في فمه في الموضع بين اسنانه وشفته السفلى، كانت أسنانه سوداء ضخمة كأسنان الحمار، وبعضها غير موجود، لقد كان فمه منفراً، ثم التفت للخلف وبعد أن رفع الحصير بصق تحته وهو يحرك لسانه هنا وهناك ليثبت السعوط في فمه، لقد برز ذلك الموضع الذي وضع فيه السعوط للأمام، مما أضفى على وجهه مزيداً من الدمامة والقبح، وقد أثارتني أكثر الطريقة التي نفض بها يديه من آثار السعوط.

رمقه العمدة بنظرة، ثم وضع سجارته في فمه، وبعد أن نفض ثوبه من بقايا التبغ، أغلق العلبة وأعادها الى جيبه مرة ثانية، ثم أشعل سيجارته، وبعد أن جذب منها نفساً نظر الينا وقد زال ما بيننا من تحفظ وارتياب ثم سألني عن أحوالي وأحوال الجزيرة فأخبرته بأنني مرتاح جداً والحمد لله، وعندما سألني عن سبب أعتدائي على حاج النعمة حكيت له ما حدث بالضبط مستشهداً بتوفيق.

استمع العمدة الى حديثي بكثير من الدهشة، وقد وضح ان حاج النعمة قد كذب على العمدة عندما أخبره بأنه قد حضر الى الجزيرة لزيارة الشيخ، ولكن كان واضحاً أن العمدة قد صدق ما قلته له نظر العمدة الى حاج النعمة وكأنه يسبر أغوار نفسه الخبيثة وقد نظر اليه حاج النعمة بدوره وهو يبتسم ابتسامة خرقاء كست وجهه كذباً وخبثاً يكادان أن يكونا طبيعة فطر عليها، بصق في الغبار، فتدحرجت بصقته

بسعوطها عدة مرات ملتقطة الغبار حتى لاحت أشبه ما تكون بكرة مدورة جافة ، ثم تمخط ومسح أنفه بظهر يده ، ثم اعترف بصدق ما رويت ، كانت الكلمات تخرج من فمه بطيئة وغير واضحة لأن بقايا السعوط الموجود في فمه يمنعه من الحديث بطلاقة ، فكان يأكل الكلمات وقد وجد في هذه الطريقة من الحديث المعوج مخرجاً يداري به غشه وكذبه ، وأخيراً التفت مرة أخرى للخلف ، ثم رفع الحصير وأفرغ ما في فمه من السعوط ، وقد صار قذراً بطريقة لا تطاق ، ثم قال :

— رغم ذلك كله ، يا حضرة العمدة ، فأنني مصر على أن الجزيرة هذه مشاعة بين الجميع ، وليس من حقه أن يعتدي علي.

ابتسم العمدة وقد فهم كل شيء ثم قال له :

— لنترك امر الاعتداء جانباً الآن ، فأنا لا أقره ، ولكن بخصوص ملكية الجزيرة فأنني اريد أن أسالك سؤالاً واحداً :

قال له حاج النعمة متوثباً :

— تفضل يا حضرة العمدة واسأل سؤالك.

— أين تسكن؟

— في البر الغربي جنوب القرية.

— معنى ذلك أن بيتك ليس قبالة الجزيرة ! !

أجاب حاج النعمة بالايجاب.

تحدث العمدة عن قانون القبالة (وقال يعرف هذا القانون) :

— ان جزيرة العوض ترضخ كغيرها من الجزر لهذا القانون ، لقد ظهرت هذه الجزيرة قبالة بيوت شيخ النور سليمان ، وأبننا العوض واحداً من أولاده ، وهو الوحيد بين أولاده ومن بين أهل القرية كلها الذي وضع يده عليها ، وسعى في تعميرها ، ان قانون القبالة غير مكتوب ، ولكنه عرف نسير عليه ، فاذا ظهرت جزيرة قبالة دارك فهي ملك لك بشرط أن تسعى في تعميرها ، واذا ما ادعى

فريقان ، فريق يسكن البر الغربي ، وفريق يسكن البر الشرقي ، ملكيتهم لجزيرة ما ، فهي ملك لمن كانت الجزيرة أقرب الى شاطئهم ولو بشبر واحد ، أما اذا تساوت المسافة بينهما فيها شركة بين الفريقين ، وهناك نقطة أخرى مهمة ويجب أن تكون واضحة للجميع وهي أن العوض ومنذ أكثر من عشرين عاماً وهو يشقى ويكد ويتعب في تعمير الجزيرة لذلك فلا يجوز لأي كائن من كان أن ينازعه فيها حتى الحكومة نفسها .

وهناك علت الوجوه بسمة مشرقة ، والعمدة ينطق بهذا العدل ، أما حاج النعمة فقد فغر فاه دهشة ، وامارات الغضب والاستياء بادية على وجهه ، ولكن العمدة استطرد قائلاً :

— نعم ، حتى الحكومة نفسها لا تستطيع ذلك ، لأن هناك عرفاً ، وهناك تقليداً يدفع الحكومة أن تحمي ملكية الناس ، خاصة اذا كانت هذه الملكية شيئاً مستصلحاً ومعموراً كجزيرة العوض ، الأرض واسعة يا حاج النعمة ، والماء موجود وما عليك الا أن تعمل كما عمل ابننا العوض ، وأريد أخيراً أن أطلعكم على سر .

وهنا صمتنا جميعاً ، وأرهفنا أذننا لنسمع هذا السر ، وبعد فترة صمت طفيف ، استرددنا فيها أنفاسنا ، وهيأنا فيها أنفسنا للأستماع لهذا السر ، قال العمدة بهدوء :

— انني قد سجلت في دفاتري الخاصة ، وهي دفاتر شبه رسمية ، ومعترف بها ، ان هذه الجزيرة في هذا المكان ، وعلى هذا الحال ، ملك للعوض ولد الحاج النور سليمان ، وهي مسجلة بأسمها الذي عرفت به وهو (جزيرة العوض) ، صحيح ان هذا التسجيل غير موجود في سجلات الحكومة ودفاترها الرسمية ، لأن الجزيرة عرضة للظهور أو الاختفاء ولكنها تحفظ له الحق في ملكيته لها اذا نازعه فيها أنسان .

وبلهجة حاسمة توجه بهذه العبارة الى حاج النعمة :

— هل سمعت كلامي يا حاج النعمة ؟

تمتم حاج النعمة بعبارات الموافقة والتي يشتم منها الاحتجاج، وبعد فترة صمت طفيف، ابتسم العمدة وسأل حاج النعمة:

— إذا كنت يا حاج النعمة راكباً حمارك ووقع بصرك على حجر من الذهب ملقى على الأرض أمامك فهل يصير هذا الحجر ملكك، أم لمن أتى من اتجاه آخر؟

رد حاج النعمة بفتور وقد أدرك قصده:

— طبعاً يصبح ملكاً لي.

فداعبه العمدة قائلاً:

— أتمنى أن تجد هذا الحجر الذي يداعب خيال كل انسان، فيملأ عينك، ويكف شرك عن الناس ضحكنا لهذه المداعبة التي نزلت برداً وسلاماً على قلوبنا، وجعلت من مجلسنا هذا مجلساً أسرياً، ثم التفت نحوي وقال:

— يا ولدي العوض!!

— نعم يا حضرة العمدة.

— ان حاج النعمة يا ولدي كان شاهداً على زواج والدك من والدتك حسبما أعتقد، وان لم يكن شاهداً فلا بد من أن يكون قد حضر العقد، وقرأ الفاتحة مع القارئين، وهو بذلك يكون مثل والدك تماماً، وعليه فانني أطلب منك أن تعتذر له، وتطلب منه الصفح، وانني أحذرك من أن تفعل ما فعلت مرة ثانية، البلد بها قانون، ويمكن للجميع أن يحتكموا اليه، ونحن لن نظلم أحداً، ولكن لأن هذا هو أول حادث يحدث منك، ولأنك أول مرة تقف فيها أمامي، ولم تقف امامي من قبل ظالماً أو مظلوماً فاننا سوف نعاقبك عقوبة مادية.

التفت العمدة نحو الشيخ محمد أحمد وقال له:

— سجل يا شيخ محمد هذا الحكم عندك في الدفتر.

تنحنح الشيخ محمد أحمد وقد وجد نفسه أخيراً موضع اهتمام، اعتدل في

جلسته ثم اخرج نظارته الطبية ولبسها على مهل ، قرب حقيبته الرسمية المصنوعة من الجلد الأحمر ثم فتحها وأخرج منها دفتراً ضخماً فتحه وعندما وجد الصفحة التي يريدها تناول قلمه ثم رفع رأسه واتجه بنظره نحو العمدة في انتظار ما ينطق به من حكم .

تأكد العمدة أن الشيخ محمد في انتظار ما سينطق به من حكم فقال :

— لقد حكمنا على عوض النور بدفع مبلغ خمسة قروش حقوق هذه الجلسة ، ومبلغ عشرة قروش غرامة على اعتدائه على اخينا حاج النعمة بشارة .

نظر العمدة الي ثم قال :

— هذا هو الحكم ، وبقي عليك أن تعتذر لعمك حاج النعمة .

تقدمت نحو حاج النعمة الذي هب واقفاً فصافحته وطلبت منه العفو عما بدر مني ، وقد صافحني حاج النعمة بدوره وعفا عني لأنني مثل ولده دياب تماماً كما علق أخيراً .

وقف العمدة استعداداً لمغادرة الجزيرة ثم قال لي وهو يجول ببصره في أنحاء الجزيرة .

— كان من الممكن أن ارسل في طلبك حتى تحاكم في المحكمة الاهلية ولكنني آثرت الحضور الى هنا لأراك وأرى جزيرتك وأتعرف عليك ، انني يا ابني كثيراً ما أسمع بك وبجزيرتك دون أن اراك .

قلت له مجاملاً .

— أرجو أن أراك دائماً يا حضرة العمدة .

ضحك وقال مازحاً :

— لكن بشرط أن تكون قد عقلت وتأدبت .

ضحكنا وقد زال ما بيننا من توتر وجفاف ، توجه العمدة ومن معه نحو ضريح الشيخ ، وقرأوا الفاتحة ثم سلكنا طريقنا نحو المركب حيث توقفنا على الشاطىء ، وهناك وفي نوبة من نوبات الحماسة تلك التي تعقب لحظات الود والصفاء بعد القطيعة والخصام ، تصافحنا في بهجة وفرح ، وكان حاج النعمة أكثرنا فرحاً وسعادة ، ثم ركبوا المركب وعادوا الى البر الغربي .

هذا الحادث رغم أنه أثارني في البداية الا أنه قد أكد لي ما كنت أخاف من طرحه عندما كنت أسأل نفسي هذا السؤال :

— ماذا لو نازعني أحد في جزيرتي؟

ولكن ها هو العمدة يؤكد ملكيتي للجزيرة ، ويضيف بأنه قد سجلها في دفاتره الخاصة باسمي ، حمدت الله كثيراً ، وقد تأكد لي أن الانسان عندما يدافع عن حقه فانه ينتصر.

كنت أعتقد بأن موضوع حاج النعمة قد انتهى وحسم بقرار من العمدة وحكمه ، ولكن الناس كعادتهم قد اتخذوا منه مادة لحديثهم ، كانوا جياعاً الى التسلية ، وأنهم ليجدونها في الحديث وقد اختلفوا في قضيتي أشد الاختلاف ، وعندما ايقنت أنني على حق ، فالناس عندنا يختلفون في الحق ، وعندما تكون القضية باطلة فانهم يجمعون على صحتها ، لون من العناد المريب لم اهتد الى تفسيره ، فقد زعم البعض أنني لا أصلح لتعمير الجزيرة وأضافوا بأنني لو كنت جاداً في تعميرها لزرعتها شبراً شبراً . والبعض دافع عني الا أنهم اضافوا بقلق بأنني مقصر بعض الشيء لأنني لم ازرع بها بعض الفاكهة ، ولقد سمعت أن العم هلال حسم النقاش قائلاً :

— انه حر ، وهو صاحب الجزيرة ، ولو كنتم مكانه لما كان هناك جزيرة على الاطلاق .

هذا ما كان يحدث في مجتمع الرجال ، اما النساء فانهم كانوا ينظرون الى

الموضوع كله من زاوية أخرى ، فهن قد أشدن بشجاعتي وقد ألفن اغنية صارت تغنى في «السيرة» وزينب هي من كانت تغنيها ومطلعها :

ـــ العوض الفارس الشديد.

طرد النعمة من جزيرتو بعيد

٨

صرت عاشقاً ، يشدني أنين الساقية ، ودندنة الطنبور وخفق أجنحة الطيور وهي تحلق بعيداً فوق الماء ، أو تطير بعيداً الى هناك ، وخوار الثور وهو يمشي الهويني ويثير الغبار الجاف ، ومنظر جاسر وهو يعدو هنا وهناك ، أو هو يتشمم الأرض عبر الجداول والأحواض ، أو هو يقف خلف شجرة الطرفة في الطرف الجنوبي من الجزيرة ليتبول وقد رفع احدى رجليه الخلفيتين ، وتكسر الموج وارتطامه بالشاطىء ، وحفيف الزرع وهو يتمايل مع نسمات الهواء ويلامس بعضه بعضاً أو هو يتكسر تحت أقدامي ، ورائحة الطين المخلوط بروث البهائم ورائحة برك المياه الآسنة وقد حلق فوقها أرتال مختلفة من الذباب والبعوض وهو يطن بصوت كالهمس ، ورائحة الدخان المنبعث من الحبال التي نلفها حول رؤوسنا لنبعد النمقة ، ونظرة حماري الخرساء وهو يتابعني غادياً أو رائحاً أو هو يرسل نهيقه الذي لا نفهمه ولكنه يشعرنا بوجوده وعواء ابن آوى يأتي من ناحية الرمال الصامتة في البر الشرقي ، فيرد عليه عواء أكثر نعومة ورقة ، وكأن الذكر يناجي انثاه ، فتبعث الحياة في تلك الرمال الصماء ورائحة الزرع وقد غمره الماء فتتنفس الارض برائحة الأرض الحبلى وقد جاءها المخاض ، ورائحة العشب الجاف ، والقمر والنجوم والرمال الصفراء على البر الشرقي وهي تتوهج باللون الذهبي وقت المغيب ، أو عندما تظهر وكأنها الجبال الراسيات في بهجة الليل الساجي ، ومنظر القرية وهي خضراء في النهار أو داكنة سوداء في الليل ، أصبحت هذه الأشياء تثيرني وتهزني ، فقد صرت عاشقاً أحلم بزينب في كل يوم وفي كل لحظة .

وقد أبعد الناس عني زينب لأنني تكلمت عنها ، وطلبت يدها وقد قبل طلبي ، وهم يعدون العدة لدخولي عليها ، ولا يجوز لي أن أقابلها بعد ذلك حتى تزف اليَّ .

كل ما فعلته عندما فكرت في الزواج من زينب هو أنني طلبت من العم هلال والأسطى عبد الوهاب أن يتصلا بوالدي ويخبرانه بعزمي على الزواج من زينب ، ثم يذهبا الى ولي أمرها شيخ أدريس ويخطبونها لي ، وقد سمعت أن والدي أبدى دهشة وتردداً ، فقد كانت الارملة الجميلة مثار لغط وهمس ، وذلك لسحرها وخفة دمها وانطلاقتها المحببة والتي تقربها من المجون والنزق وتبعدها عن الرزانة والأدب ، وهما صفتان مطلوبتان للنساء عندنا ، وأن كانتا لا تنهضان دليلاً على العفة والفضيلة ، ووالدي وغير والداي من الرجال والنساء ، يحسون بفرح خفي تجاه زينب ، ولكنهم يخفون هذا الشعور ، لأنهم يعلمون أنهم أمام شيء لا يمكن ادراكه أو مناله ، لظروف هم يعرفونها ، لكنهم يخفونها ، ومن ثم ذلك العداء تجاه زينب كنت أتوقع هذا التردد والاحجام يأتي من والدي ، ولكنني كنت قد حسمت الأمر مع العم هلال والأسطى عبد الوهاب بأن يقوما بالأمر وحدهما اذا ما أصر والدي على موقفه ، ولكن والدي وقد أدرك أن الأمر قد خرج من يده أقتنع بهذا الزواج على مضض ، وان كان أمري من الأمور التي لا تهمه كثيراً ، وبذلك تمت الخطبة وحددوا ميعاد العقد .

لم أستطع فراق زينب ، وعندما كنت أجلس وحيداً على الشاطئ كنت أحس بالوحدة تماماً ، وكنت أتجه ببصري نحو منزلها هناك بالبر الغربي ، ويستطيع كل عاشق في كل مكان وزمان أن يدبر أمر اللقاء بمعشوقته ، وهكذا كان توفيق يقلع بالمركب بعد الغروب بقليل ، وكانت زينب تنتظره في مكان متفق عليه عند منخفض منحدر شمال القرية بجانب شجرة السور العتيقة التي تقف بعيدة ووحيدة في ذلك المكان المهجور ، الذي تسكن فيه الأشباح كما يعتقد بعض الأهالي ، فيحضرها الى الجزيرة ، كان توفيق بطبعه الهادىء ، وصمته أحسن من يقوم بهذه المهمة .

كنت أنتظر من ستكون زوجتي بشوق عارم ، تلك التي سوف أمتلكها ، هذا الاحساس بالامتلاك امتلاك انسانة أحبها كل هذا الحب ، يشعرني بزهو الحياة ، وبأنني قادر على انجاز كل شيء وبأن الحياة أضيق من أن تتسع لفرحي وسعادتي.

كنت لا أطيق الانتظار في أي مكان ، فأقف على الشاطىء ، اراقب توفيق وهو يقلع بالمركب الذي يشق الماء فيحدث خريراً سرعان ما يتلاشى رويداً رويداً كلما أبتعد بينما الظلمة تزداد حلكة وما هي الا لحظات قصيرة ، قصيرة بحساب الزمن ، طويلة بحساب العاشقين ، حتى يعود توفيق ومعه زينب ، كانت زينب عندما تركب المركب تخفي نفسها في قعرها ، وعندما تشعر بأنها قد اقتربت من الجزيرة ، وذلك عندما يبدأ توفيق في طي الشراع ، تثب واقفة ، كما يثب سيف من غمده أو كما يبرق نجم في الظلام ، جميلة كما هي دائماً ، باسمة كما لو خلق الابتسام لها ، او كما كانت هي التي خلقت البسمة والابتسام ، وما أن تراني واقفاً انتظر ، حتى تلوح لي بيدها ، بفرحة طفل ، وعندما يلقي المركب مراسيه على الشاطىء ، تمسك حذائها بيد ، وترفع ثوبها بيد ، ثم تنزل في الماء فتحدث طشيشاً تتعمده ، فيتناثر الماء عليها ، وهي عندما تقطع المخاضة ما بين المركب والجزيرة ، لا تقطعها كما يقطعها أي أنسان ، بل تتوقف في الماء قليلاً ، ثم تنثر الماء بقدميها في دفعات متتابعة ، وعندما تصل الى الشاطىء تغسل قدميها ثم تلبس حذائها وتخطو نحوي بتلك البسمة الرائعة وتصافحني في فرح وحياء.

كان المكان المفضل لجلوسنا هو عند قرن الجزيرة من الناحية الشمالية قرب رأس الحربة ، وهو أعلى مكان في الجزيرة ، وهناك تحكي ما يجري من استعدادات للزواج ، فقد فرغوا من (دق الريحة) وتجهيز (الدلكة) وأنها قد اشترت فركة ، وثوب اسمه (ضلع الدكاترة) وآخر اسمه (الحمام طاير) ونظل نتسامر ونضحك حتى منتصف الليل ، فأعود بها الى البر الغربي ، وحيدين في الصمت والظلام فتنزل امام منزلها فأودعها ، وأظل اراقبها حتى تختفي في الظلام ، فأدور بالمركب ، وأعود وحيداً في الظلام ، والحزن والوحدة يستحوذان علي ، ويزيد من وحدتي وحزني ، ارتطام المركب بالموج من كل جانب ، فيتطاير الماء فيلحقني رشاشه.

وفي الجزيرة عمدت لإعداد كوخ أكبر لأسكن فيه مع زينب، وقد ساعدني العم هلال الأسطى عبد الوهاب وولديها سعيد وابراهيم في تشييده، وقسمته من الداخل الى قسمين، القسم الداخلي جعلت منه حجرة للنوم والقسم الأمامي جعلته حجرة للطهي وللجلوسنا وأكلنا وشربنا وأمام الكوخ شيدت مظلة جعلتها مكاناً لاستقبال الضيوف، كان سكناً بسيطاً الا أنه مريح وجميل وقد أعجبت به زينب، ووعدت بأنها عندما تحضر فسوف تسطح ارضه، وتزينه بالقداح وببيض النعام المنسوج بالجلد الملون، ثم ختمت حديثها ضاحكة:

— ان وجودي سيكون اجمل ما في الكوخ.

— وما في الجزيرة.

ضحكنا في فرح وسعادة.

ولأنني كنت لا أهتم بالشكليات كثيراً، ولأن زواجي كان يسوده بعض التوتر، ولأن زينب كانت امرأة ايما، فقد تم الزواج بسرعة وبساطة، وهذا ما كنت أسعى اليه لأنني كنت في شوق الى زينب.

تم العقد في منزلنا في البر الغربي بحضور جميع أهلي وأهل القرية من نساء ورجال وأطفال، وقد شرف هذا الجمع العمدة عبد الله والشيخ محمد أحمد وذلك بحكم صداقتهما لي التي بدأت بعد حادث حاج النعمة، كنت قد أعددت ثوراً ليذبح في هذه المناسبة السعيدة في حياتي، وبعد أن تم العقد وتناول الجميع الطعام الذي كان عبارة عن قداح يقطع فيها الخبز ثم يسكب عليه حساء اللحم الساخن، وبعد ذلك توضع عليه طبقة من الأرز، ثم يكوم عليه اللحم من أعلى، بعد أن أكلوا وشربوا الشاي، طلبوا مني الذهاب الى المركب لانتظر العروسة هناك لأخذها الى الجزيرة، لقد هنأني جميع الحاضرين وباركوا لي بالزواج ودعوا بأن يكون لي بيت مال وعيال فشكرتهم أنا بدوري وتوجهت بصحبة سعيد وابراهيم الى الشاطىء، كان توفيق قد سبقنا الى هناك وقد أمسك بسكان المركب استعداداً للاقلاع متى ما حان الوقت لذلك.

جلسنا على ظهر المركب ونحن نتجاذب اطراف الحديث وسعيد يداعبني مداعبات خفيفة وهو يقول :

— زينب هي الوحيدة من بين النساء التي قدرت عليك ، كنا نظن أنك لا تعرف شيئاً ي مثل هذه المواضيع ، والآن تطرق هذا الباب من أوسع أبوابه ، وتختار زينب زينة النساء.

وما زلنا في سمر وضحك ، وعند منتصف الليل ترامى الى سمعنا صوت النساء وهن يترنمن بأغنية السيرة (العديل الزين) وهن يسرن في بطء شديد وكأنهن يخطون على الشوك حتى وصلن الى الشاطىء ، وهناك خطوت خطوات وأمسكت بيد زينب فسارت متهادية فوق السقالة وأنا أتقدمها حتى وصلت الى سطح المركب حيث جلست وهي متدثرة بالثياب بحيث لا يظهر منها شيئاً ، واذا استطاعت أن تخفي نفسها ، فأن رائحة العطر سرت ونفذت الى أعماقي ، وأنني أحس بها في يدي حيث كنت أمسك بها.

دفعت للنسوة بعض المال ، فأطلقن الزغاريد ثم انصرفن على دفعات :

التفت الى توفيق ، وسرعان ما فكّ حبال المركب ، فأقلعت بنا نحو الجزيرة ، وصدى الزغاريد يشق صمت الليل بالفرح والحنين ، كنت أرى سعيداً وابراهيم يقفان على الشاطىء كشبحين تحيط بهما دوائر من ضوء النجوم وهما يلوحان بأيديهما.

وصلنا إلى الجزيرة ، كانت زينب كما عهدتها دائماً ، مرحة وجذابة ، أخذتها الى كوخي ، وهناك استلقت على السرير في حجرة النوم ، في خفر وحياء لتهبني نفسها على سنة الله ورسوله وها هي اللحظة التي كنت أحسب لها الدقائق والثواني قد أتت ، وأنني مع زينب بلحمها ودمها ، بعطرها وأنفاسها وجسدها الناعم كالحرير ، اللامع كسحر المساء وصفائه ، إننا الآن وحيدين إلا من دقات قلبي التي أسمعها بوضوح تام.

وكنت قد تعلمت من محاولات شاذة فجة، أو ربما من قصص وأحاديث كانت تدار بين الكبار ونحن صغار، فحواها أن على المرء عندما يريد أن يضاجع زوجته عليه أن يدهن عضوه بريقه حتى يسهل الإيلاج، وهكذا رحت أحاول معها بهذه الطريقة بكل اضطراب ونفاذ صبر، صحيح أنها زينب التي أعرفها، ولكن ما الذي يحدث الآن؟ لقد كان عضوي مرتخياً، ولكنني أحس باللذة والنشوة، وأن وجهي تغشاه سحابة من الوهج، وأن جسدي يرتعش ويرتجف، كنت مدفوعاً بلذة غبية وخائرة لذلك فإنني لم أنتظر ولم أتمهل، وما هي إلا لحظات حتى بذرت كياني دون أن أحقق شيئاً.

كانت زينب مستلقية في الظلام، رفيعة ممتلئة بطول السرير، صامتة مستسلمة، ومستعدة لكي تهيئ نفسها على أي وضع أراه حتى تشعرني بالسعادة، ولقد شعرت بيأس وخذلان فاستلقيت على السرير بجانبها ملوثاً مكسوفاً، كنت أعرف أنني كامل الرجولة، ولكن ماذا تقول زينب عني؟ وبينما أنا مستغرق في هذه الهواجس والأوهام أو قل هذه الأحزان، إذ أحسست بيد زينب وهي تمسح على جبهتي، ثم أمسكت بيدي وضغطت عليها وهي تقول لي بكلمات حنينة وواثقة انتزعتني من يأسي وحزني:

ـــ غداً سوف تكون أفضل، إنك مرهق اليوم.

صمتت لفترة، ثم مالت نحوي، وطوقتني بذراعيها وقالت لي مداعبة:

ـــ لا تكن عجولاً، يمكنك أن تنجز كل شيء بعجلة، إلا هذا.

وهكذا اكتشفت زينب جهلي وغبائي في هذا الميدان الذي لم أعرفه طيلة حياتي، ولم أسمع به إلا من خلال أحاديث مختلفة أو مشوهة، إن زينب تعرف أكثر مما أعرف، لأن لها تجربة سابقة، وربما تكون النساء أكثر فهماً منا في ممارسة الجنس رغم تبجح الرجال وادعاءاتهم، لقد قلت في ذات نفسي:

ـــ إنها تسخر مني.

ولكن كان لحسن تدبيرها ، ورقة حاشيتها أن استطعت أن أمارس معها الحب كأجمل ما يكون ، وأن أعيش معها أجمل أيام حياتي ، لقد كنت موفقاً إذ تزوجت زينب ، فقد برهنت الأيام على أنها امرأة عظيمة ، وكل ما قالته لي :

ــ لقد فقدت الأمل في الزواج من أي رجل ، وعندما التقيت بك ، عرفت أنك سوف تتزوجني لأنك حر الإرادة ، أما هم فإنهم جبناء ، وسوف أبرهن لهم أنني امرأة بحق ، جميلة ، شريفة ، مخلصة وطموحة .

وقد برهنت الأيام على صدق ما قالت .

اتخذت الجزيرة شكلاً أجمل بوجود زينب ، كنت أراها موحشة ، أما الآن فإنها تطفح بالحركة والجمال والنظام ، لقد اعتادت زينب على العمل في الجزيرة بسرعة فائقة ، فهي قد عرفت طرفاً منه من قبل ، وذلك عندما كنا نهمس معاً بكلمات الحب والأماني المشرقة ، وهي كغيرها من نساء القرية لها دراية بأعمال الأرض والفلاحة .

طلبت مني زينب أن أشتري بقرة فاشتريتها ، وكان لديها بعض الأغنام في البر الغربي فأحضرتها معها ، ولم تمضِ بضع سنين حتى كنا نملك حظيرة للمواشي بها الكثير من العجول والأغنام والخراف ، وأصبح اللبن ومشتقاته من الأشياء المتوفرة لدينا ، أما اللحم فقد كان يأتينا عن طريق الهبات التي تمنح لضريح الشيخ أيام الزيارات ويجب أن أذكر أيضاً أن زينب قد صنعت قناً للدواجن يدرّ علينا الفراخ والبيض .

أرادت زينب أن تقدم شيئاً للشيخ ، فبنت حول قبره جداراً بارتفاع نصف متر تقريباً يحدد معالم وحدود القبر ، ثم غرست عودين من أعواد البان بعد أن خاطت على أطرافها بعض الأعلام ، فجعلت منهما بيرقين يخفقان فوق قبر الشيخ ، أحدهما عند رأسه والآخر عند قدميه ، وقد صارت هي المسؤولة عن استقبال قوافل النساء الزائرات ، وتسلم النذور والهبات مادية كانت أم عينية .

كان هذا هو الحال بعد أن حضرت زينب الى الجزيرة ، وقد أصبحت معلماً هاماً من معالمها تضفي عليها من روحها وسحرها ما يجعل الجزيرة مكاناً أكثر بهجة وأنساً ، وتلفت أنا فوجدت أن الحياة تلاحقني أينما كنت بكل ما تضطرب به من أحداث ، وقلت في نفسي :

ـــ لا خلاص أبداً .

٩

كانت الأحوال في البر الغربي تسير سيرها الطبيعي ، وعندما أقول طبيعياً فإنني أقصد تلك الرتابة في الأحداث ، وهي أحداث معروفة لا تثير في النفس سوى تلك الدهشة الأولى والتي سرعان ما تزول بحكم العادة ، نسمع أن أحد إخوتي قد تزوج أو رزق طفلاً ، فأذهب أنا وزينب وتوفيق ، وكنت قد اشتريت لكل منها حماراً ، كانت زينب تركب الحمار كما اعتادت النساء أن يركبن ، فهي تجلس على ظهره بكامل جسدها في اتجاه واحد ، أما توفيق فكان يركب الحمار مجرداً من السرج فتكاد أقدامه تلامس الأرض وهو يضع أمامه على ظهر الحمار شوالاً من القمح نحمله بهذه المناسبة مهنئين مباركين ، ونسمع أن فلاناً قد مات فأذهب أنا وزينب وتوفيق وهو يحمل أمامه «شوالاً» من القمح معزين مواسين ، وهكذا كانت المناسبات الأخرى .

أكسبني هذا التقليد أهمية خاصة ، وأصبحوا عندما يحدث حادث في القرية يسارعون بإرسال من يبلغني بالنبأ ، فأسارع بالذهاب ، وقد تطور الأمر وصار إذا حدث حادث يهم القرية أرسلوا مسرعين من يدعوني لأحضر اجتماعاتهم ليأخذوا رأيي ، وهم يفعلون ذلك ممارة على الأقل لظواهر الأمور إذ كان الرأي غالباً ما يكون قد أخذ وبتّ فيه ، وقد لبيت الدعوة في مناسبتين ، كانت الأولى حول ذلك القرار الذي أصدره المفتش الانجليزي بأن يطلي كل فرد من أفراد القرية بيته بالجير الأبيض ، وقد قال البعض أنهم أحرار إذ هم طلوا بيوتهم بالجير الأبيض أم لا ، كان المقصود من ذلك كله هو نوع من المقاومة لما هو صادر من الإدارة الاستعمارية في البلاد ، وفي المناسبة الثانية كان القماش يدور حول تكليف ناظر المدرسة بعض

تلاميذنا بالمرحلة الأولية أن يهتفوا بحياة الملك جورج السادس ، وذلك في الاحتفال بيوم الملك ، وهو يوم مشهور ، حيث يمارس فيه الأطفال بعض الألعاب والحيل ، والمسابقات المفرحة ، وقد قال البعض يجب أن نمنع أبناءنا من ذلك ، إذا كان لا بدّ لهم من أن يهتفوا فلا مانع من الهتاف بحياة ملك مصر والسودان ، واختلفوا في ذلك ، لأن البعض قال :

— مالنا وملك بريطانيا وملك مصر ، يجب أن نهتف بحياة السودان الحرّ المستقل ، وأرادوا أن يعبروا عن ذلك بطريقة فعالة يسمعها الانجليز ، وقد سمعوا بأنهم إذا ما تجمعوا وخرجوا في موكب يهتفون بسقوط الانجليز ، فإنهم بذلك يصنعون مظاهرة كتلك التي يسمعون بها ، ولكن المظاهرة تحتاج الى قادة يقودونها ويعتلون الأكتاف ويهتفون بسقوط الانجليز ، وهكذا اختاروا القادة وتم توزيع الأدوار وقد استغرق ذلك وقتاً طويلاً ، فأنت تعرف أن كل واحد في مثل هذه الاجتماعات يكون له رأي مسبق يريد أن يقوله ، دون مراعاة لما يمكن أن يكون ضياعاً للوقت ، فحلّ المساء ، وهبط الظلام ، ولكن فكرة المظاهرة كانت قد تمكنت من النفوس ، ولا بد من أن يخرجوا وأن يعبروا عن احتجاجهم ورفضهم للاستعمار وحنينهم للحرية ، كان كل شيء قد تجمد في القرية بسبب المظاهرة ، ففي ذلك المساء مثلاً — توفي الى رحمة مولاه شريف كركب ، ولكن أهله اتفقوا على تأجيل النبأ حتى تنتهي المظاهرة ، وقد خرجت النساء منذ العصر ، ووقفن ملتصقات بزوايا البيوت عند تقاطع الشوارع في انتظار مرور المظاهرة ، وقد عرفن أن أزواجهنّ وأخوانهنّ وزويهنّ سوف يقومون بعمل بطولي ، وسوف يكون دورهن هو أن «يزغردوا» لهم ، وفي المركز كان المأمور ورجال الشرطة يواجهون موقفاً فريداً من نوعه في تاريخ القرية ، كانوا مضطربين وكان أكثرهم اضطراباً الشاويش علي عنبر ، فهو يعلم أن ابنه كمال — وهو طالب بالمرحلة الثانوية — أحد قادة المظاهرة ، ولكن لا بد مما ليس منه بدّ ، فعليه أن يوزّع الهراوات والدروع ، وفي أثناء ذلك كان يوصي رفاقه ، وهم أقل منه رتبة — أن يصنعوا من أجله معروفاً فلا يلحقون بابنه أذى ، وأن لا يقبضوا عليه إذا وقع في يد واحد منهم وقد وعدوه بذلك ، وقد انتشوا

بهذا الرجاء يأتيهم من رئيسهم المباشر، إنهم لن يرضوا بأن يكونوا سبباً في ضياع مستقبله، ومن منهم لا يعرف كمال!! لقد كان رفيقاً وصديقاً لبعضهم، وهم يرونه في كل عطلة عندما يحضر لزيارة والده وأهله، إنهم يساهمون بعمل وطني، وكان «الشاويش» علي يحسّ بفخر يجعله فوق مستوى الآخرين لأن ابنه يساهم في هذا العمل الكبير.

كان رجال الشرطة فريسة لشعور غامض ومبهم، يجاذب القلب فتسري الرعدة في نفوسهم، إنهم أمام مهمة يكرهونها، لكنهم مجبرون عليها بدافع الخوف والطمع، فبعد قليل سوف تدور معركة غير متكافئة ـــ بينهم وبين أهلهم وأخوانهم، ممن يطالبون بحقهم، حق الناس جميعاً بأن يعيشوا أحراراً في بلادهم، وسوف يقفون هم أمامهم يمنعونهم، وفي سبيل ذلك سوف يجدون أنفسهم مضطرين لضربهم والقبض عليهم.

ركبوا في سيارتين من نوع (الكومر)، كانت الخطة أن يحاصروا المتظاهرين، ويقبضوا على القادة وخرجنا نحن في الظلام نهتف بسقوط الاستعمار، ونحن نعلم أنه لن يسقط، ولكننا كنا نصنع شيئاً يجعلنا قادرين على أن نحس أنه بإمكاننا أن نفعل شيئاً، في هذا المكان الصغير البعيد.

وفي أثناء سيرنا كانت المظاهرة تتوقف ليتحدث بعض المتحدثين منددين بالاستعمار وأعوانه، وكانت كلمة حاج التوم الأنصاري ـــ وهو الوحيد من بين جميع الكبار الذي خرج معنا ـــ ذات أثر خاص في نفسي، فقد قال:

ـــ لقد اشتركت في معركة كرري، وقد رأيت أخي الأكبر في ذلك اليوم وقد كحّل عينيه، وتناول قارورة العطر وتعطر، ثم وضع مسواكه في فمه وخرج ليحارب الانجليز، لكنه لم يعد أبداً، بحق ذلك اليوم، وتلك الذكرى الأليمة، سوف أهتف: يسقط الاستعمار.

ورددنا خلفه، يسقط الاستعمار، وسارت المظاهرة في الظلام، وصرخ طفل،

فتوقفنا ، لقد كان يسير حافياً فلذعته عقرب ، وأشعل أكثر من ثقاب ، وتم العثور على العقرب فقتلت ودفنت ، أما الطفل فقد عادوا به سريعاً الى المنزل لإسعافه.

وأقبلت سيارتان واحدة من أمامنا ، والأخرى من خلفنا ، فأضاءت الشارع ، وحدث هرج ، وهرب البعض لدى رؤيتهم لرجال الشرطة الذين ما عادوا أشخاصاً منا ، إنهم الآن غرباء عنا ، لقد انتشر الشرطة وقبضوا على القادة لأنهم لم يهربوا ولم يختفوا ، وكنت أنا واحداً منهم ، وقادونا الى (الكومر) وأخذونا الى السجن ، حيث سمحوا لنا أن نجلس في باحته ، كنا أربعة عشر مواطناً ، أكبرنا حاج التوم الأنصاري وأصغرنا هاشم سعيد هلال ،وهو زميل كمال علي عنبر ،ولكن الشرطة لم تقبض على كمال مراعاة لخاطر والده الشاويش علي عنبر ، وقبضت على هاشم ، ولم نكن نمثل في مجموعتنا طبقة ذات شأن ، إذ لا وجود لهذه الطبقة ، كنا ما يمكن أن يكونوا من سواد الشعب ، حتى أننا لم نحسّ بأي حرج ونحن نرى بيننا الشاب المستهتر والسكير حسين سعد الله.

وما هي إلا لحظات حتى تجمع عدد من الأهالي أمام المركز ، البعض حضر ليعرف مصير الأب والأخ والزوج ، والبعض حضر حباً في الاستطلاع ، ونحن لم نعد أبطالاً ، وإنما مجرد رجال بائسين نحسّ بالعزلة ونحنّ الى البيت ، وحضرت زينب ومعها توفيق ضمن من حضروا ، وأمضوا الليل أمام المركز ، ونمنا نحن في باحة السجن ، ونام الأهل والأعزاء حول المركز ، وفي الليل جرت مشاورات كثيرة مع المأمور المصري لحصر القضية والبت فيها دون اللجوء الى المفتش الانجليزي في المديرية ، وقد استجاب المأمور لرجاء بعض أعيان البلد ، وفي الصباح انعقدت المحكمة برئاسة المأمور وعضوية العمدة عبد الله والشيخ محمد أحمد ، وقد اعترفنا جميعاً بأننا مذنبون ، وصدر الحكم بالسجن أسبوعاً ، وقد كان أسبوعاً حافلاً ، إذ تحول مجلسنا الى مهرجانات للسمر وأصناف الطعام والشراب الذي كان يأتينا بوفرة ، في البداية طلبوا منا أن ننظّف المراحيض ، ولكننا رفضنا هذا الإجراء ، وحتى لا يتحول رفضنا الى تمرد يقود الى مضاعفات كبيرة ، عدل الأمر الى أمر آخر ، حيث طلبوا منا أن نرشّ باحة السجن ، وفناء المركز الخارجي بالماء الذي ننقله من النهر

بالجرادل الحمراء ، وقد تبرّع الشباب من أمثال هاشم وحسين أن يقوموا بهذه المهمة نيابة عنا ، وقد وافقت إدارة الشرطة على ذلك.

كان صديقي سعيد هلال على صلة وثيقة بالدكتور وهبة المصري وسعيد هو الذي ألف هذه الأرجوزة :

— السجن ما يهمنا
والمأمور ودّ عمنا.

ويقصد المأمور المصري (مدحت اسماعيل). وقد استطاع أن يحصل لي على راحة مرضية لمدة ثلاثة أيام ، وهكذا وجدت طريقي لكن أخرج من السجن وأذهب الى المستشفى ومنها الى الجزيرة التي لا أطيق فراقها ، وهكذا انقضى الأسبوع دون أن نحسّ به.

كنت أعتقد أن الحديث عن الانجليز والتفكير في طردهم من البلاد ضرب من المستحيل ، ولكنني عرفت أخيراً أن خبر مظاهرتنا هذه قد كتب بها تقرير رفع للحاكم العام ، وقد رفعها هو بدوره الى المسئولين عن شئون المستعمرات في لندن ، وقد عرض الأمر على برلمانهم هناك ، وربما ذكروا اسمي ضمن من تظاهروا ، وقد يكون مسجلاً الى يومنا هذا في محضر من محاضر جلساتهم تلك.

كانت السياسة ، في المقام الأول ، معناها تحرير البلاد ، وكانت تلك هي مساهمتي في تحرير البلاد ، فقد كانت الجزيرة هي سياستي الأولى والأخيرة.

صار ظهورنا في البر الغربي يثير الاهتمام ، فنحن لا نأتي اعتباطاً ، وكانت الحمير تخب بنا متهادية يحملها في صمت رتيب ، وتثير من حولنا هالة من الغبار الجاف ، يظل معلقاً في الزواء يحدد خط سيرنا ، كنت أنا من يسير في المقدمة ،وزينب بعدي ، ثم يأتي توفيق في المؤخرة ، فكان الناس يتوقفون لحظة ، فأحييهم فيردون التحية ، ثم يتطلعون نحونا في فضول شديد ، وكأننا قافلة أتت من سفر بعيد.

مرت الأعوام، وتعاقبت الأحداث، ومات والدي ووالدتي والعم هلال والأسطي عبد الوهاب ومعظم أفراد هذا الجيل — رحمهم الله رحمة واسعة — وبغياب هذا الجيل تقدمنا نحن إن طوعاً أو كرهاً، لنسدّ مكانهم، أنا وسعيد وابراهيم وزينب وغيرنا من أبناء جيلنا.

وظهر عندنا جيل جديد، تمثل في طفلين وضعتهما زينب بعد فترة طويلة من زواجنا حتى أننا خفنا العقم، وقد وضعتهما زينب على التوالي، لقد أحسسنا كما يحس جميع الآباء بأن ولدينا لا مثيل لهما بين جميع الأولاد، وإننا نحن فقط من ينجب مثلهما، ولأننا نعاصر زمناً متقدماً بعض الشيء، ولأن لزينب تطلعات تقدمية، فقد أطلقنا على الأول اسم عادل، وعلى الثاني اسم عصام، وقد علقت زينب قائلة:

— إن اسمك يبدأ بالعين وكذلك اسم ولدينا.

لن أتحدث كثيراً عن البهجة والسرور ونحن نراقب طفلينا وهما يكبران ويأتيان من الأفعال والحيل ما يبعث في نفوسنا البهجة والسعادة لأن هذا أمر يعرفه كل من ذاق حلاوة الأطفال، ولكن الأمر الذي أصبح لا شك فيه هو أن الجزيرة أصبحت تضم أسرة كغيرها من الأسر، ينتابها ما ينتاب غيرها من فرح وترح، فنحن نلتقي كل صباح، ونمارس معاً مهام الحياة الكثيرة، فنأكل ونشرب ونلعب ونسبح ونعمل، وهكذا تمضي بنا الحياة يوماً بعد يوم.

كانت مناسبات العزاء في ميت من أهل القرية من المناسبات الهامة، فهي المناسبة الوحيدة التي تذكرنا بأننا أحياء، والحمد لله، فكنا نحسّ بفرح خفي رغم وقع المفاجأة، فأذهب معزياً فما أن يوارى الميت الثرى حتى ينشغل الناس بحياتهم فينصرفون الى أعمالهم يأكلون ويشربون ويضحكون، فالموت ليس سوى حادث عابر كأي حادث من أحداث الحياة.

وفي مناسبات الوفاة هذه، يحضر الأقارب والجيران كميات فاخرة من الأكل، ويحاول كل واحد أن جيعل مائدته تجمع أنواعاً شتى من الطعام من أطيب

المأكولات كان مجلسي عادة ما يضم سعيداً وابراهيم وتوفيق ، عرف سعيد بخفة دمه وشخصيته المرحة ، وهو لا يجد غضاضة في أن يكشف الغطاء عن موائد الطعام ، فيختار أكثرها طعاماً وأشهاها مذاقاً ، فيحملها ويضعها أمامي ، إذ كنت أمثل ضيف الشرف ، فينضم الينا صاحب تلك المائدة وهو يحس بالسعادة لأن مائدته نالت إعجاب سعيد ، فنجلس في دائرة صغيرة بقدر الإمكان ، فنأكل وسعيد يقوم بعملية مبادلة منصفة بين مختلف الأطباق ، فهو يأخذ طبق «الكباب» من أمامه ليضعه في الجهة المقابلة له ، ثم يأخذ من تلك الجهة طبق البامية ليضعه في مكان طبق «الكباب» ، وهكذا نراه يأكل وفي نفس الوقت يقوم بهذه العملية التي لا نقدر على القيام بها لأننا نحس بالحرج منها وكم من مشاكس له يحاول التشبث بالطبق الذي أمامه لدسامته ولذته ، ولكن سعيداً ينتزعه منه بطريقة صريحة ومنطلقة ، إنه يقوم بالعمل الذي نتمنى أن نقوم به ، وأعتقد أن الكثير منا قد سبق له وجلس في مائدة تضم أمثال سعيد ، فينصفون بين الآكلين بهذا التوزيع العادل لأصناف الطعام.

كانت هذه علاقتي السياسية والعامة بالبر الغربي ، وكانت لزينب أيضاً علاقة أخرى ، لقد لاحظت انه عندما تكون هناك مناسبة خفاض فتاة من فتيات القرية فإنهم يرسلون رسولاً الى زينب كي تحضر ، وعندما سألتها عن السبب قالت لي :

ـــ إنني إحدى ثلاث نسوة يقمن بمسك الفتاة حتى تتم عملية الخفاض ، وشرحت الأمر لي بأن هناك واحدة تجلس عند كتف الفتاة لتمسك به وتثبته وأخرى تمسك بالقدم اليمنى ، وثالثة تمسك بالقدم اليسرى ، وبذلك يسهلن العملية للحاجة نفيسة «الطهارة» لتجري عمليتها.

طلبت منها أن تكفَّ فوراً عن الذهاب وممارسة هذا العمل ، وكانت قد ظهرت في تلك الأيام دعاوى تهاجم هذه العملية وتصفها بالوحشية ، لم يكن مردّ منعي لزينب من الذهاب راجعاً الى هذا السبب ، وإنما يعود السبب الحقيقي الى حادث حدث عندما كنت طفلاً في الثالثة من عمري كنت فضولياً أعرف أن أختي آمنة سوف يقمن بخفاضها ، فحشرت نفسي بين مجموعة النساء اللائي يحطن بها ، كانت

أختي مستلقية على ظهرها فوق حصير مزخرف جميل ، وقد فرش عليه مشمع أحمر ، وكان هناك فعلاً ثلاث نسوة يمسكن بها بالطريقة التي شرحتها زينب ، بل كان هناك المزيد منهن من جلسن يراقبن هذه العملية ، و يمسكن بأطراف اليدين أو الرجلين ، كانت حاجة نفيسة تجلس في الوسط بين فخذيها ، رأيتها تفتح شنطة صغيرة من الصفيح ، ثم تخرج منها منديلاً أبيض صغيراً وضعته ثم حلت رباطه فأخرجت منه سكيناً وأمواساً ومقصات ، وعندما بدأت في عملية إجراء الخفاض ، صرخت أختي صراخاً حقيقياً وقد تدفق الدم وهي تستنجد بكل من حولها أن يرأفن بها ، ولكن لم يكن هناك من سميع أو مجيب سوى الصمت المطبق ، والأنفاس المكبوتة ، والنظرات الجامدة ، ومزيداً من الأطباق عليها حتى لا تتحرك ، في البداية ترقرق الدمع في عيني ، وعندما ازداد صراخها لم أتمالك نفسي من الصراخ فصرخت ، لم أكن وحدي الذي يصرخ ويبكي ، فقد رأيت الدموع تسيل على وجه أكثر من واحدة وكأنهن يسترجعن ذكرى تلك الآلام المبرّحة التي عشنها في يوم من الأيام ثم عشنها للأبد يوم اكتشفن أنهن قد فقدن من جراء تلك العملية خصائص الأنوثة ومقوماتها الأساسية ، أما حاجة نفيسة «الطهارة» فقد كان وجهها صارماً وجافاً لا ينبيء عن شيء.

كشفت بصراخي عن وجودي وسرعان ما جذبتني أكثر من يد وهي تدفع بي بعيداً حتى انتهيت عند يد خالتي الرحمة التي قادتني بعيداً ، ثم نادت أحد اخوتي الكبار ممن كانوا يجلسون في قسم الرجال وسلمتني إليه ، وطلبت منه أن يأخذني بعيداً ، فأخذني وصدى صراخ أختي يرنّ في سمعي ، وقد انقلب الى نشيج وزفير حار ، وهي ترجو وتتوسل ، ولكن كان لا بد مما ليس منه بدّ.

كانت زينب قد أدركت أخيراً بعد أن شهدت الأعوام الأخيرة حملة شديدة ضد هذه العملية ، إن هذه العملية هي أبشع ما تعرضت له الفتاة عندنا في تاريخ البشرية ، وعندما عرفت هذه الحقيقة لم تندهش كثيراً ، لأنها تعلمت كغيرها من نسائنا ، كيف تتغلب على هذه المحنة ، فتجعل من فراش الحب متعة ومسرة ، وكنا كلما نتذكر ذكرى الليلة الأولى ، «ليلة الدخلة» ، نستغرق في ضحك طويل.

كنت أتقدم في السن ، وفي الحقيقة فقد تخطيت الآن الخمسين من عمري ، صحيح أن الشيب جلّل رأسي وشاربي ولحيتي ، وقد ظهرت التجاعيد عميقة في وجهي ، لكنني كنت أحسّ إحساساً عارماً بالحياة من حولي ، أشعر بجمال الفتيات ، وأتذوق الطعام الشهيّ ، وأفرح بكل ما يفرح ويبهج ، وصرت أعجب كيف أنني عندما كنت شاباً في العشرين من عمري ، وأسمع أن فلاناً قد تخطّى الخمسين من عمره ، تخطر في ذهني صورة إنسان محطم ومنهوك القوى لا يدرك الأشياء من حوله بوعي وإدراك سليم ، كنت عندما أتذكر ذلك الاحساس وأرى نفسي الآن ، أشعر وكأنني لم أعش سوى ساعات قليلة ، وأن حياتي لم تبدأ قط إلا الآن .

١٠

كان الشتاء في ذلك العام بارداً جداً، وقد اعتاد عادل وعصام أن يناما مع توفيق في كوخه، وقد درجت زينب على اشعال بعض الأخشاب لتدفىء بها الكوخ الذي ننام فيه أنا وهي، وفي ليلة من تلك الليالي الباردة، دخلت الكوخ وأنا أرتعش من البرد، استلقيت على السرير وتغطيت بغطاء من صنع جلد الخراف أحتفظ به منذ زمن طويل وفرشت فوق الحصير الذي أنام عليه دثاراً مصنوعاً من شعر الغنم، ولكن ذلك لم يذهب ما بي من برد، أقتربت زينب مني وجلست على حافة السرير، وعندما رأت أرتجافي، أندست بجانبي تحت الغطاء، أحسست بها دافئة فقد كانت جالسة بجانب النار، ولم تتعرض لما تعرضت له أنا من برد، فألتصقت بها والتصقت بي وقد نسينا أمر النار ورحنا في سبات عميق.

روى سعيد القصة كما يلي:

ــ كنت أنا وأبراهيم عائدين من جزيرة لام بالمركب قاصدين القرية، وكنت لا أمر بجزيرة العوض حتى أتطلع اليها بشوق وحنين، وعندما تطلعت نحوها لم تكن سوى كتلة سوداء في الظلام، ولكن كان هناك دخاناً ينبعث منها، كان الدخان يزداد كثافة، والمهيب يزداد اشتعالاً، فصحت بأبراهيم الذي كان يلف جسده ببطانية حتى لا يكاد يبين، بأن في جزيرة العوض حريقاً.

اتجهنا بسرعة نحو الجزيرة، والقينا مراسينا على شاطئها، ثم اندفعنا بسرعة نحو الكوخ الذي أشتعل جزؤه الأمامي بالنار، وما هي الا لحظات حتى كنت واقفاً

بجانب سرير العوض وزينب وهما يغطان في نوم عميق وقد أشاعت النار من حولها الدفء والسكينة ، أيقظتها بسرعة ثم سحبتها للخارج وهما ما بين النوم واليقظة ، لقد كانا في حيرة من أمرهما ، وكأنهما أفاقا على مشهد كابوس مروع .

انتهت رواية سعيد .

أسرع ابراهيم وأيقظ توفيق وعادلاً وعصاما ، فأقبلوا مسرعين من كوخهم وبدأنا عملية الاطفاء والتي كانت مستحيلة وذلك لقلة «الجرادل» التي ننقل بها الماء ؛ وبجانب ذلك فقد كانت الريح باردة وشديدة ، وهي تنتقل من جانب الى آخر ؛ وأخيراً أقترح سعيد بأن نترك فكرة الاطفاء وننقذ ما يمكن انقاذه من أشياء ومتاع داخل الكوخ المشتعل ، كنت طيلة الوقت أقف مشدوها وسعيد وأبراهيم وتوفيق وعادل وعصام يدخلون الكوخ ثم يخرجون منه وهم يحملون كل ما تقع عليه أيديهم من متاع أو ملابس أو أواني أو غير ذلك ثم يضعونه بعيداً ، كانوا مثل أشباح تتراقص ظلالهم الداكنة وسط الحريق ، وكان ضوء النار يرقص متأرجحاً مظهراً عيونهم ووجوههم ، ثم يتلاشى فوق الرؤوس العارية .

وأما زينب فقد وقفت غير بعيد ، وكان ضياء النار يذهب عميقاً في عينيها ، فيشعل فيهما شرراً أحمر ، كانت تقف بجانب النار مغرقة فيها نظراتها وهي تسترجع ذكرى تلك الأخشاب التي نسيتها مشتعلة ، وعندما أفاقت كان أول عمل تقوم به ، أنها نادت ولديها عادلاً وعصاماً ، وأمسكت كل منهما بيد وأمرتهما بأن يقفا بعيداً هنا بجانبها ، وقد فعلت ما يمكن أن تفعله كل أم في مثل هذه الظروف .

دخلت الكوخ من الجهة المقابلة لحجرة النوم بعد أن أحدثت به فجوة أدخل منها ، كانت النار ترحف نحو هذا الجزء ، وهناك أستطعت أن أخرج الصندوق الذي أحتفظ فيه ببعض المال ، وحقيبة حديد كبيرة كنا نحفظ فيها ثيابنا ، أما غير ذلك فقد تركته للنار وللأخوان لينقذوا ما يمكن انقاذه .

أخيراً أتت النار على الكوخ كله ، ثم بدأت تخمد تدريجياً الى أن انطفأت تماماً

تاركة كوماً من السواد الذي تتوهج بين ثناياه قطع من الخشب المحترق، لكنه سرعان ما ينطفىء نهائياً فيرسل السنة من الدخان يرتفع قليلاً في الهواء ثم يتلاشى.

وانتصف الليل، وحمدنا الله على السلامة، وشكرت سعيداً وابراهيم على أنقاذهما لنا، وطلبت منهما أن يعودا الى أهلهما حتى لا يقلقوا عليهما، فأبحروا عائدين.

هذا الحادث جعلني أفكر في بناء دار تكون مثل بقية الدور، دار تبنى بالطين، ثم تبلط بالرمال الناعمة ثم تطلى بالجير الأبيض، وتسقف بجريد النخل.

كانت المشكلة التي تواجهني، هي أين يمكنني بناء هذه الدار؟ أن فكرة بناء الدار في الجزيرة فكرة مستبعدة، فالجزيرة صغيرة وأرضها طينية رخوة، وهي عرضة للفيضانات، وفكرة بناء منزل في البر الغربي فكرة مستبعدة أيضاً، ففي خلال الأعوام الأخيرة تضاعف عدد الناس هناك وأصبح من العسير جداً امتلاك منزل هناك، اذ يتطلب ذلك اجراءات كثيرة ومعقدة، وقد يمنحوني قطعة أرض تكون بعيدة عن الشاطىء، فتصبح الجزيرة بعيدة عني، وفضلاً عن ذلك فالقرية صارت مكاناً مزدحماً وأنا أعتدت حياة الحرية والأماكن المتسعة الرحبة.

وهنا أتجهت ببصري نحو الشاطىء الشرقي، نحو كثبان الرمال الصفراء الممتدة على مدى البصر، صحيح أنه مكان مهجور ولا أثر فيه للحياة، ولكنها أرض مثل كل الأراضي، وهي قريبة جداً من الجزيرة، فلو وقفت هناك على الشاطىء فأنني أستطيع رؤية ما يجري وما يحدث في الجزيرة، وهكذا استقر رأيي أخيراً على أن أبني منزلي في الشاطىء الشرقي للجزيرة.

وفي الصباح ذهبت الى البر الغربي، وهناك ابتهج الناس بسلامتي وسلامة أهلي، وقد أقبلوا فرحين متهللين ليروا من كان يمكن أن يكون من عداد الموتى، وأغلب الظن أن سعيداً وأبراهيم قد صارا محط أنظار أهل القرية جميعاً، وسعيد بصفة خاصة له قدرة فائقة في سرد الأحداث، بحيث تصبح من الاثارة للحد الذي تخلخل ذلك الملل وتلك الرتابة التي تسيطر على القرية.

لقد حضرت الى البر الغربي لمقابلة سعدالله وأخيه مبروك ، وهما من أشهر البنائين في المنطقة ، وقد ذهبت اليهما حيث يقيمان في أطراف القرية ، في محلة صغيرة تجمع الرقيق المعتوقين حيث يمارسون صناعة الخمور المحلية المشهورة من التمر وهي ما تعرف (بالعرقى) ، وهذا المكان يقصده الشباب الطائش والصعاليك كل ليلة ، وفيه يمارسون أنواعاً شتى من الرزائل والموبقات ، وهو بؤرة للفساد ومختلف الجرائم ، وللبعض خليلات هناك ولهم منهن أطفال معرفون.

التقيت بسعد الله وأخيه مبروك ، وهما يلبسان ملابس رثة وممزقة ، وقد أندهشا لبحثي وسؤالي عنهما ، وقد ازدادت دهشتهما عندما أخبرتهما بفكرتي في بناء دار كبيرة وواسعة بالبر الشرقي ، ولكنني عندما أفهمتهما بأنني سأنصب لهما خيمة هناك ، وسأمدهما بالأكل والشراب والشاي والقهوة ، زال ما بهما من دهشة وارتياب ، وقد علق سعد الله بأنه سيدبر بنفسه أمر (العرقى) ابتسمت لصراحته وإن كنت أتحرج من ذكر الخمر ، وبعد أن اتفقا على كل شيء حملا على أكتافهما وأيديهما الطواري ونقالة الطين وأنا أتقدمهما على حماري شأن سادة القوم عندنا ، وهما يهرولان خلفي ويتبعان ما يثيره حماري من غبار جاف دون أن ينظرا الى أعلى حتى وصلنا الى الشاطىء فركبنا المركب قاصدين الشاطىء الشرقي.

وصلنا الى البر الشرقي ، كانت هذه أول مرة تطأ فيها قدماي هذا الجانب رغم قربه مني ، وقد حز في نفسي هذا التقصير من جانبي والذي ارجعته الى السلبية وعدم المبالاة التي نقف بها تجاه الأشياء ، فلا نحاول أن نكتشف أو نتعرف على ما حولنا من أشياء ، وقد نرى في الاكتشاف نوعاً من الامور التافهة أو الفارغة.

كان الشاطىء يرتفع عالياً ، وكان كما تصورته رملياً ، ولكن كان على بعد خطوات منه تمتد أرض صلبة متماسكة ، وبعد أن مشينا هنا وهناك ، ونحن نتفحص المكان ، وقع اختياري على المكان الذي رأيته مناسباً لبناء داري ، كان مكاناً يرتفع قليلاً عن مستوى الأرض ويكون سطحاً متماسكاً وقوياً ، لقد انشرح صدر سعد الله وأخيه مبروك عندما وجدا بالقرب من هذا المكان مجرى لنهر قديم أو مجرى سيول ، نزلا الى ذلك المنخفض القريب ، وبعد أن قلبا ترابه قال لي سعد الله :

— ان طين هذا المجرى أنسب ما يكون للبناء ، انه مثل الاسمنت صلابة وقوة .

ثبتنا الأوتاد ، وشددنا الحبال ، وحددنا حدود السور الخارجي والغرف وحجرة القعود العامة والمطبخ والمخزن ، تطلع مبروك نحو المكان وقال بأعجاب :

— ستكون دارك كالقلعة ان شاء الله .

ومنذ ذلك اليوم أطلقنا على دارنا بالبر الشرقي اسم (القلعة) ، بعد شهر تقريباً فرغ سعد الله ومبروك من البناء ، وقد بذلا جهداً جباراً مشكوراً ، كان سعد الله يقوم بتجهيز عجينة الطين ، ثم يضع الطين في النقالة ، فيحضر مبروك ويحملان النقالة حيث يفرغان ما عليها من طين ويكومانه قريباً من موضع البناء ويبدأ سعد الله في قذفه بكرات الطين في عملية مثيرة وشائقة ، ومبروك يتلقى هذه الكرات فيشرع في اضافة طبقة أخرى تزيد من ارتفاع البناء .

وجاء يوم سقف المنزل ، كان يوماً مشهوداً ، فقد كان يوم « الفزعة » ، وقد حضر فيه أتباع الشيخ وسعيد وزوجته مريم وبنتها جميلة وأبراهيم بالاضافة الى سعد الله ومبروك .

كنا قد استعددنا لهذا اليوم ، فأعددنا الدقيق ، وذبحت عجلاً ، كانت زينب ومريم وجميلة يقمن باعداد الطعام ، وكان عادل وعصام يقومان بنقله الينا من الجزيرة الى القلعة حيث كان العمل يجري هناك على قدم وساق ، فريق يقوم بتقشير الجريد ، وفريق يصف أعواد السنط فوق الحجرات ، وفريق يقوم بنسج الجريد فوق الأعواد ، وما أن يتم سقف حجرة من الحجرات حتى يتولى سعد الله وأخيه مبروك مهمة وضع العشب فوق نسيج الجريد ، ثم يضعا الطين فوقه حتى يثبت ويحجب الضوء ، وهو طين مخلوط بروث البهائم ومحضر بطريقة خاصة تجعله خفيفاً وقوياً .

كان يوماً حافلاً ، وفي المساء كنا قد فرغنا من سقف دارنا في القلعة بالبر الشرقي .

بنيت أيضاً داراً صغيرة لتوفيق بالقرب من القلعة مكونة من سور خارجي

وغرفتين ومخزن ومطبخ ومرحاض. رحلنا الى دارنا الجديدة، وهكذا بدأت الحياة تدب في ذلك الجزء المهجور من العالم، وقد وجدنا فيه راحة واتساعاً، وكان أكثر ما يؤلم زينب هو كيف فات علينا ألا نفكر مثل هذه الفكرة من قبل وما كان لي أن أفكر في هذا الأمر لولا الحريق الذي أتى على كوخنا، لأنني أحب الجزيرة، ورغم رحيلنا الى القلعة، كنت لا أذهب اليها الا في الليل عند النوم، وأحياناً كثيرة أنام في الجزيرة في كوخ توفيق أو بجانب الساقية، فراحتي الحقيقية عندما أكون هنا... هنا في الجزيرة.

١١

في الآونة الأخيرة بدأ يشغلني أمر توفيق ، إذ لا يجوز أن يظل بدون زواج ، وقد بلغ من العمر ما يؤهله الى ذلك ان لم يكن قد تعداه ، لم يستغرق الأمر بحثاً طويلاً ، فتوفيق سوف يقبل الفتاة التي أرشحها له ، لأنني أعرف أنه لا يعرف فتاة بعينها وان كنت أعلم ما هي رغبته .

قلت له :

— أريدك أن تتزوج ، فما رأيك ؟

— ابتسم في اقتضاب ثم أجاب : كما ترى يا عمي .

— هل هناك فتاة تود الأقتران بها ؟

— لا .. أنني أقبل الفتاة التي تراها مناسبة لي .

وأنتهى النقاش عند هذا الحد ، أنني أحب سعيداً ، وسعيد يحبني ، وحتى نداوم على هذه المحبة فقد طلبت منه أن يقبل أبننا توفيق زوجاً لابنته جميلة ، وقد وافق مشكوراً ، وأنا لم أفرض هذا الزواج على توفيق كما يتبادر الى الذهن ، بل كنت قد لاحظت في مناسبات كثيرة أن توفيقاً عندما يلتقي بجميلة يكون في أحسن حالاته ، وكانت آخر المناسبات يوم الفزعة لسقف منزلنا الجديد بالقلعة ، فقد راقبت جميلة وتوفيق عن كثب ، وقد لاحظت أن توفيقاً عندما يريد شيئاً كان يقصدها هي دون غيرها ، وكأنها تعرف من أمر الجزيرة أكثر مما يعرف الآخرون ، وكانت هي بدورها تلبي طلبه بسعادة كبيرة وهما يتبادلان البسمات والنظرات .

وسعيد رجل يحب الفرح والمرح ، ولذلك طلب مني أن يكون الفرح بزواج معيد من ابنته جميلة في البر الغربي حتى يقيم لها فرحاً لا مثيل له في تاريخ القرية ، وطلب مني أن أعطيه عجلين من خيرة العجول على حساب المهر ، فأعطيته عجلين من خيرة العجول وقد أختارهما بنفسه.

وفي عصر الخميس تقاطر المدعوون لبيت سعيد من كل صوب ، وقد أقبلوا على حميرهم في جماعات مكونة من ثلاثة أو أربعة أشخاص حسبما يتفق ، وأمام جمع من الحاضرين ذبح العجلان وقد أثنى الحاضرون عليهما وعلى لحمهما ، وفي المساء كان (الدكاي) وهو لون من الشراب المسكر الخفيف ، يمر على المدعوين وقد جلسوا في حلقات هنا وهناك في فناء الدار ، يعقبه الشواء من اللحم ، وكان أبراهيم يجلس في مكان خاص وهو يمسك بدفتر وقلم ليسجل أسماء من يدفعون له (النقوط) ، وهو مبلغ يتراوح ما بين خمسة وعشرين قرشاً وخمسين قرشاً على الأكثر يدفعه المدعوون ليساعدوا العريس في القيام بنفقات الفرح ، وهو بدوره يرد اليهم في مناسبات أخرى.

قال سعيد للحاضرين بصوت مسموع وهو في غاية الفرح :

— أقسم بالله العظيم أنني أنا أبو العريس والعروسة.

سر الحاضرون سروراً عظيماً ، وعندما أقبل الليل وقد شبع الجميع وانتشوا ، تناول ود اللبيب طنبوره وراح يغني غناء عذباً وكله يدور حول محبوبته ، ونهض الشباب وبدأت الصفقة على إيقاع الطنبور ، وأقبلت بنات خدم العشش وعرب الديم ورحن يرقصن على أيقاع الصفقة والطنبور وصوت اللبيب الجميل وهن يملن برؤوسهن ، كانت أقدامهن حافية وهن يدرن في وسط الحلقة دورات سريعة ورشيقة فيتقدمن للأمام ويرجعن للخلف ، وثار الغبار ، وتعلق في الهواء ، وامتزج في ضوء المصباح والأنفاس اللاهثة ووقع الأقدام على الأرض وأجسام الراقصات وهي تنثني وتتموج ، وصدورهن تعلو وتهبط ، وقد تألقت بصفة خاصة الفتاة الجميلة مرريبه ، ووجد الرجال ليلة من ليالي العمر الخالدة ، فنسوا اللبيب وطنبوره

وغناءه ، وراحت أنظارهم تهيم مع النهود والأرداف والعيون ، كان الواحد منهم يتقدم نحو أحدى الراقصات الفينة بعد الفينة ، ثم يحني ظهره انحناءة صغيرة أو كبيرة أمامها فتلقى بضفائر شعرها على كتفه فيهيم وجدا وسعادة ، وقد نال (شبالاً) ممن يحب ويهوى وهكذا امتد بنا السهر والطرب حتى الفجر .

وفي اليوم التالي بعد صلاة الجمعة ، حضر الامام عبد الرحمن لمنزل سعيد ، وبعد أن تناولنا طعام الغداء ، عقدنا على توفيق ، ودعونا له بالتوفيق وكثرة المال والعيال .

وفي المساء ذهبت أنا وزينب الى القلعة لنكون مستعدين لأستقبال العروسين ، وعند منتصف الليل ترامى الى سمعنا صوت غناء ، فهرعت الى الشاطىء تتبعني زينب فرأينا مركباً يشق عرض النهر وهو عبارة عن كتلة من السواد ، بينما ضوء المصابيح يذهب عميقاً في النهر فيترجرج مع الماء والهواء ، وصل توفيق وعروسه مع جمع من النساء والفتيات ، وكان عادل وعصام يقومان بأدارة المركب ، أمسك توفيق بيد جميلة ، وسارا فوق السقالة ونزلا على الشاطىء ، ولم ينس توفيق أن ينفح البنات بعض المال ، «فزغردن» مسرورات ، ثم عدن للبر الغربي مع عادل وعصام .

تقدمت زينب توفيقاً وجميلة ، وهي تحمل مصباحاً ، ثم قادتهما الى منزلها ثم هنأتهما مرة ثانية وعاد كل منا الى مكان نومه وقد بلغ بنا التعب أشده ما عدا العروسين .

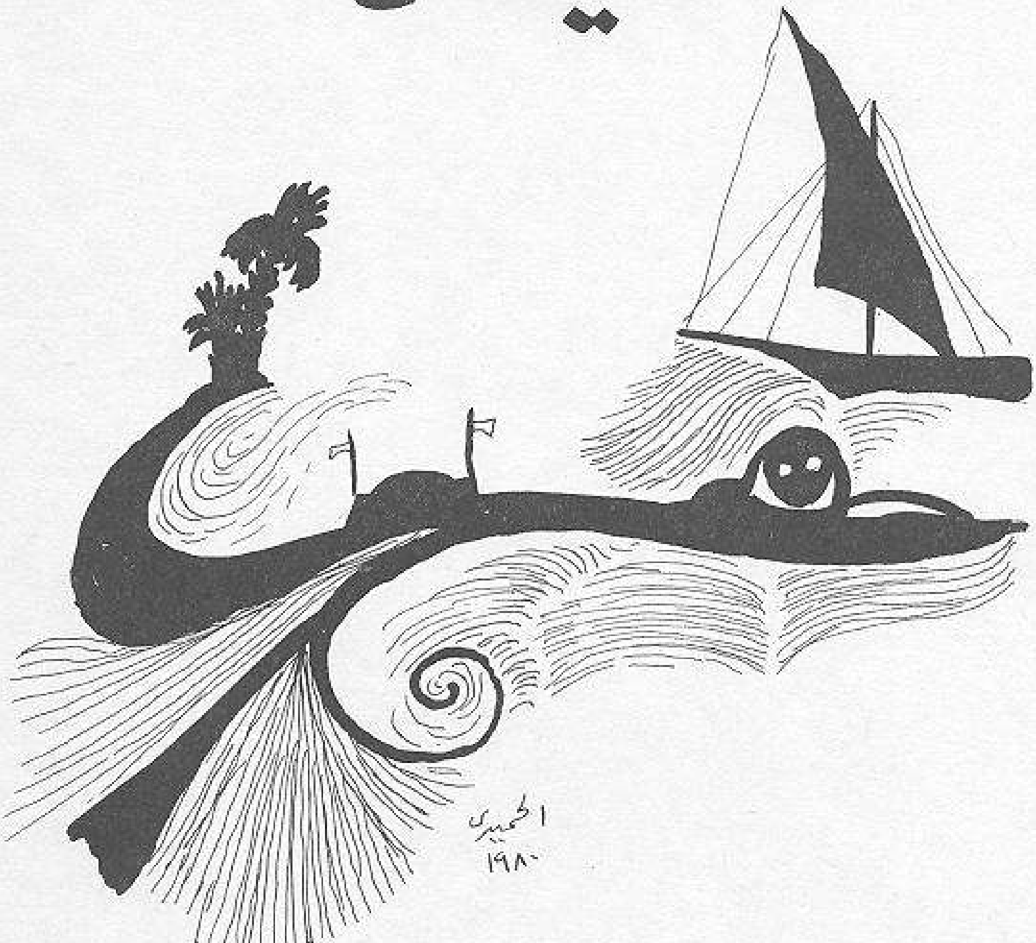
إستقر توفيق وزوجته معنا في القلعة ، كانت جميلة جميلة حقاً ، طيبة ومؤدبة ، وقد ألفت القلعة والجزيرة ونحن من جانبنا قد أحببناها وسرعان ما صارت واحدة منا .

بعد مرور عام تقريباً وضعت جميلة بنتاً أطلق عليها والدها إسم سعاد ، وقد قال لنا أنه إسم والدته التي ماتت عند وضوعها رحمها الله .

لم تعد الجزيرة ذلك المكان الذي رأيته قبل أكثر من أربعين عاماً ، مجرد شريط رملي أيض تحيط به المياه والوحدة من كل جانب ، إنه الآن مكان يضج بالحركة والنشاط والحياة ، وتدور حوله أحداث جسام ، وما كان لي أي خيار في ذلك كله .

القسم الثانى

الفيضان



١

تطلعت بأعجاب ما بعدهأعجاب الى جزيرتي ، لقد اتسعت وارتفعت ، وقدرت في نفسي أنها لو كانت ترتفع بمقدار خمسة سنتمترات كل عام وذلك من جراء ما يترسب عليها من طمي بفضل الزراعة المستمرة فوقها عاما بعد عام ، فمعنى ذلك في خلال الخمسين عاماً الماضية قد أرتفعت بمقدار ثلاثة أمتار تقريباً عن مستوى النيل ، كان هناك أيضاً الغبار وروث الماشية وبقايا الزرع ، كل ذلك جعل الجزيرة مكاناً عالياً وقوياً وصلباً وكأنه مكان قد وجد من قبل أن يوجد النيل ، وهناك أيضاً تقف رأس الحربة عالية شامخة وقد صار لها أبناء وأحفاد ، لقد صارت أسرة كبيرة العدد ، انها في الوسط عالية وشامخة تذكرني بذلك اليوم عندما حملتها وهي فسيلة صغيرة إلى هذا المكان ، أما الآن فقد كبرنا معاً ، هناك أيضاً قبر الشيخ طه المنحول والأعلام ترفرف حوله ، ترى لماذا أختار أن يدفن هنا؟ لقد قدرت في نفسي أنه فضل هذا المكان لأنه يبعث البهجة في النفس لجماله ، والبهجة عندنا ، هي الماء والخضرة والوجه الحسن ، وقد كسب منهم أثنان ، الماء والخضرة ، أما الوجه الحسن فسوف يجده في الجنة التي سعى اليها بالعبادة وصالح الأعمال .

كانت الساقية والمركب والزوجة والأبناء ، وبيوتنا في القلعة ، كل ذلك جعلني أشعر بالغبطة والسرور ، كانت البداية بسيطة ، ولكنني الآن صاحب الجزيرة ، هذا العالم الذي حلمت به ، وأصبح الآن حقيقة واقعة .

كانت الأحوال تسير سيرها الطبيعي عام بعد عام ، ويوماً بعد يوم ، ولم أحس أبداً بالملل والرتابة لقد أمتزجت مع كل ذلك في صناعة مستمرة لما يمكن أن تكون حياتي ، وهي حياة سعيدة ومفرحة وهادئة ، ولكننا لم نكن ندري أن الأقدار تخبيء لنا آلاماً وأحزاناً فوق طاقة البشر.

٢

في ذلك العام الذي أشتهر بعام الفيضان، ذلك الفيضان الذي لم تشهد البلاد مثيلاً له من قبل، حدث ما حدث.

كنا في بداية شهر يوليو عندما اتضح لي أن منسوب النيل قد وصل حداً لم يكن يصل اليه الا في شهر أغسطس من كل عام، وذلك عندما يرتفع النيل الى درجته القصوى، بدأت أشعر بالخوف فاذا كان هذا هو الحال ونحن ما زلنا في بداية شهر يوليو فكيف يكون الحال في شهري أغسطس وسبتمبر؟

طمأنت نفسي بأن الأحوال سوف تتحسن، ولكن ما أن وصلنا الى منتصف يوليو حتى بدأت مخاوفي تزداد، فقد غمر النيل الجزء الجنوبي من الجزيرة، وفي الحقيقة فقد كان ذلك الجزء من الجزيرة منخفضاً بعض الشيء، لأنه أضيف الى الجزيرة في الأعوام الأخيرة، لكن لم يحدث أبداً أن غمره النيل في اي عام من الأعوام ان الأمر لا شك خطير، وينذر بشر مستطير، وقد تواترت الأخبار بأن هذا العام سوف يشهد زيادة في النيل لا يعلمها ولا يعلم حقيقتها الا الله وحده.

وفي البر الغربي كانت القرية ترتفع عن مستوى النيل في الناحية الجنوبية، ثم تنحدر لتستوي مع الأرض مع مجرى النيل عندما يفيض في الناحية الشمالية، وقد أصبح الناس ذات صباح، فاذا الماء قد سال وتدفق نحو القرية متسللاً من خلال الأماكن المنخفضة بتلك الناحية، فتعالى الصراخ وارتفع النداء النجدة (المروة..

المروة..) فأجتمع الناس وسرعان ما أقاموا «ترساً» يمتد طوله الى مسافة تبلغ مئتي ياردة تقريباً، ويرتفع نحو متر تقريباً، وكانت عدتهم في ذلك الوقت كمية من «المقاطف» وعداد من المعاول، أما التراب فأنهم يحضرونه قريباً من «الترس» ثم يملؤنه في المقاطف ويكومونه على الترس.

وبعد أن فرغوا من هذه العملية، سيطروا على المياه المتدفقة نحوهم، تركوا المعاول والمقاطف للطوارىء، ثم عادوا الى بيوتهم مطمئنين مستبشرين، فان الخطر — رغم ما يحمله من كوارث وأهوال — يظل دائماً ما مبعث فرح وهزة في النفس، وكأنما الخطر يحمل في ذاته دفعة جديدة للحياة.

٣

الجزيرة كما هو معروف، مكان تحيط به المياه من كل جانب، وهذا هو حال جزيرتي، لذلك فأن الدفاع عنها يعد أمراً صعباً، ان لم يكن مستحيلاً، وحتى أكون عملياً، فقد فكرت في الامر وقلبته من كل وجوهه، وأخيراً قر قراري على الدفاع عن الجزيرة ضد الفيضان عند الأماكن التي شهدت مولد الجزيرة من الناحية الشمالية عند رأس الخربة، وضريح الشيخ والساقية، وهي أكثر الأماكن ارتفاعاً وصلابة.

أعطيت عادلاً وعصاماً مبلغاً من المال، وطلبت منهما أن يذهبا الى البر الغربي والمديرية والقرى المجاورة، ويشتريا أكبر كمية من الأكياس يحصلان عليها لنملأها بالرمل ونقيم منها ترساً نحيط به الجزيرة، أبحر عصام وعادل قاصدين البر الغربي يقودهما توفيق، وعندما وصلا البر الغربي ركبا حماريهما لأداء المهمة، وعاد توفيق بالمركب الى الجزيرة.

بعد أسبوع عاد عادل وعصام الى الجزيرة بعد أن وفقا في شراء الأكياس، وفي هذه المدة أتضحت الحقيقة بأن النيل مستمر في الزيادة، ففي البر الغربي وصل النيل الى حافة «المتراس» فعمل الرجال والشيوخ والأطفال والنساء على زيادة ارتفاع السد مرة أخرى حتى صار ارتفاعه نحو مترين، وقد أزداد طوله وصرنا نشاهده ونحن في الجزيرة، وفي الجزيرة كان الجزء الجنوبي قد اختفى، بينما ظهرت رؤوس أشجار الطرفة ونبات الحلفة ترجرج ظلالها على المياه التي تأخذ بخناقهم من كل جانب.

وما أن تسلمت الأكياس حتى شرعنا في ملئها من رمال البر الشرقي ، كانت زينب وجميلة وسعاد يتولين مهمة ملء الأكياس بالرمل ، وكنت أنا وتوفيق وعادل وعصام نقوم بنقلها الى المركب ومنها الى الجزيرة حيث ننقلها مرة ثانية من المركب ونصفها بعضها فوق بعض بجانب رأس الحربة .

نظرت الى مئات الأكياس المليئة بالرمل وقد صفت أمامي بفرح شديد ، وان كانت المجموعة من حولي ترى في صنيعي هذا نوعاً من المبالغة ، لكنهم كانوا يعرفون بأنني أحتاط للأمر ، ففي وجود الجزيرة وجودي ، وفي ضياعها ضياعي ، وفي الحقيقة فقد كنت عازماً أشد العزم وأقواه على الدفاع عن جزيرتي التي تحمل أسمي ، حتى آخر رمق في حياتي .

لم أعد أفارق الجزيرة لحظة واحدة ، كانت عيني ترصد الزيادة المستمرة في النيل ، كنت أتفقد أطراف الجزيرة شبراً شبراً ، وأقدر في نفسي أماكن وضع الأكياس ، وقد شاركتني المجموعة في ذلك وهكذا جلبت النساء بعض الأواني الضرورية لمدنا بالأكل والشراب دون اللجوء الى الذهاب الى القلعة ، كانوا متأهبين في أنتظار ساعة الصفر لبداية العمل ، وأحاطة الجزيرة بمتراس من الأكياس الرملية .

٤

كنا في نهاية شهر يوليو ، كان النيل ساكناً ، والصمت مخيم فوق أرض الجزيرة الراقدة تحت ألق النجوم والمياه المحيطة بها من كل جانب ، لم يكن ثمة صوت ، لا صوت أنسان أو ثور أو حمار أو كلب ، صمت شامل ، صمت مرعب وخطر ، صمت مصنوع من عويل شديد العمق في النفس بحيث كنت أسمعه يهدر ويغلي في دمي فيطفح جلدي بسخونة خانقة ، بينما كان قلبي يدق دقات أسمعها وكأنني بأنتظار راجف لكارثة ، وفجأة ترامى الى سمعي صوت أنهيار أحدث دوياً وطشاشاً قريباً من رأس الحربة ، فأسرعنا الى هناك لنعرف الحقيقة ، انه الهدام.

والهدام هو الموج عندما يأتي من أتجاه معاكس للتيار ، فيضرب على الشاطىء حتى يحدث فجوة في المكان الذي ينقر فيه ، وعندما تتسع هذه الفجوة ، يصبح الجزء الأعلى متهاوياً ، فينهار ، فإذا ما استمرت هذه العملية فسوف يأتي للهدام على قرن الجزيرة فيصل الى رأس الحربة وضريح الشيخ ، تلك الأماكن العزيزة والأثيرة لدي ، شعرت بالفزع والخوف ، ولكن عندما نظرت لتلك المعالم ، هتف بي هاتف بأن هذه المعالم سوف تبقى بالجزيرة.

رغم الخوف والقلق فقد بدأت أعمل ، فقد هداني تفكيري الى عملية سوف تضاف الى سجلات الفخر والاعتزاز لي ولأولادي ونحن ندافع عن جزيرتنا.

طلبت من عادل وعصام وتوفيق بأن يذهبوا الى القلعة ويحضروا كل ما هناك من أعواد كنا نعدها لنسقف بها المزيد من الحجرات ، وسرعان ما أبحروا قاصدين

القلعة ، لم تكن هناك نسمة هواء ، فكل شيء ساكن ، فرأيت المركب يتهادى مع التيار وينحرف على مهل متجهاً نحو الشمال ، نشر توفيق الشراع الى نهايته ، لكن ذلك لم يفد شيئاً ، لأن الهواء كان راكداً ، كانوا يبذلون جهداً كبيراً للوصول الى الشاطىء الشرقي ، لكن لم يتحقق لهم ذلك الا بعد أن قطعوا مسافة طويلة نحو الشمال ، كنت أستطيع أن أحدد مكانهم بضوء المصباح الذي كانوا يضعونه فوق سطح المركب وأخيراً رسى المركب بعيداً عن القلعة ، فعملوا على جذبه بالحبال جنوباً ، كنت خائفاً عليهم من العقارب والثعابين وهم يشقون طريقهم في الظلام ، لكنهم وصلوا الى القلعة سالمين ، وهناك أحضروا جميع الأعواد ووضعوها على المركب ، ولأن توفيقاً كان خبيراً بأدارة المركب في مثل هذا الجو ، فقد أمرهم بسحب المركب جنوباً بمقدار المسافة التي قطعوها في ذهابهم ، ففعلوا ، ثم أتجهوا بعد ذلك نحو الجزيرة ، فسار المركب مع التيار منحرفاً بهم شمالاً حتى وصلوا الى الجزيرة ، كانت الرحلة مضنية وشاقة في ذلك الليل الخانق ، لقد عادوا ومعهم الأعواد ، ثم طلبت منهم أن يحضروا حزم الذرة التي كنا نحتفظ بها كعلف للماشية في وقت الجفاف فأحضروه ، تناولت واحداً من الأعواد بعد أن نضيت عني ثيابي الا من السروال ، ثم نزلت الى الماء وعلى بعد نصف متر تقريباً من شاطىء الجزيرة ، غصت الى الأعماق حيث غرست العود في الطين ، ثم وثبت للسطح مرة أخرى ، وناولني الأولاد عوداً ثانياً وثالثاً ، وأنا أغوص في الماء وأغرس واحداً تلو الآخر ، وقد جعلت المسافة بين كل عود وعود نحو متر تقريباً ، وبذلك أحطت المنطقة المهددة بالانهيار (بالهدام) بهذه الأعواد ، ثم طلبت من الأولاد أن يلقوا بحزم القصب في المنطقة ما بين شط الجزيرة والأعواد حتى امتلأت تلك الفجوة بحزم القصب التي صارت محصورة بين الشاطىء والأعواد وبذلك صار الموج يضرب على حزم القصب ، وليس على قرن الجزيرة .

ولكن كانت هناك مشكلة ، اذ أتضح أن الأعواد أخذت تتأرجح من شدة الموج وهي تميل الى الخلف ، ولكننا تغلبنا على هذه المشكلة بعد أن ربطنا أطراف الأعواد من أعلى بحبال ثم شددنا هذه الحبال وربطنا كل حبل الى وتد مغروس في

الجزيرة مقابل للعود ، وبذلك انحصرت حزم القصب ما بين الاعواد والشاطىء ، وبفضل هذه الطريقة ثبتت الأعواد.

كنت أعمل بعزيمة ونشاط ، وبهمة لا تعرف الكلل ، وكأنما هناك قوة خفية تمدني بأسباب تلك العزيمة والنشاط.

نجحنا اذاً في التغلب على الهدام في ذلك الجزء من الجزيرة ، وثبتت الأعواد وتعانقت حزم القصب مع طرف الجزيرة ، والتصقت في صلابة وقوة ، بينما كانت الأعواد تقف قوية وثابتة ومنتصبة وهي مشدودة بالحبال على الشاطىء تبارك هذا العناق وترعاه.

كانت بعض الأعواد تتأرجح أحياناً ، فنسارع الى تثبيت ما تأرجح أو ارتخى ، وقد استلزم ذلك منا أن يغطس أحدنا الى القاع حتى يصل الى نهايته ممسكاً بالعود فيقوم بتثبيته ومعالجة أمره بسرعة ثم يثب مرة ثانية ليسترد أنفاسه ثم يواصل عمله الى أن يفرغ منه.

كانت هذه العملية شاقة ومتعبة ، وان وجد فيها عادل وعصام لوناً من ألوان اللهو واللعب ، لقد أمضينا الليل كله ساهرين بجانب الأعواد ، ونحن نراقب ثمرة جهدنا حتى الفجر ، ولكن مع تباشير الفجر ، كان الأمر قد استقر وأصبحت الجزيرة في مأمن من خطر الهدام ، ولكن كان هناك خطر الفيضان ما زال ماثلاً أمامنا يثير فينا الرعب والخوف.

٥

النيل يزداد بأضطراد مستمر ، ففي البر الغربي وصل ارتفاعه الى حافة المتراس فتعالى الهياج والصياح ، وسارع الناس لزيادة ارتفاعه مرة أخرى .

وفي الجزيرة رأيت أنه قد آن الاوان للعمل ، لقد تحددت لي الأماكن التي يمكن أن أضع فيها الأكياس بعد أن غمر النيل أكثر من نصف الجزيرة ، ففي الجهة الجنوبية كان لا بد من وقف زحف المياه عند الحد الذي وصلت اليه ، فلو تجاوزت المياه ذلك الحد فأنها سوف تتدفق الى بقية الجزيرة ونفقد السيطرة عليها ، اذا فقد حانت ساعة العمل ، ففي صباح يوم باكر من أول أغسطس طلبت من الأولاد أن نصف ما يلزم من أكياس الرمل بعرض الجزيرة عند نهاية المكان الذي وصلت اليه المياه ، بحيث يكون الارتفاع بمقدار كيسين ، كيس فوق كيس ، رسمت خطا بالعصا لم يكن مستقيماً وانما كان خطاً متعرجاً حاولت فيه أن أتابع الأماكن المرتفعة والقوية بقدر الامكان ، ثم بدأنا العمل بهمة ونشاط ، لم تستغرق العملية وقتاً طويلاً ، ففي تمام الساعة الثامنة صباحاً تقريباً ، كنا قد فرغنا من اقامة متراس من الأكياس بعرض الجزيرة كلها .

تناولنا طعام الافطار ، وارتحنا قليلاً ثم واصلنا العمل مرة أخرى ، وبدأنا ندور بالأكياس حول بقية شاطىء الجزيرة من جميع الجهات ، كانت الجزيرة تضيق كلما اقتربنا من الناحية الشمالية من قرن الجزيرة الرفيع .

كانت المياه حتى الآن تلامس أطراف الجزيرة من الناحية الشمالية دون أن

تغمرها ولكن أي زيادة ولو بسيطة في منسوب النيل ستجعل الجزيرة في خطر محدق، لذلك فقد كان اختياري للوقت الذي أقمنا فيه بأحاطة الجزيرة بالأكياس هو أنسب الأوقات فقد أحطناها في أشد الأماكن صلابة وقوة، وأكثرها ارتفاعاً.

ما أن فرغنا من هذه العملية حتى كانت الأكياس قد نفدت كلها، وهذا أمر لا يمكن السكوت عليه، صحيح أن الأكياس ترتفع بمقدار نصف متر تقريباً، ولكن لا بد من الاستعداد لأي طارىء، ولا بد أن يكون لدينا مثل ما كان لدينا من الأكياس، لذلك فقد عرضت الأمر على توفيق وعصام هذه المرة، وأعطيتهما المال اللازم وطلبت منهما أن يذهبا فوراً لشراء أكبر كمية من الأكياس يمكن الحصول عليها.

قال لي عصام:

ــ من الأفضل أن نأخذ معنا المركب هذه المرة، انها أسرع، وعندما نجمع بعض الأكياس، يمكننا أن نضعها فيها، ثم نذهب لجمع المزيد، كما يمكننا أن نرتاح وننام فيه.

وافقته على رأيه، ولكنه سألني:

ــ وماذا سيكون موقف النساء؟

قلت له:

ــ يمكنكما أن تأخذوا النساء الى القلعة فيستقرون هناك، ويكن في مأمن من الأخطار، وسأبقى أنا وعادل في الجزيرة نراقب الوضع وندبر أمر أكلنا وشربنا حتى تحضر ظافرين غانمين ان شاء الله.

وهكذا رحلوا جميعاً، ذهبت النساء الى القلعة وبعد أن نزلن هناك شاهدت توفيقاً وعصاماً وهما يتجهان بالمركب نحو البر الغربي في طريقهما للقرى المجاورة والمديرية.

ذهبت أنا وعادل لنأخذ قسطاً من الراحة في كوخ توفيق.

٦

كانت الأيام التي غابت فيها المجموعة عن الجزيرة من أقسى وأصعب الأيام ، في الليلة الأولى كان الموج عنيفاً ، وزاد من عنفه اشتداد الريح ، كانت الأعواد تتأرجح وتميل ، فأخذنا نراقبها ونسرع الى تثبيت هذا وشد ذاك ، لا أدري ان كان الموج في تلك الليالي الرهيبة قد أحس بأننا منفردان وأننا وحيدان في مكان منعزل تحيط به المياه من كل جانب ، كان منظر النيل يثير الخوف والانقباض في النفس ، فالمياه تمتد وتزدحم من حولنا بشكل لا يطاق ، كان مجرد النظر اليها يجعلني أحس بالاختناق لما تثيره في النفس من اتساع موحش ، لقد كان يطبق علينا من كل جانب ، ويأخذ بخناقنا دون رحمة ، ولكن رغم ذلك فقد عقدنا العزم الا نركن للكسل أو التخاذل ، وكان علينا نصده ونحمي الجزيرة بكل ما نملك من قوة .

كان النيل قد توقف عن الزيادة ، ولكن الموج ظل عنيفاً ، وكانت الأعواد تهتز وتميل ، ولو استمر الوضع على هذه الحالة فأن الأعواد ستسقط لا محالة ، ويصبح ذلك الجزء من الجزيرة نهباً للهدام من جديد ، ولكن أتضح أن الأعواد قد ثبتت في الطين .

في الليلة الثالثة ، بينما كان عادل يقوم بغطسة من غطساته للأعماق لتثبيت واحد من الأعواد ، انهار عليه طرف من أطراف الجزيرة بطينه وأكياسه ، كان هذا الجرف في سبيله الى الانهيار ، لكننا لم نلاحظ ذلك .

كنت واقفاً أراقب عادلاً وهو يقوم بتلك العملية المهمة عندما حدث ذلك

الانهيار ، وأمتلأ قلبي بالفزع والوجل ، فقفزت بجنون وقوة في الموضع الذي كان فيه ، وهناك ، وبتلك القوة الهائلة التي يمنحها الله لليائس المسكين ، أمسكت بيده التي تحاول في يأس أن ترتفع بجسمه الى السطح ، لم يطاوعني جسده في البداية ، فدرت به يميناً ويساراً فتحرك جسده وطاوعني ، فأنتشلته الى السطح ، كانت ثوان رهيبة ، لو لم تنجح محاولتي تلك ، لما كان هناك شيء سوى الموت .

لقد أغمي على عادل ، كان تنفسه بطيئاً ، فحملته على كتفي وسبحت به الى ناحية الساقية وهناك أمسكت بحبالها ريثما استجم قليلاً ، استجمعت قواي ، فدرت به حول الأعواد ثم سبحت به نحو الشاطىء ، وهناك وضعته فوق الأكياس ، ثم قفزت بجانبه ، عاد عادل الى وعيه بعد قليل ، واسترد أنفاسه ، فنهض من فوق الأكياس ، واستلقى على الأرض خائر القوى ، طلبت منه أن يبقى حيث هو ، ثم أسرعت لأستدرك الأمر ، فقد قدرت في نفسي ان خراباً كبيراً قد حدث من جراء ذلك الانهيار ، ولحسن الحظ فقد كانت الأعواد ثابتة في مكانها ما عدا ذلك الذي كان قريباً من الانهيار ، أصلحت الأعواد التي أنتزعت من مكانها وسويت المكان كما كان وعدت الى عادل مرة ثانية وأخذته الى الكوخ ، وهناك طلبت منه أن يرتاح ، فمنذ أيام ونحن لم نذق طعم النوم الا لماماً ، سألني ان كان قد حدث أي ضرر ، فأخبرته بأن كل شيء على ما يرام ، وبعد قليل نام نوماً عميقاً هادئاً .

خرجت من الكوخ ورحت أمشي في الجزيرة في هدأة من الليل الساجي ، وقلت في ذات نفسي :

ــ عندما تنقشع هذه الغمة فسوف أفرح بعادل كثيراً فعادل أكبر أولادي وأزوجه من سعاد .

ابتسمت لهذا الخاطر وقلت في نفسي :

ــ سوف أقول للناس أنني أبو العريس والعروسة ، وسوف أقسم لهم بذلك .

نعم ، وسوف أكون صادقاً في قسمي هذا ، فعادل ولدي وسعاد بنتي ،

ابتسمت لهذا الخاطر المفرح الذي برق في ذهني كما يبرق النور في الظلام ، ففي وسط الخوف والتعب والقلق الذي يحيط بي ، تبرق الآمال الجميلة ، فتبدد ظلام اليأس ، وتعيد للانسان بعضاً من حبه وعزمه وثقته.

حتى الآن ونحن نعمل عملاً يقوم على أسس سليمة ، هكذا حدثت نفسي ، ونحن نعرف ماذا نريد؟ وما هو المطلوب منا؟ اننا نعرف حجم العمل الذي ينبغي علينا أن نقوم به ، هذه الرؤية الواضحة سوف تساعدنا على أنقاذ الجزيرة من الغرق ان شاء الله.

مشيت قليلاً ، كان الظلام شاملاً ، ولكن صفحة النيل كانت لامعة وتعكس أضواء تجعل الرؤية شبه واضحة. الموج هدأ قليلاً أنه يتلاطم طلاطماً كالهمس. كنت أرى أنوار المصابيح في البر الغربي خافتة وحزينة ووحيدة ولا تكاد تبين ، كان ضوؤها يتأرجح خافتاً مع نسمات الهواء البارد كما يخفق قلب أمضه الخوف واليأس ، أما البر الشرقي فقد كان عبارة عن كتلة سوداء تقف أمام خلفية الفضاء الشرقي المشع بالضياء ، مررت بضريح الشيخ ، توقفت برهة ، وقلت في نفسي :

ــ لماذا لا أتعلم من الموت شيئاً؟

وكان الرد سريعاً :

ــ انني لا أخاف الموت... أنني فقط أكرهه.

ونسيت هذه القضية بسرعة ، فقد كانت همومي ومشاغلي أكبر من أن تشغلها هذه القضية التي لا حل لها ، أخذت طريقي نحو رأس الحربة ، وهناك توقفت تحتها ، كنت أسمع حفيف جريدها وهو يتراقص ويهتز مع نسمات الهواء فيلمس بعضه بعضاً فيحدث صوتاً كهمس اللقاء ــ لقاء العاشقين ــ انه صوت أحبه لأنه يتحدى صوت الموج والريح والظلام ، سقطت تمرة بالقرب مني ، فأهتديت اليها ، تناولتها وذقت طعمها ، ابتسمت وقلت لذات نفسي :

ــ بعد أقل من شهر ستكون أسرة رأس الحربة جاهزة للجني.

كنت كمن أحلم لأنني أفقت على حقيقة قاسية تقول لي :

— ولكن هل ستنجو الجزيرة حتى تجني بلح رأس الحربة وأولادها ؟

سؤال في طي الغيب ، وسوف ترد عليه الأيام .

في صباح اليوم الرابع من مغادرة المجموعة للجزيرة ، انخفض النيل ، لكنني لم أفرح بهذا الانخفاض الذي يأتي قبل ميعاده ، لأنه لا يكون دليلاً على زوال الخطر ، وعند الضحى رأيت مركبنا يقترب من الجزيرة ويلقي مراسيه . لقد عاد توفيق وعصام ، وقد وفقا في جمع كمية كبيرة من الأكياس تساوى في مجموعها عدد ما سبق أن اشتريناه .

دهشت للسرعة التي جمعا بها الأكياس ، ولكنني سمعت عصام يقول لي ضاحكاً :

— لقد صارت تجارة رائجة ، وبذلك أصبحت متوفرة ولكن بثمن أغلى قليلاً .

وهكذا يجد الناس دائماً مورداً للرزق والعمل ما كان ليخطر لهم على بال .

وكالمرة السابقة ، وبنفس الطريقة قمنا بملء الأكياس وحملها للجزيرة حيث قمنا بصفها بعضها فوق بعض في نفس الموضع السابق قريباً من رأس الحربة .

وفي المساء كان قد تحقق ظني ، اذ عاد النيل الى ما كان عليه ، ولكنني عندما رأيت الأكياس مصطفة بعضها فوق بعض شعرت بالراحة والاطمئنان والفرح وزاد من فرحي وسعادتي أن أرى المجموعة كاملة من حولي وقد أنتظم عقدها داخل الجزيرة من جديد .

٧

كان يوم عشرين من أغسطس يوماً لا كالأيام السابقة، ففيه زاد النيل زيادة كبيرة وضحت للعيان. كانت المياه تندفع بسرعة وهي تحمل على سطحها بعض الأعواد والنفايات التي تجري مسرعة مع التيار في اتجاه الشمال. كان سطح النيل مستوياً وخالياً من الموج. كان يبدو طافحاً ومتفخاً بحيث يسد أقطار النفس والفضاء.

وصلت الزيادة الى مستوى الكيس الأول، وفي بعض المناطق المنخفضة وصلت المياه الى مستوى الكيس الثاني حتى صارت المياه قاب قوسين أو أدنى من أن تتدفق وتغمر الجزيرة. وفي هذه الأماكن المنخفضة بدأنا في إضافة كيس ثالث لتزيد من ارتفاع الترس. لقد بدأنا نكافح زيادة النيل دون أن تكون هناك ثغرة ما في المتراس ينفذ منها، ولكن رغم ذلك كله، فإن الجزيرة قد أصبحت مهددة تماماً أكثر من أي وقت مضى، وإن أي خلل في هذا المتراس معناه تدفق المياه بعنف واكتساح الجزيرة ومحوها من الوجود لتصبح مجرد فضاء من الماء. كنا يقظين، وقد بعث فينا هذا الخطر المحدق بنا روحاً من العزيمة التي لا تعرف الكلل. وحتى أسيطر على هذه الحماسة قسمنا أنفسنا الى أربع مجموعات، وأوكلنا لكل مجموعة مهمة الإشراف على جهة من جهات الجزيرة.

أنا وسعاد في الناحية الشمالية أهم المناطق التي أحرص عليها حيث ضريح الشيخ ورأس الحربة والساقية والأعواد. توفيق وجميلة للناحية الغربية. عادل وعصام

للناحية الجنوبية. أما زينب فكان عليها مراقبة الناحية الشرقية حيث لا يشكل النيل خطورة ما وذلك لارتفاع الجزيرة ارتفاعاً طبيعياً، ولقوة الأرض وتماسكها بتلك الناحية.

كان على كل مجموعة أن تراقب وترصد زيادة النيل في الجهة المسئولة عنها، والتبليغ الفوري عن المكان الذي يحتاج الى مزيد من الأكياس، وهكذا شعرت أن سيطرتنا على الجزيرة أمام هذه الزيادة المفاجئة نسبياً قد بدت كاملة.

نظرت الى سعاد وهي تعمل بجانبي بهمة ونشاط، ولاحظت أن أنوثتها قد اكتملت فقلت في ذات نفسي:

— هذه إذن هي عروس عادل ولدي!!

تأملتها لحظة، ثم عادت أفكاري الى واقع الحال.

وفي البر الغربي عمل الأهالي بهمة ونشاط حتى بلغ ارتفاع المتراس ثلاثة أمتار تقريباً، وهو يدل على ارتفاع شاهق يدلّ على مدى ما بذل من جهد وتعب، وقد زاد طول المتراس الى ثلاثة أضعاف ما كان عليه في البداية.

في صباح اليوم التالي، ركبت أنا وعادل المركب ودرت به حول الجزيرة، وقد لاحظت أن هذا الوضع لا يمكن أن يستمر طويلاً، فالأكياس تقف على أرض رخوة، والمياه قد تنخر في بعض المواضع فتحدث فجوات كتلك التي يحدثها الهدام، فتنهار الأكياس في تلك المواضع فيجد النيل لنفسه منفذاً ينفذ منه.

أدرت سكان المركب واتجهت نحو البرّ الغربي أستطلع الأمر هناك، مررت بالمركب محاذياً للمتراس، وتطلعت بدهشة نحو القرية التي بدت لي من وراء المتراس بعيدة وعميقة، وكأنها شيّدت في بئر عميقة، ولكن أي بئر! كنت أشاهد الناس والبيوت من خلف المتراس وقد بدوا صغاراً. كانت الأرض من وراء «المتراس» تمتد أميالاً وأميالاً على مدى البصر في سهل منخفض، وأنا طافٍ فوق هذه المياه بمركبي

وكأنني فوق السحاب أختال. انتابني رعب حقيقي من هول هذه المياه التي تضخمت الى هذا الحد، وقلت لذات نفسي:

— ماذا لو انهد المتراس هنا؟!

نعم، فلو انهدّ المتراس هنا فسوف يتنفس النيل الصعداء ويجد لنفسه امتداداً طبيعياً ينتشر فيه وستكون القرية قرباناً يلتهمه، ولن تكون جزيرتي حينئذ ذلك القربان، ولكن قد لا ينهد المتراس! فماذا لو أنني حضرت الى هنا بالليل، وكأنني أتفقد الأحوال، ثم أحدث ثغرة هنا دون أن يراني أحد! عندها سوف يتدفق الماء هائلاً وعاتياً مثل شلالات عظيمة، فأفكّ بذلك هذا الحصار الذي يمسك بخناق جزيرتي من كل جانب.

هبت نسمة لافحة من الهواء الساخن فزادت من كآبة أفكاري، وشعرت بالحزن والانقباض في تحقيق ذلك الخاطر، وقلت لنفسي:

— إن خلف هذا المتراس أهلي وعشيرتي، خلفه أطفال فقراء وممتلكات بسيطة، لكنها هي كل شيء عندهم.

تطلعت الى بيوت الطين وهي لا تكاد تبين تحت وهج الشمس، لقد كانت مطلية بالجير الأبيض، أما وقد تقادم الطلاء، فقد صار لونها باهتاً لا يخبر بأي لون، قلت في أسى وأنا أحدّث النفس:

— لو انهد المتراس فلن يجد الناس الفرصة الكافية للنجاة بأنفسهم من تحت سقف هذه البيوت.

رجوت الله ألا يحدث هذا، وأن ينجيهم وينجيني، كنت سارحاً في أفكاري عندما سمعت صوت سعيد وهو يصيح لي:

— العوض! كيف الحال؟

— الحمد لله.

— هل رأيت مثل الترس في ارتفاعه وعلوّه؟!

ضحكت وقلت له مداعباً:

— إنه أعظم المتاريس.

قال برنة حزن وقد فارقه ذلك المرح:

— ليته ينقذنا!!

قلت له ناصحاً:

— إن مزيداً من التراب فوق هذا الترس لن يجدي، لذلك فإنني أقترح أن تملأوا بعض الأكياس بالرمل فتصفوها فوقه، هذه الأكياس سوف تزيد من ارتفاعه وتجعله ثابتاً.

ردّ علي بنبرة يائسة:

— لقد فعلنا كل ما نقدر عليه، وأعتقد أن النيل لن يزيد عن ذلك، تمنيت له وللجميع من معه السلامة ودعا هو من جانبه بسلامتي وسلامة الجزيرة ومن فيها، وأوصاني بأن أبلغ سلامه للأولاد، ثم ابتعدت متجهاً نحو الجزيرة.

بعد أيام قليلة بدأت مخاوفي تتحقق، فقد انهارت الأرض بما عليها من أكياس في مواضع متفرقة، وكانت كل مجموعة تسرع بإبلاغ المجموعات الأخرى بمكان الانهيار، فنسرع لمعالجة الوضع وسد الثغرة.

بجانب ذلك فقد ظهرت أمامنا مشكلة أخرى، فقد بدأت بعض الأعواد تختفي تحت الماء من جراء الزيادة المستمرة للنيل فاجتمعنا مرة أخرى تحت رأس الحربة في الضحى الرائق لنفكر في الأمر. وأخيراً استقر رأينا على إحضار المزيد من الأعواد، ونثبت كل عودين مع بعضهما فنزيد من طوله. كان معنى ذلك أن نعيد صفّ الأعواد والقصب من جديد، وهكذا بدأنا العمل فثبتنا كل عودين مع بعضهما وذلك بربطها بالحبال، ثم قمنا بعد ذلك بتثبيتها في القاع بنفس الطريقة السابقة،

وملأنا الفراغ ما بين الأعواد والجزيرة بحزم القصب ، ثم شددنا الأعواد بالحبال وربطناها على الأوتاد في الجزيرة ، ولأننا كنا قد قمنا بهذا العمل من قبل فقد أنجزنا هذه المهمة بسرعة فائقة وبطريقة أكثر قوة ونظاماً.

مرة أخرى اتجهت ببصري نحو البر الغربي ، عند ذلك المتراس الهائل وقلت في ذات نفسي :

— ماذا لو انهد المتراس هناك وانهار؟ لا أريد أن أكون أنا السبب ، ولن أتدخل ، ولن أتمنى ذلك ، فقط لو انهار هناك تماماً كما يحدث أن يموت أحدنا دون أن نكون سبباً في موته.

ومرة أخرى طردت من نفسي هذا الخاطر الذي أقلقني . وتمنيت لو انخفض النيل فأنقذنا جميعاً مما نحن فيه.

لم يقف النيل عند تلك الزيادة ، لقد زاد مرة أخرى زيادة لم تكن كبيرة ، لكنها كانت كافية لأن تثير فينا الفزع والهلع ، كنا نترقب انخفاضاً بين لحظة وأخرى ، فإذا به يزداد ، لقد بدأ لي مثل عدو شرس لا يرحم ولا يتراجع ، بل كان يجد في استفزازنا واللعب بأقدارنا ما يجعله منتشياً عملاقاً.

ونتيجة لتلك الزيادة فقد بدأ استهلاكنا للأكياس يزداد. ولأننا كنا نواجه مشكلة انهيار الأرض بما عليها من الأكياس في مواضع متفرقة في الجزيرة فقد ازداد استهلاكنا للأكياس التي كان ينقص عددها بسرعة مخيفة ، لقد أصبحنا في موقف حرج للغاية مرة أخرى ، وبدأ واضحاً أننا نحتاج الى مزيد من الأكياس ، ولكن لم يكن هناك أمامنا وقت لذلك ، وقد قدرت في نفسي أنه سوف تمر بنا قريباً الليلة الأخيرة ، وفي تلك الليلة يكشر النيل عن أنيابه الحقيقية ويصبح مثل وحش رهيب ، فإذا استطعنا في تلك الليلة أن نقهر النيل ، فسوف نتجاوز الخطر ، هذا ما يحدث في كل فيضان ، تمر بالناس هذه الليلة الرهيبة ، فإذ هم يقفون أمام ذلك

الفاصل الرهيب بين الموت والحياة بين النجاة أو الضياع ، وقلما تمر هذه الليلة بسلام .

النيل هائج في مكانه لا يزيد ولا ينقص ، إنه ساكن متربص في انتظار الليلة الفاصلة .

٨

نحن الآن في نهاية شهر أغسطس ، وقد أصبحت المياه تحيط بنا بطيئة وثقيلة ، وكأنها أحست بالتخمة والنعاس فراحت تتثاءب في ارتخاء ونشوة ، وقد كرهتها لدرجة أنني لا أصدق أنني سوف أحس بالظمأ في يوم ما ، فهي في كل مكان ، كثيرة ومنفرة وهائلة . أما نحن فقد صرنا في لون الطين من الإرهاق والحرارة . تنفجر الشمس كل يوم في السماء فتسد علينا الفضاء ، وتتوهج جميع الأشياء من حولي ، وتعكس المياه ضوءها الحارق الذي يخطف البصر فلا شيء سوى الشمس والمياه والاختناق ، وتلفت أبحث عن مكان أهرب فيه بجزيرتي وأهلي ، ولكن لم يكن هناك من سبيل للهرب ، وكان لا بد من أن نواجه التحدي ونصنع قدرنا في هذا العالم الرهيب .

أخبرت المجموعة من حولي بأننا في حاجة الى المزيد من الأكياس ، وبعد أن قلبنا الأمر من كل وجوهه . هدانا تفكيرنا أخيراً الى جمع كل ما لدينا من بطاطين وثياب قديمة ، وكل ما تقع عليه أيدينا من قماش ، وأن نصنع من هذه الأشياء أكياساً . طربنا لهذه الفكرة وأوكلنا تنفيذها للنساء فهنّ أقدر منا على تنفيذ تلك المهام . ومن جهة أخرى فقد اقترح عصام أن يقوم هو وتوفيق بجهد مماثل ، فيجمعا كل ما في الجزيرة والقلعة من أكياس ، وأن يفرغا ما بها من حبوب على أرض المخزن ثم يخيطا منها أكياساً صغيرة ، وهكذا توجهت المجموعتان الى القلعة لتنفيذ هذه المهمة وبقيت أنا وعادل في الجزيرة نراقب الوضع ونرصد كل حركة من حركات النيل المميتة أو الغادرة .

في المساء نجحت المحاولة ، فقد استطاعت مجموعة النساء أن تخيط أكثر من عشرين كيساً وكذلك توفيق وعصام وفقا في خياطة عشرين كيساً مماثلاً لما جمعته النساء ، وأعتقد أنهم كانوا يراقبون بعضهم بعضاً ، الأمر الذي دفعهم الى لون من المنافسة الشريفة ، والتي كانت حصيلتها أكثر من أربعين كيساً ، وسرعان ما قمنا بملئها بنفس الطريقة ثم حملناها الى الجزيرة بجانب ما بقي من أكياس ، فصار مجموع ما عندنا أكثر من سبعين كيساً ، يمكن أن تساعدنا في مواجهة الأخطار التي ربما تنجم في أي لحظة لقد كان تقديري صحيحاً ، فلولا هذه الأكياس التي جمعناها أخيراً لحدث ما لا يحمد عقباه كما سنرى.

كان النيل ساكناً ، ولكنه كان يزداد في بطء ، كنت أشعر بالامتعاض والانقباض من منظر هذه المياه التي أصبحت لا تطاق ، إنها موجودة في كل مكان ولها رائحة الدخان والغبار ، وتنفث من جوفها حرارة لاهبة وكأننا محاطون باللهب ، نظرت الى النيل الذي أصبح ضخماً ومنتفخاً وقلت في ذات نفسي :

ــ لو اشتدت الريح وهبت عاصفة فإن المياه سوف يصلنا رشاشها ونحن في الجزيرة ، أما إذا زاد فإن الأمر سيكون خطيراً جداً.

وفي البر الغربي كنت أشاهد النيل وقد استوت المياه مع حافة المتراس ، كان مثل وحش يداعب فريسته بالموت ، وإلا لماذا كل هذه الزيادة المستمرة يوماً بعد يوم وساعة بعد ساعة. كان الموقف هناك ينذر بخطر عظيم ويدعو للرثاء حقاً ، وكأن الناس قد عجزوا عن التحدي ولم يفكروا في أن يزيدوا من ارتفاع المتراس مقداراً يجعلهم في مأمن من المفاجأة ، لقد توكلوا على الله ، واقتنعوا بأن النيل لن يزيد أكثر مما زاد ، وذهب كل واحد منهم الى داره ونام ، وبقي بعض الشيوخ والنساء المسنات والعجزة والنسوة اللائي ودّعن أزواجهن الى سفر بعيد ، مجموعة من الخلق مهملة في ميزان الحياة ، ولكن لو قدرت آمالها لرجحت كفتها فأعجزت سر الحياة ، كانوا أمام الخوف عاجزين ، وكانوا أمام العمل قاصرين ، كانت قوتهم الحقيقية تكمن في

أن لهم قدرة خارقة في الإحساس بالخطر ولم يكن يشاركهم هذا الخوف وهذا الفرزع، سوى حركة الأغنام والحمير والطيور المفزوعة والتي أصبحت لها حركة متوثبة ومثيرة وهي تراقب جهدنا وكأنها تتمنى لنا التوفيق والنجاح.

أما القادرون فقد انتابتهم روح الغفلة، تلك التي تعمي الناس ساعة الخطر فيصيبهم القدر.

٩

في منتصف سبتمبر استبشر الناس خيراً ، ففي هذا الوقت يبدأ النيل بالانخفاض ، كان كل واحد يشعر بالخوف والقلق ، ولكن الناس دائماً يمنون أنفسهم بالأماني الطيبة والسعيدة ففيها عزاء وسلوى.

وجاءت ليلة السابع عشر من سبتمبر — الليلة الرهيبة ، كشّر النيل عن أنيابه ولم يكن مثل وحش رهيب فحسب ، بل كان وحشاً حقيقياً ، له أنياب بشعة ، أحسست بقلبي يخفق في وجيب شديد ، وإن ثقلاً ممضاً يجسم على صدري فأكاد أختنق ، فأسحب من صدري زفرة حرى ، ثم أجر نفساً عميقاً ببطء وعسر.

كثيراً ما تحدث الكوارث في الليل ، وكأنما الكارثة شخص له عين يتربص بالناس ، ويعرف أن الليل والظلام هما أنسب الأوقات ليضرب ضربته وهو مطمئن الى أن الضحية أو الخصم قد فقد القدرة على التحدي واستسلم للمصير المجهول . بعد مغيب الشمس بقليل بدأت تهب علينا رياح جنوبية شرقية وهي رياح حارة مما زاد من توتر أعصابنا وتبلدها ، لم تكن الرياح شديدة ولكنها كانت تنذر بخطر شديد إذا ما زاد النيل أي زيادة أخرى . وتحرك الموج مع تحرك الرياح ، وبدأت أسمع ارتطامه بالجزيرة من ناحية أطرافها الجنوبية على غير المعتاد لا بد أن النيل يدفع بزيادة ما ، ولاحظت أن السماء ملبدة بالغيوم ، فلا قمر ولا نجوم ، وأن موجة من الحرارة الخانقة تجثم علينا ، ولكن كانت تهب علينا بين فترة وأخرى نسمة من الهواء البارد ، مما ينبىء بهطول المطر وهذا ما لم يحدث عندنا أبداً ، ولو حدث وهطل المطر فإن التروس ستكون في خطر.

زحف الوقت بطيئاً وثقيلاً ، ولم يكن الليل كامل السواد أو واضح الضياء ، بل كان خليطاً من لون الماء والغبار والنجوم الغائمة خلف السحاب ، كان لوناً باهتاً وشاحباً تتراقص فيه الظلال والأشباح والأحزان.

كانت مجموعة النساء تجلس بجانب الكوخ ، وهن يوقدن ناراً باهتة الضياء ، تتراقص ألسنتها الشاحبة مع نسمات الهواء. كن يعددن لنا طعام العشاء ، اتجهت ببصري نحوهن ، ووقفت أتأمل هذا الجمع الحائر الذي يقبع في هذا الركن من العالم الضيق ، كنت أراقبهن وهن يزحفن على الأرض ، لإبعاد هذا أو تقريب ذاك ، وسقط ضوء النهار على وجوههن ، كاشفاً عيونهن والنور يرقص متأرجحاً فوق الرؤوس المبعثرة الشعر ، كانت رؤوسهن تتجه الى أسفل ولا يقلن شيئاً ، وفي دائرة الضوء كانت هناك حشرة تدور وتدور ثم تتلاشى مبتعدة في الظلام ، اقتربت من زينب وطلبت منها أن تسرع في إعداد الطعام الذي لا أريده ، إذاً لماذا الإسراع ؟ لا أدري ولكن لا بد من عمل شيء. ما.

ذهبت الى الناحية الجنوبية ، حيث أثارني ارتطام الموج ، فمن هذه الناحية يأتي النيل من أماكنه البعيدة مندفعاً بالزيادة التي لا نريدها ما أن ألقيت نظرة على الوضع هناك حتى اتجهت نحو أولادي وناديتهم جميعاً بصوت مسموع فأقبلوا نحوي مسرعين تأملوا معي الوضع فأدركوا المراد من مناداتي لهم ، لقد ارتفع النيل وزاد عن الحد الذي كان قد وصله ، وبدأ يقترب من حافة الأكياس في بعض المواضع ، وبدأ رشاش الماء يتناثر علينا ، وقد قرّ قرارنا على أن نصف مزيداً من الأكياس بعرض الجزيرة في المواضع المنخفضة ، فبدأنا صفها. وعندما فرغنا من هذه المهمة ، ألقيت نظرة ثانية بعثت الاطمئنان في قلبي ، لقد صار الارتفاع هنا مرتفعاً عن مستوى النيل بمقدار نصف متر تقريباً ، وهذا هو الحد الذي أصر عليه دائماً ، لأننا اعتدنا أن تكون الزيادة دائماً في مثل هذا القدر على أسوأ الأحوال. كنت سعيداً رغم أننا فقدنا أكثر من نصف رصيدنا من الأكياس.

أعد طعام العشاء ، ولكن حدثت بعض الحوادث الغريبة على طباع المجموعة

التي تعيش من حولي ، مثلاً ، زينب كانت على غير عادتها ، كئيبة منقبضة النفس ، وهي التي كانت صابرة ومتجلدة ودائمة الابتسام . أما جميلة فقد تعثرت أكثر من مرة ، وفي مرة من المرات سقطت على الأرض بعد أن انزلقت قدمها في أحد الجداول فلعنت وسبت وهي على ما هي عليه من أدب جم وحياء رفيع ، وسعاد أحرقت القرص على الصاج ، ثم أحرقت أطراف أصابعها فأقسمت ألا تقترب من النار والعمل أبداً .

أما في جانب الرجال ، فقد كان عادل وعصام صامتين طيلة الوقت ، أما عصام فقد قال لنا في فورة من فورات غضبه وسأمه أنه ذاهب الى القلعة ، وأعتقد أنه لعن الجزيرة ومن فيها في سرّه . لم أعر كلامه أي انتباه لأنه سرعان ما غير رأيه ومشى في حزن حول الجزيرة .

كان هذا هو الشعور العام عندما وضع العشاء ، وكان قلبي ما زال يخفق ، وشعرت بخوف جعل الرعدة تسري في جسدي ، وانني في حاجة الى التبول . ابتعدت عنهم كمن يريد قضاء حاجة وطلبت منهم أن يأكلوا .

وجاء دوري في اليأس مع اليائسين ، وقلت أحدث نفسي :

— لماذا كل هذا العناء والشقاء والتعب؟ خير لي أن أذهب أنا وأولادي وأهلي الى القلعة ، وليكن ما يكن ! !

شعور لم أشعر به في أي لحظة من لحظات حياتي تجاه الجزيرة ، شعور ينتابني والجزيرة تتعرض لمثل هذه المحنة وهي أحوج ما تكون للمساعدة والدفاع عنها ! لا بد من أن يكون هناك شعور أقوى من ذلك ، إنني أحس بوطأة حزن ثقيل يهبط على صدري ووجداني فيجعلني حزيناً بدون حزن ، ومريضاً بدون مرض ، إنه إحساس يفزعني في كل شيء ، حتى من حبي للجزيرة .

عندما كانت هذه الأفكار والخواطر تراود ذهني ، قادتني قدماي الى الجهة الشمالية وهناك شاهدت رأس الحربة ، وضريح الشيخ والساقية والأحواض

والجداول ، كانت هذه الأشياء لا تعقل ولا تتكلم ، كانت صامتة ، ولكن كان صمتها أبلغ من أي كلام سمعته من قبل ، كانت في وحدتها وصمتها تلح وترجو ألا أتخلى عنها . كانت كائنات حية ، ولكنها قاصرة وعاجزة وذلك ما يجعلها أدعى للمساعدة من أي كائن قادر . ألقيت نظرة على الساقية كانت بحلقاتها وأخشابها وحبالها وجرارها ، شيئاً له سحر خاص في النفس ، وضريح الشيخ بأعلامه الخفاقة ، وبدا لي كم هو شاق ومؤلم أن أتخلى عن الجزيرة .

كنت أسمع ارتطام الموج بالجزيرة ، وعادت الريح تشتد . كان واضحاً أن النيل يدفع بزيادة ما . كانت المياه في اندفاعها مع التيار السريع تلتفّ حول قرن الجزيرة من الناحية الشمالية فتحدث دوامات لها دوي وصرير ثم تواصل اندفاعها لتفسح المكان لدوامة أخرى .

كانت الأعواد تهتز ، والحبال تشتدّ وترتخي . كان الأمر يزداد سوءاً ما بين لحظة وأخرى ، وكان يزيد من سوئه ذلك الظلام الذي لفّ الكون كله من حولنا فلا ماء ولا نجوم ولا غبار ، لا شيء سوى الظلام والظلام ، وفجأة هدأ كل شيء ، ولكن كانت الطيور تحلق مذعورة فوقنا وهي تسرع في اتجاه الشمال . ومن جهة أخرى كان ثورنا يضرب الأرض بقدميه ثم يهز رأسه وهو يرسل شخيراً من بين منخريه . وحماري كان يقف متوثباً وقد أرهف أذنيه وهو يدفع بأحديهما للأمام ، والأخرى للخلف . كان كمن يحس بأن هناك خطراً ما يتربّص بنا وهو على وشك أن ينقضّ عليه .

جمد الهواء لحظة ، ورأيت رأس الحربة في الظلام ساكنة بلا حراك مثل أطلال مهجورة ، وضريح الشيخ صامت حتى الأعلام ساكنة لا تخفق ولا تتحرك ، وما هي إلا لحظات حتى أفقت على صوت انهيار هائل يأتي من ناحية الساقية التي كنت أقف قريباً منها .

كان خطأ منذ البداية أن تظل الساقية في مكانها ، كان يجب فكها وترحيلها الى داخل الجزيرة ، ولكن هذا ليس وقت المحاسبة ومراجعة الأخطاء ، وقد حدث ما حدث . إن البئر وهي التي حفرت على جانب النهر ملتصقة بالجزيرة التي تمتلىء منها

الجرار بالماء قد اتسعت من قوة الموج والتيار دون أن نلاحظ ذلك ، وأحدثت فجوة وعندما عمقت هذه الفجوة انهار الجزء الأعلى الذي تقف عليه الساقية ، وانهار أيضاً المتراس في تلك الجهة بما عليه من أكياس.

لم يكن الأمر بحاجة الى النجدة أو طلب الاستغاثة ، فقد سمع الجميع صوت الانهيار فأقبلوا مسرعين في موجة من الهلع والخوف.

أخذ الماء من تلك الفجوة التي قدرت عرضها بنحو أمتار ، لم يكن يدفق الماء شديداً لأن مخلفات الساقية من أخشاب وحبال وغير ذلك حدّ من اندفاعها. لكن بالرغم من ذلك فإن الموقف خطير جداً. إن أي ربكة — وكثيراً ما يحدث الإرتباك في مثل هذه المواقف الفاصلة — سوف يجرنا الى الضياع الذي نعمل جاهدين لدرئه وصدّه ، لذلك فقد طلبت منهم الهدوء وناديت توفيقاً ليقف بجانبي عند تلك الفتحة ، وطلبت من المجموعة أن تمدنا بأكياس الرمل بسرعة ، وحتى لا يكون العمل ضرباً من الفوضى وعدم النظام فقد أمرتهم بأن لا يضع أي واحد منهم كيس الرمل بنفسه ، بل يسلمه لي أو لتوفيق وصحت بهم :

— عادل وسعاد يعملان معي ، عصام وجميلة يعملان مع توفيق ، أما زينب فعليها أن تقف بعيداً... هيا أسرعوا.

بدأت الأكياس تتدفق علينا بسرعة وانتظام وقد عرف كل واحد منا دوره ، والمسئولية التي أنيطت به. وكان كل واحد منا يقدر المسئولية حق قدرها.

قلت لتوفيق وهو يقف بجانبي متوثباً للعمل :

— عندما تضع الكيس ، ضعه في مكان ثابت ومرتفع ، ثم أضغط عليه بيدك حتى يستقرّ.

ثم أومأ في حزم وتصميم وصمت.

كنا نلتقط الأكياس وهي تأتينا تباعاً ، وهكذا في وسط الظلام والخوف والهلع ،

انتظم العمل ، وقد ران على الجميع الصمت الرهيب ، فلا شيء سوى وقع أقدامهم وتلاحق أنفاسهم ورويداً رويداً بدأنا نسيطر على تلك الثغرة ، وبدأت أكياس الرمل ترتفع لتستوي مع بقية « المتراس » ، وكأنما كانت الأكياس محسوبة بدقة لتقوم بهذه المهمة الأخيرة. كنت أنا وتوفيق نقوم بهذه المهمة من الجانب الخارجي للجزيرة ، حتى نتأكد من أن الأكياس توضع على أرض صلبة وقوية ، كان الإرهاق قد بلغ بنا أشدّه ، ولكننا كنا قد نجحنا في السيطرة على تلك الثغرة التي كلفتنا آخر ما نملك من أكياس. أكياس صنعناها من غطائنا وثيابنا وكل ما نملك. أكياس خاطتها زينب وجميلة وسعاد.

وقفز الى ذهني سؤال كنت أتجنبه ، ولكنه كان يلحّ علي :

— ماذا لو حدث حادث آخر كهذا؟

سؤال لا شك انه قد راود كل منا ، ولكن كل واحد منا يتجاهله ، ويخاف من طرحه على نفسه ، حتى أنا.

استندت بيدي على حافة المتراس كي أقفز داخل الجزيرة دون أن أحدث خللاً بالمتراس. اقترب مني توفيق وساعدني كي أقفز داخل الجزيرة ، وعلى مهل اعتمدت على كتفه بيد وعلى المتراس بيد أخرى ، قفزت الى داخل الجزيرة بصمت حيث لجج الطين ، ومستنقعات المياه التي أحدثها ذلك التدفق الأخير.

بقي توفيق خلفي ، وراح يذهب شمالاً ويميناً في محاولة لإيجاد مكان مناسب يقفز منه الى داخل الجزيرة ، كانت المجموعة قد ابتعدت ، واتخذت مكاناً مناسباً بجانب الكوخ وهم في فرح وسعادة بعد أن نجحنا في سد الثغرة ، ولكن عصاماً اقترب مني ليلقي نظرة ثانية للمتراس ، ليتحقق من ثمرة جهده وجهدنا ، وهي نظرة لا بد منها حيثما كان هناك عمل فذّ ، كان يلفّ ثوبه حول وسطه ، بينما كان الطين عالقاً بقدميه حتى الركبتين. كنت على وشك أن أنضو ثيابي المبتلة عن جسدي لأنشفها عندما طرقت أذني صيحة أتت من ناحية النهر لقد كان توفيق الذي صاح :

— عم العوض.. عم العوض... عم الـ...

التفت الى النهر، كان توفيق قد اختفى، ثم برز مرة أخرى، رأيت وجهه في الظلام، أضاء لحظة وهو يصيح مستنجداً:

— عم العوض... عم...

ثم اختفى مرة أخرى في الأعماق.

ومرة أخرى رأيت وجهه في الظلام، وكأنه يرثي نفسه، إنه ليس وجه توفيق الذي عرفته، إنه وجه الموت، بكل ما يحمله للانسان من رعب وهول، توفيق كان معنا قبل لحظات قليلة، ساكناً، هادئاً وصابراً، يقوم بكل ما يوكل اليه بهمة ونشاط، توفيق كان معنا قبل ثوان قليلة، يقف بجانبي ويساعدني كي أقفز فوق المتراس، ولكن أين هو الآن؟ إنه يصارع الموت غرقاً.

وفي لمح البصر قفز نحوه عصام، فأمسك بيد توفيق، وكان قد برز للمرة الأخيرة، وكأن يداً جبارة لا تعرف الرحمة تلك التي أحكمت قبضتها على يد عصام، وكأنما عصام أحسّ بهول المصير فصاح في بأس الضائعين:

— أبي... أبي...

ثم اختفى الاثنان في الماء والظلام، ولم أشاهدهما مرة ثانية.

أقبل الجميع حولنا مهرولين، وقد شعروا بأن شيئاً ما يدور هناك بجانب الساقية شيئاً لم يسمعوه أو يعرفوه، ولكن قوى خفية حدثتهم به، فصاحوا في هلع وخوف:

— ماذا حدث؟

— أين توفيق؟

— أين عصام؟

قلت لهم في مرارة ويأس:

— إنهم هناك... يدوران حول الأعواد.

وصدقت نفسي.

كنت أعرف الحقيقة المرة، فالغريق يمسك بمن يأتي لإنقاذه ولن يتركه أبداً حتى يغرق معه، هل هي قوة الحياة؟ أم قوة الموت؟

كنت لا أدري ماذا أفعل؟ كنت أتصنع صبراً لا سبيل الى تحمله. كانت المجموعة تقف جامدة كأنهم شخوص قد تحجرت في وحشة الليل، كانوا غير مصدقين، كانت نظراتهم تدور في أسى وجمود، وقد ران على الجميع صمت ثقيل، فلم أكن أسمع سوى زفرات حرى تنبعث من قلوب مكلومة، ونظرت الى زينب. كانت عيناها تبدوان وكأنهما تتطلعان من بئر من الرعب، كانت متهالكة راعشة، تتحامل على نفسها مستندة الى عادل، ولدى رؤيتي لها هي وعادل، تفجّر الألم في نفسي، لوعةً وحزناً، فارتميت على الأرض أنوح وأبكي، وكأنما بكائي أثار في نفوسهم الحزن المجمد المجرد من عذاب الشك، لقد أصبح الشك حقيقة فليبكوا كما يشاؤون، وليتوخوا كما يشاؤون، وهكذا ارتموا جميعاً عليّ، والتصقوا بي وكأنما أنا من يدفع عنهم الألم.

ومن خلال دموعي، تطلعت نحو المكان الذي غرق فيه ولداي، فرأيت أمواج النهر لا تزال تتغامز وتتعانق فرحة مستبشرة وكأنها لم تغب في أحشائها شابين في ميعة الصبا، كانا قبل لحظات لهما ما للحياة من آمال ومن رغبات.

لم أحس بالطين الذي ارتمينا عليه، ووجدت زينب وجميلة وسعاد فيه ما يخفف عذابهن وهن يمسحن به وجوههن.

وفجأة اشتدت الريح، وبرق البرق، ورعد الرعد، وانهمر المطر وكأنما انشقت السماء عن عيون من المياه الغزيرة، وما هي إلا لحظات حتى سمعنا عويلاً شقّ صمت الليل، لقد كانت مناحة تقطع نياط القلوب تأتي من البر الغربي، لقد انهار المتراس هناك، ذاب في لحظات، وتدفقت المياه بعنف وقوة وهي تحدث دوياً رهيباً

لتصنع بحيرة هائلة على أنقاض المئات من بيوت الطين. كنت لا أرى سوى الغبار والمطر ولوناً باهتاً يختلط بظلال الليل لتصنع سحائب داكنة وشاحبة، وفي وسط ذلك كله كانت حبات المطر تلمع مع ضوء البرق فتضيء المكان والزمان لحظة.

بدأت المياه تنحسر عن الجزيرة، وكأنما هناك غول رهيب، أو وحش خرافي يقوم بشربه في جرعات هائلة، كانت المياه تنحسر في سرعة هائلة، شبراً شبراً، ومتراً متراً حتى ابتعدت عن الجزيرة تماماً فظهرت الجزيرة كاملة كسابق عهدها سوداء تلمع المياه في بعض أجزائها ونسي الجميع حزنهم وراحوا ينظرون الى ما يحدث أمامهم غير مصدقين، وكنا على وشك أن نفرح لولا الكارثة التي حلت بنا.

هذا هو النيل، لقد نال ما يريد، وهو الآن يتركنا سعيداً مرتاحاً.

١٠

أخيراً عطف علينا النيل ، وتركنا نتفرغ لجمع موتانا .

كيف غرق توفيق ؟

لقد كان في محاولته ليقفز الى الجزيرة ، اذ التف حبل من حبال الساقية حول قدميه وأغلب الظن أنه أراد أن يخلص قدميه من ذلك الحبل ، وعندما جذب احدى قدميه أهتزت الأخشاب التي كانت تمسك بالحبال . فجذبته نحوها وهي تغوص به نحو البئر العميقة كانت كما أظن ، مثل أخطبوط رهيب ، يلتف حوله كلما اراد أن يجد لنفسه خلاصاً ، فتحكم وثاقها حوله وتجذبه نحو الأعماق . كانت أخشاب الساقية قد استقرت في القاع تحت كوم من الطين والأكياس فكان يدور تحت الماء وهو لا يعرف أنه يدور حول الحبل ، وأخيراً استقر في أعماق البئر وقد أمسك بعصام ، لا قيمة لذلك العناق بينهما ، فليس هو عناق حب ، وذلك أن الحب والموت لا يتعانقان عناق حب .

لقد رسا على الجزيرة مركب ما ، ونزل منها بعض الناس الذين لا أعرفهم ، ولم يسبق لي أن عرفتهم من قبل ، كثيراً ما يأتي مثل هؤلاء الناس وكأنهم على موعد مع الموت ، ان لديهم أحساساً عارماً وقوياً بالمأساة ، كيف عرفوا أن توفيقاً وعصاماً قد غرقا؟ هل حملت الريح النبأ؟ أم صاحت به أصوات مجهولة ؟ أم غنت به الجن ؟ لا أحد يدري .

كنا في حزننا لا ندري ماذا نصنع ، فقام هؤلاء الناس بكل شيء ، سحبوا

الجثتين من القاع ، وعندما سألوني عن مكان الدفن ، أشرت عليهم بمكان مرتفع يبعد بنحو كيلومتر جنوب شرقي الجزيرة .

لقد بكينا ، ونحن نعرف أن البكاء لن يجدي ، وحزنا حزناً لا سبيل الى وصفه ، كنت قبل موت توفيق وعصام ، لا أجد في الموت شيئاً محزناً أو مؤلماً وقاسياً كل هذا الحزن والألم والقسوة كانوا يقولون لي :

— إن فلاناً قد توفي .

فأستعد للذهاب الى العزاء وأنا منهمك في تلك الأشياء الصغيرة ، الثوب المناسب ، والحمار والسرج والفروة واللجام ، كنت وأنا في طريقي للمأتم أسأل زينب أن كانت تريد شيئاً من البر الغربي ، وهكذا أمضي مثلما أمضى الى حادث من الحوادث العادية ، أما الآن فقد عرفت الموت على حقيقته .

لأول مرة يقترب مني الموت هذا الاقتراب ، ويكشف لي عن وجهه الحقيقي ، انه الآن يأخذ مني فلذة كبدي ، ورفيق عمري ، كنت من فرط حزني أنتظر أن يحدث شيء ما ، شيء يغير من مسار الحياة ، ونواميس الكون ويعلن للدنيا أن لدي ولدين عزيزين قد ماتا ، ولن يعودا أبداً ، ولكن هذا الشيء لم يحدث ، وظننت أنه ربما يكون هناك خطأ ما ، ولكن ليس هناك ثمة خطأ ، كل ما في الأمر ، أنه برغم قسوة الموت ، فأنه لا يعلن عن نفسه ، أنه يأتي ويمضي كما تأتي الأشياء من حولي وتمضي .

وهناك في تلك الربوة العالية ، شيدنا أول قبرين لأول ميتين ، ووضعنا على كل منهما شاهدين ، وأنا عائد إلى القلعة تطلعت الى هذه الجبانة الجديدة التي أنشئت حديثاً وفهمت من ذلك ، أنه حيثما يعيش الانسان ، فلا بد من أن تكون هناك جبانة قريبة منه ، أنها شيء لازم للحياة .

١١

مساكين أهلي والناس هناك في البر الغربي ، كانوا يعرفون أن الخطر يتهددهم ، وأن الكارثة قد تحل بهم في أي لحظة ، ولكن واحداً منهم لم يفكر في أن يحتاط للأمر كانوا يركنون الى المصير المجهول ، حيث تدفع بهم الأقدار حيث تشاء ، لون من الاستسلام لا مثيل له ، كل واحد بقي في منزله ، التاجر ظل في متجره بكامل بضاعته ، حتى النقود والعقود والمستندات ، ابراهيم الذي ورث عن والده صناعة نجر السواقي المراكب ، ظل في مكانه في غابة السنط بكامل معداته وأدواته ، وسعيد شد مركبه قريباً من المتراس ، وهكذا عندما أنهار المتراس ، واكتسح النيل القرية ، كنت تسمع كل واحد منهم وهو يردد في حسرة وندم :

أنني لم أخرج الا بهذه الثياب التي على جسدي .

ذاب المتراس في لحظة ، فالزيادة القليلة التي حدثت في ذلك المساء ، وارتفاع الموج واشتداد الريح وأخيراً المطر ، كل هذه العوامل ساعدت في انهيار المتراس رغم المحاولات اليائسة لصده ، لقد ارتفع الموج وازدادت سرعة التيار فصارت المياه تتدفق من فوق المتراس بطوله وعرضه ، لهذا فقد أضطرب الناس الذين كانوا يراقبون الوضع ، وعندما هطل المطر لم يعد الناس يعرفون ما يفعلون ، فقد استحالت الدنيا كلها وكأنها تغرق في الماء ، تدفقت المياه في البداية من ثغرة صغيرة ، وعندما حاول البعض أن يتداركوا الأمر ، تسببوا في اتساع الثغرة ، فتسارعت المياه نحو الثغرة لتفجر كبتها ، وما هي الا لحظات حتى غرقت القرية كلها ، وصارت المنازل أكواماً من الطين ، ترتفع وسط المياه كجثث نفقت ، ولم يبق سالماً سوى مئذنة المسجد لأنها

كانت مبنية من الطوب الأحمر والاسمنت ومنزل شيخ ادريس لأنه كان مرتفعاً عن مستوى الأرض حتى أن الناس كانوا يطلقون عليه اسم (القصر العالي) تجاوزا.

كانت السرر والحصر «والصاج» والأواني والأغنام تطفوا فوق المياه التي أصبحت شبه راكدة، وقد انهارت بعض المنازل على من فيها من الناس، فمات خلق كثير، حتى أنه لم يسلم بيت من غريق أو ميت تحت الأنقاض.

تشتت الناس في العراء، كان كل واحد يريد أن ينجو بنفسه، وعندما نجا راح يبحث عن أعز ما لديه، الأم تبحث عن أبنائها، والأب يبحث عن زوجته وأولاده، والأخت عن أخيها جمع من الحيارى اليائسين استقروا أخيراً في المكان الذي كانوا يعرفونه من قبل، ولكن لم يفكروا في أن يلجؤوا اليه، الا عندما ضطردتهم الظروف على ذلك هناك بعيداً في العراء حيث ترتفع الأرض في شكل ربوة عالية تمتد بطول القرية وتمتد غرباً الى ما لا نهاية.

هناك جلس الرجال القرفصاء، وراحوا ينظرون الى المياه التي استقرت على منازلهم وحقولهم وبساتينهم، وقد أصبحت راكدة، كانوا يلوذون بالصمت، وأحياناً يتحدثون بصوت خفيض، وكأنهم في مناجاة خاصة، لو أننا بذلنا جهداً أكبر، لو أننا زدنا من ارتفاع المتراس لما حدث ما حدث، لو أن الأيام رجعت الى الوراء قليلاً، يوماً أو يومين لنتدبر أمرنا. ولكن الأيام لن تعود، وما حدث كان يجب أن يحدث، انه شيء مقدر لنا منذ الأزل، وما حدث قد حدث، لأنه لو لم يحدث لما كان هناك هذه الحياة التي نعرفها بأفراحها وأحزانها هكذا راحوا يحدثون بعضهم بعضاً أو يحدثون أنفسهم وهم يحفرون بعصيهم حفراً بقدر ما تسمح به صلابة الأرض. كانت وجوههم التي حرقتها الشمس وأضناها الحزن قاتمة، لكن عيونهم كانت براقة ونيرة. أما النساء فكن غير بعيد يراقبن الرجال خلسة، وهن يعرفن أن التمسك بالصمت هو ما يريده رجالهن في مثل هذه الظروف، والأطفال في اسمالهم البالية وهم حفاة عراة، يرفعون قدماً ويركزونها على الأرض هنيهة ريثما تبرد قليلاً من لذعة الأرض الحامية، ثم يستبدلونها بالاخرى، أطفال نهش الرمد عيونهم فهي حمراء متورمة.

وبما أن محلة الرقيق المعتوقين شمال القرية قد اكتسحها النيل أيضاً ، فقد حدث اندماج بينهم وبين أهل القرية ، لقد جمعهم هذا المصاب ، وقد أرجع بعض شيوخ القرية سبب هذا البلاء اليهم ، لأنهم يمارسون ما حرم الله ، أما الشباب فقد رفعوا راية المساواة بين الجميع فجميع المسلمين أخوة.

وفجأة أضحت الشمس ملتهبة ، ولم يكن هناك ثمة ظل يستظل فيه الناس ، ولم يكونوا في حاجة الى الظل لأنهم لن يستقروا في مكان ما ، وآن لهم أن يستقروا وهم على ما هم فيه من عناء وكرب وضياع ، لقد أضفت تلك الحرارة على المأساة بعداً رابعاً ، فقد استشعرنا بها على وجوهنا ونحن نتطلع نحو الشرق — مطلع الشمس — حيث ترقد الممتلكات وسط المياه ، فكنت ترى كل واحد وهو يظلل وجهه براحة يده ، لكن هذا لم يمنع أشعة الشمس من أن تضرب على وجوهنا ، وأن نحس بالعرق ينبجس من مسام أجسادنا ، جافاً كالملح ، كان وهج الشمس يخلع على تلك الوجوه التي أمضها الألم والحزن سواداً وشحوباً يابساً يجعل منهم كائنات غير آدمية ، وبجانب ذلك فأن الأرض المحرقة وقد غمرتها المياه ، صارت تنفث من جوفها حرارة لافحة فتزيد الجو انقباضاً. كل شيء صار كريها في ذلك اليوم ، الناس والنيل والشمس.. الأشياء والهواء ، لا شيء سوى رائحة الموت. وكانت هناك رائحة أخرى ، تنفرد بطعم خاص انها رائحة الهزيمة.

لقد أحس الرجال بأنهم هزموا وقهروا ، ولم يحسنوا الدفاع عن نسائهم وأولادهم وممتلكاتهم فكان الخجل يدفعهم لأن يكونوا صامتين ، كانوا في ثيابهم الممزقة والملطخة بالطين ، مثل جيش مني بالهزيمة ، لقد كانوا مضرب المثل في الشجاعة والفداء حتى أن البنات كن يغنين لهم :

عجبوني الليله جوا... ترسوا البحر صددوه

أما اليوم فهم في وضع مزري لا يحسدون عليه.

كانت أياماً عصيبة ، وأصبح من الأشياء المألوفة والتي تدعوا للفرح أن يعثر أهل الميت أو الغريق على ميتهم ، كان الناس يصطفون على امتداد المياه المنتشرة في كل

مكان ليلاً ونهاراً في أنتظار الأخبار عن ذويهم . كان سعيد أكثر من يعمل . لقد ظل في مركبه ومعه الغطاسون والنشالون . فما أن يتم انتشال جثة ويتعرفون عليها حتى يحملوا النبأ الى أهله في رنة من الغبطة والسعادة ، سريعاً ما تقبل الناس واقعهم ، وأصبحت الأحداث من الأثارة والروعة ما تجعلهم غير عابئين بالحزن والألم قدر انشغالهم بهموم بعضهم ، فكان في ذلك عزاء وسلوى .

وكان مما أثارهم غرق توفيق وعصام ، فكما ذهبت أنا أستجلي الخبر وأعرف عدد الضحايا ، حضر بعضهم عندي ، وقد أصابت الكارثة من جملة ما أصابت ، أخواني وأهلي ، وقد طلبوا مني ، وأنا على ما فيه من حزن ولوعة أن يلجؤا عندي كما لجأ الكثير من أهل القرية الى ذويهم ومعارفهم في القرى المجاورة ، وقد رحبت بهم كثيراً لأنه لم يكن عندي أي خيار في ذلك .

تركنا بيوت القلعة للنساء والأطفال ، أما الرجال من شيب وشباب فقد استقروا في الجزيرة ، حيث يقضون سحابة نهارهم ما بين الكوخ وظل رأس الحربة ، أما في المساء ، فأنهم يجدون في الجزيرة متسعاً لهم ، وكان كل واحد منهم يختار مكانه حيث يشاء .

لم يكن باستطاعتي أن أوفر لهم الفرش الوثير ، لكنني وفرت لهم الأكل وهو وفير والحمد لله ، لدينا القمح واللحم واللبن والفول والدجاج والبيض والتمر والسكر والشاي والدهن ، كانت شقيقاتي ونساء اخواني هن من تولين أمر ادارة الأمر بالقلعة حيث زينب وجميلة وسعاد كن عاجزات عن عمل أي شيء من فرط حزنهن وألمهن .

وقد أخترنا يوم الجمعة . وكان اليوم الخامس لوفاة توفيق وعصام ، ليكون يوم طي فراش الحزن على الفقيدين ، وبذلك يكون هذا اليوم هو يوم الصدقة ، وفيه ذبحت عجلين وأربعة خراف ترحماً وتصدقاً ، وقد قصدت من ذلك أن أتصدق باللحم والخبز على أكبر عدد من الناس المشتتين في العراء بالبر الغربي ، وقد أخبرت سعيد بأن يدعوهم عندي ففعل . وهكذا تقاطر الناس على الجزيرة منذ الصباح ،

وكانوا يقرأون معي الفاتحة معزين ومواسين ، وبعد أن يجلسوا ويشربوا القهوة ، ينتقلون الى الشق الثاني من المسألة ، فيهنئونني بسلامة الجزيرة ، وهم بذلك يجدون المقابلة الحكيمة لارادة الله بين الحزن والفرح ، رويداً رويداً ينطلقون في الحديث ، فيستعرضون الوضع من جديد ، ويعيدون ما سبق أن رددوه عشرات المرات . لو أننا جمعنا قدراً من المال واشترينا أكياساً ملأناها بالرمل كما فعل الشيخ العوض ، لو أن المطر لم يهطل ، لولا الامواج والرياح والظلام ، لو... ولو... ولو... ويلتقط حسين سعد الله حجراً صغيراً فيصيب به رأس عبيط القرية الولي ، ولما كان الولي خصماً لدوداً للأبله الأكول جرمه فان عراكاً مضحكاً ومسلياً يقوم بينهما ، وهو عراك بالألفاظ ، وبعض المشاغبين من الناس من حولهم يزيدون من عراكهم فيصيحون : أنت يا جرمه على حق.. أنت يا الولي على حق.. لقد أخطأت يا جرمة ، ويدخل جرمة في عراك مع الناس من حوله ، وينسى الناس ما هم فيه من هم وكرب ، ويدخل جرمة في عراك مع الناس من حوله ، وينسى الناس ما هم فيه من هم وكرب ، فيندمجون في هذا السمر .

وحضر أتباع الشيخ ، ووزعوا فيما بينهم أجزاء القرآن الثلاثين لتقرأ جميعاً ، وعندما حانت صلاة الجمعة ، أضطرب الناس ، ولكن الشيخ عبد الرحمن أمام المسجد ، أفتى لهم بجواز الصلاة في العراء ما دام لا يوجد مسجد ، فالدين يسر ولا شيء يمنع من آداء الفريضة .

بعد الصلاة تغدينا ، وقرأ الشيخ عبد الرحمن مطلع سورة البقرة ، وأكمل هو وأتباع الشيخ النصف الأخير من جزء عم ، والذي يبدأ بسورة أقرأ وينتهي بسورة الفاتحة ، وبذلك ختمنا على الثلاثين جزءاً من القرآن ، وبعد الختمة قرأنا الفاتحة جميعاً للمرة الأخيرة ، وترحمنا على الفقيدين .

واستعد الناس للانصراف ، وقد أمضوا يوماً من أيام حياتهم ، وهو يوم يعتبر بهيجاً بمقياس ما هم فيه من حياة رتيبة ، فالجميع هنا يرغبون في حياة جديدة ، أو على الأقل تفرحهم وتعطيهم وجوداً طافحاً بالضجيج والاغراءات المتعددة التي تعطى وهم اللذات .

كان اخواني يذهبون كل صباح الى البر الغربي ليلتقوا مع غيرهم من المصابين، فيتفاكرون فيما يمكن عمله، وقد بدأ الجميع يفكرون في مكان شيدون فيه مدينتهم الجديدة. وقد استبعدوا المكان القديم ولكن كان السؤال:

— أين يمكن أن تقوم قريتنا الجديدة؟

نفس السؤال الذي كنت قد طرحته على نفسي بعد حادث ذلك الحريق الذي أتى على كوخي يوماً بالجزيرة وقد مر ذكره.

بعد نقاش دام بضعة أيام، وهو نقاش مفيد من بعض جوانبه، لأنه يفسح المجال لاحساسات جديدة تحد من وقع المصاب الذي أصابهم، اتفقوا على بناء القرية الجديدة في البر الشرقي المقابل للقرية، وكان من حمل لواء هذه الفكرة أخواني بعد أن رأوا البر الشرقي وشاهدوا القلعة وعرفوا ما لهذا الموضع من أهمية كبيرة لقربة وأرتفاعه الشاهق عن الشاطىء، وكان الهدف من ذلك أن تكون القرية مكاناً للزراعة فقط.

وبعد أن قر رأيهم على ذلك أخبروا العمدة الذي حضر وأتصل بي ليأخذ رأيي، وكأنما صار البر الشرقي أحد ممتلكاتي مثل الجزيرة، ولكن ما ينطبق على الجزيرة لا ينطبق على البر الشرقي لأسباب واضحة.

قلت له:

— ان ما يسعدني أن أرى أهلي وعشيرتي هنا بالقرب مني.

— هذا صحيح، ولكن لا بد أن تقوم القرية الجديدة على بعد مسافة معقولة من ديارك.

— كما تعلم يا حضرة العمدة ان الأرض هنا واسعة.

— ولكن يجب أن تكون لك حدود مرعية، لأن الزمن غير مأمون.

وعليه فقد أمر بضرب أوتاد وغرسها في الأرض في أماكن معينة، وحدد لي حدوداً جعلها حرما لي، وقد عرفها الجميع، وما هي الا أيام قليلة حتى وزعت

الأرض على الناس ، وقد تساوى في هذا الحق جميع الناس بما فيهم الرقيق ، وعرف كل واحد موقع قطعته السكنية ، وقد راعوا في هذه المرة أن تكون القرية منتظمة وجميلة ، ولها شوارع وميادين تماماً كما يحدث في المدن وقد استبشر الناس خيراً ، وأشاعوا بأن زمناً جديداً سوف يأتي ، وبأن النور الكهربائي وأنابيب المياه سوف تمتد في القرية ، وهكذا فكل من عرف قطعة أرضه أنشغل فوراً في بنائها بما في ذلك أهلي وأخواني ، والبعض منهم صنع أكواخاً من الخشب والقصب حتى تتيسر الحال ، والبعض بنى بالطين والبعض بنى بالطوب الاحمر ، كل حسب أحواله من يسر وعسر.

التقيت من جديد بسعد الله وأخيه مبروك ، انهما الآن قد صارا طاعنين في السن ، كان لا يستر جسديهما النحيلين سوى سراويل متسخة وشاحبة كلون بشرتهما الداكنة السوداء ، ولكنهما كانا فخورين بما رزقهما الله من أبناء ، صحيح أن حسين ولد سعد الله يعمل في القرية أعمالاً متنوعة ، وهو لا يثير أنتباه أحد ، ولكن أخيه آدم ، وخميس ولد مبروك يشقان طريقهما بنجاح وهما الآن بالمرحلة الثانوية جنباً الى جنب مع هاشم سعيد وكمال علي عنبر.

قال سعد الله بحرج :

— لقد حضرت كل العهود ، من التركية السابقة والمهدية والانجليز والحال هي الحال ، فقر وحاجة .

تدخل مبروك وقال في حزم :

— أيام زمان لا مثيل لها ، كان للمليم قيمة كبيرة .

ضحك سعد الله وقال :

— لكن المليم لم يكن موجوداً ، أنه أصعب من ريال اليوم .

وأخيراً علق مبروك قائلاً :

— أيام زمان كنا نبني الطبقة عريضة ومتينة ، ولكن أين ذلك مما يصنعه (صناعية) هذا الزمان ، أنهم يبنون الطبقة رهيفة وقصيرة وبطيئة لم تخمر تخميراً جيداً كما ينبغي ، ومع ذلك فهم يأخذون أجراً مضاعفاً .

جر نفساً عميقاً ثم قال وهو شبه حالم :

— يا سلام على أيام زمان .

بعد شهور قليلة أكتمل البناء في البر الشرقي ، وصار اسم القرية (قرية القلعة) واستقر الناس هناك ، وأصبح الشاطىء يكتظ بعدد كبير من المراكب الشراعية والقوارب .

ولم تمض أيام حتى انتشرت المضخات على امتداد الشاطىء الغربي ، وصار يسمع صوتها ودويها في القلعة والجزيرة ، وحمد الناس الله الذي سلط عليهم الفيضان ليرحلوا الى البر الشرقي ويوسعوا رقعة الأرض الزراعية هنالك ، وقد راجت زراعة البرسيم في تلك الأيام ، وأصبح يدر دخلاً كبيراً ، لأن حزمة البرسيم والتي في حجم حزمة الملوخية — كما علق سعيد ذات مرة — صار ثمنها قرشاً .

عرفت الحياة الحديثة طريقها اليهم ، فالمدرسة يتبعها ناظر ومدرسون وفراشون وعمال ، ومكتب البريد يتبعه وكيل وموظفون وعمال ، والمحكمة الشرعية يتبعها قاضي وعمال قضاء ، ونقطة الشرطة يوجد بها أدارة للأمن ، به هاتف يعمل لربط القرية بالمديرية .

جلب كل ذلك اتساعاً في العمل ، فظهرت المحفات لنقل الناس وما يحملونه من بضائع الى المديرية ، فكانت تسير محاذية للشاطىء الشرقي وعندما تصل الى المديرية لا يجد الناس مشقة ما . فاما يقضون مهامهم بالمدينة المقابلة للمديرية بالبر الشرقي وهي مدينة عامرة ، وأما يركبون «المعدية» التي تعمل لنقل الناس على رأس كل ساعة الى المديرية ، وفي أيام العطلات المدرسية ، يحضر الطلبة من جامعاتهم ومدارسهم ، فتنشط الحياة ، ويسير الآباء بجانب أبنائهم فخورين فرحين متهللين ،

وهم يخترقون السوق ، حيث يختار كل أب مكانه عند أحد التجار فيجلس ليشرب الشاي ومعه ابنه ، وفي المساء ينشط نادي الموظفين بعد أن كان مقتصراً على عدد قليل من الموظفين ، وهذا الازدحام يتبعه احتكاك بين الطلبة الوافدين وبين الموظفين أصحاب الحق في ناديهم ، لأنهم يحجزون الكراسي والطاولات المحدودة العدد ، ويزاحمونهم في لعبة (الوست) وهذا الاحتكاك يقود الى مشادة بين الطلبة والموظفين تنتهي بأن يجتمع الطلبة ويقرروا فتح ناد لهم ، وسرعان ما يضعون لائحة ويستخرجون تصريح من سلطات الأمن بفتح النادي ، ويمرون بالسوق يجمعون التبرعات ، ويفتح النادي الأهلي في وسط القرية ، وقد جلبوا له أثاثاً جميلاً من المديرية ، ويقصده الطلبة وشباب القرية ، ويجدون فيه مكاناً شائقاً وممتعاً ، فيلعبون (الوست) ولكن البعض يعود الى اللائحة ويذكر الجميع بأن هدف النادي ثقافي ترفيهي ، فتتكون ادارة ثقافية تقر يوماً للندوات والمحاضرات ، وتتكون فرقة للتمثيل ، ويقومون بعرض مسرحية (خراب سوبا) بمسرح المدرسة الأولية ، وتشهد القرية ليلة لا مثيل لها بين الليالي ، ويعاد عرض المسرحية في اليوم التالي ولكن للنساء فقط ، ويتسلل الشباب ويطوقون المدرسة ، ولا يقدر أحد من الشرطة أو لجنة النادي على منعهم ، لأنهم حضروا مع زوجاتهم وأخواتهم وهم في انتظارهم ليعودوا بهن الى ديارهن .

وظهرت أفكار جديدة ، فهذا كمال علي عنبر يحدث الناس عن الاشتراكية ، ثمان ساعات عمل وثمان ساعات نوم وثمان ساعات قراءة وغناء ورقص . وبعض الشباب من أمثال هاشم وسعيد هلال ، وآدم سعد الله لا تعجبهم هذه الأفكار المستوردة من الغرب ، فيبشرون بأشتراكية الاسلام التي تهتم بالانسان روحياً ومادياً .

كان هذا هو الحال ، حال جيراني الجدد ، جيران لم أكن أفكر في جيرتهم يوما ما ، ولكنها تصاريف الحياة التي نجهلها .

١٢

وفي الجزيرة عادت الأحوال الى ما كانت عليه ، الا من تلك الذكريات الأليمة عندما نقترب من تلك الاشياء التي تذكرنا بتوفيق أو عصام وما أكثرها ، ولقد خلعنا الحداد ولكن بقي ما يدل على أيام الفيضان ، ممثلاً في بعض الأكياس التي تحجرت ، ولأنها كانت لا تحد معالم الجزيرة في حدودها الأصلية ، فقد عملنا على أزالتها خاصة من الناحية الجنوبية حيث تكاد تشطر الجزيرة الى نصفين.

كنت بصدد أعادة الساقية من جديد عندما أقترح علي عادل بأن نترك أمر الساقية ، ونشتري بدلاً منها مضخة كتلك التي انتشرت في المنطقة وهي تنبيء بميلاد عهد جديد ، تكون السيادة فيه للجازولين وليس للثور ، وللمهندس أنور أمين وليس للاسطى ابراهيم عبد الوهاب.

وفي المستقبل ، في ذلك العام ، عندما أنعدم الجازولين ومات الزرع عطشاً ، تذكر الجميع الساقية وكانوا شبه نادمين.

عادل هو أبني الوحيد ، ولا يمكن أن أعصي له أمراً ، لذلك فقد وافقته على رأيه ، وقد سافر الى الخرطوم ، وعاد بواحدة من تلك المضخات لتحل محل الساقية ، فتغير المنظر ، وتغير الزمان ، وكانت الساقية بحلقاتها وحبالها وثورها وصوتها ، أشبه ما تكون بلحن سرمدي ترن أصداؤه في سمع الوجود ، أما هذه الآلة فأنها ترسل دوياً يصم الآذان ويزلزل القلب والكيان.

وقد أفزعتني نظرات الثور ، وهو يحملق بعينيه الواسعتين وكأنه قد أدرك شيئاً ، فراح يضرب الأرض برجليه ويثير الغبار الجاف وهو يرسل خواره الفينة بعد الفينة ، وكأنه يسأل عن سبب أنتظاره عاطلاً من أي عمل ، وذات صباح أخذه عادل الى المديرية حيث تولى الجزارون هناك أمره ، وقد ودعته في صمت دون أن يلاحظ ذلك أحد ، لقد كان واحداً من معالم الجزيرة .

لم يقف الأمر عند ذلك الحد ، فقد أتسعت الجزيرة ، وكان عادل طموحاً ، فأستصلح الجزء الجنوبي والشرقي من الجزيرة ، وأشترى مضختين أخريين ، وأتخذ له ثلاثة من المزارعين يساعدونه في الزراعة ويقتسمون معه المحصول ، فاتسع بذلك رزقنا ورزق غيرنا والحمد لله ، لقد أصبح أنتاج المضخة الواحدة يساوي ضعف أنتاج الساقية ، ويرجع ذلك الى وفرة المياه التي توفرها المضخة للأرض والزراعة ، وكثر العشب ، فكانت البقرات والعنزات تسير وقد باعدت ما بين قوائمها الخلفية وقد ملأ الحليب ضرعها.

قالت لي زينب ذات يوم :

— انني مريضة وأريد أن أفرح بعادل ، وأزوجه بنت الحلال قبل أن أموت .

كنت أعرف أن زينب سليمة ومعافاة ، لكنها تقول ذلك لتجد لنفسها مبرراً تتجاوز به الحزن وتزوج عادلاً ، هللت للفكرة ، فكثيراً ما راودتني . كان كل شيء معداً ، فالعروسة معروفة ومتّفق عليها ، إنها سعاد ابنة الحبيب توفيق ، كان لا يخفى على أحد تلك اللقاءات والمناجاة التي كانت تتم من خلفنا بين عادل وسعاد ، حتى أنني كنت أشعر بالغيرة منها أحياناً خاصة عندما أفاجأهما جالسين بمفردهما وهما يهمسان لبعضهما بكلمات الحب وخفق الفؤاد قريباً من رأس الحربة ، أو في المركب أو في الكوخ . ففي هذه الجزيرة الصغيرة ، القليلة العدد جداً ، يوجد فيها أيضاً عاشقان يعلنان بفرح وغبطة أن للحياة كل ذلك الجمال والبريق حتى في جزيرة العوض الصغيرة .

في اليوم التالي لحديث زينب معي ، كانت سعاد تسير في الجزيرة بين

الأحواض ، وهي تدوس العشب الندي المفضفض بقدميها ، فتثني أوراقه التي سرعان ما تدب فيها الحياة فترتفع مرة أخرى فرحة مستبشرة ، كانت تجمع بعض روث البقر الجاف لتشعل به النار ، لقد تعمدت أن تحسر الطرحة عن رأسها ، فاذا بشعرها الناعم الطويل ينساب في جدائل وموجات طويلة بعضه على الظهر وبعضه على الكتف وبعضه على الصدر مبعثراً كعبث وجد طريقة الضال وسط تلك الجهات ، كانت مثل الصباح جمالاً وأشراقاً ، الا أنه مبعثر الأشياء ، كان ثوبها قد ارتخى قليلاً عن الصدر ، فاذا بذلك الخط الفاصل بين نهديها المتكورتين يثير توتراً في صلبي ، ولأن الثوب كان قصيراً فقد برز بكامل الكمال والتمام ساقان ملفوفان لامعان تبدوان في تناسق تام ، كانت تظن أنني لا أفهم شيئاً ، ولكنها تدرك أنني أفهم الكثير رغم كبر سني وهي اذ تستغل هذا الظن ـــ الخطأ ـــ تنحني نحو الأرض لتجمع الروث الجاف ، فاذا بفخذيها الناعمين البراقين يبدوان من وراء الفضاء كأجمل الخطوط رهافة ورقة في لوحة الوجود كان هذا بعضاً من جمال هذه الفتاة ، وقد تعمدت أن تريني بعضه .

قلت في نفسي :

ـــ ما الذي حدث؟

تذكرت ، وضحكت ، وقلت في ذات نفسي :

ـــ لقد سمعت الخبر ، وهي الآن تريد أن تؤكد لي شبابها وجمالها ، وأنها جديرة بعادل .

رددت في رنة لا أدرك صداها :

ـــ أعرف ذلك يا سعاد . . .

وكنت قد حميتها من جريمة الخفاض ، فهي والحمد لله في سلام وكمال ، وكما شهدنا أيام الحزن ، شهدنا أيام الفرح ، وعشنا أياماً جميلة لم يشهدها البر الشرقي من

قبل ، وتم بحمد الله قران عادل من سعاد ورحلا الى دارهما الجديدة قريباً من القلعة ، وبعد عام ولد لهما ابن سمياه توفيقاً تخليداً للجد الراحل — رحمه الله.

وهكذا أستقر الحال ، وكان كل عام أفضل من العام الذي سبقه ، ولم يكن هناك ما يكدر صفو حياتي سوى تقدمي المطرد في السن وقد بدأ الجميع يعاملني كشيء رخو قابل للكسر خاصة زينب والتي بدأت أتجنبها ، وأحاول أن أقضي وقتي مع سعاد وذلك عندما أوكل اليها القيام ببعض المهام الصغيرة التي تخصني ، وبذلك تكون قريبة مني ، ومن جانب آخر ، فقد كانت زينب تنافسني في هذه الأثرة ، وتطلب منها — في أغلب الأوقات — أن «تفلي» لها رأسها من القمل.

وأحياناً أجد متعة في الحديث مع جميلة ، ولكنني أكون متحفظاً ، لأنه اذا ما عن للبعض أنني ربما أبحث عن شيء يجدد حياتي الزوجية التي مللتها ، فأنهم يظنون أن جميلة أنسب ما تكون لي. لكنها الآن أضحت أم سعاد زوجة ابني. هل يكون هذا الخاطر قد ورد بطريقة ما الى زينب ، فعجلت بزواج عادل من سعاد — رغم رفضها وترددها في حياة توفيق — لتحرمني منها؟ لا أدري ، ربما ! !

كانت زينب تقول لي :

— عندما تكون مع غيري من النساء ، تكون سعيداً ومنطلقاً ، وهادىء البال ، ولكن ما أن تلتقي بي حتى تنقلب حزيناً وكئيباً ، وكأن رؤيتي لك صارت تسبب لك ألماً؟ ! !

كان ينبغي أن أطيب خاطرها بكلمة رقيقة تعيد اليها الفرحة والبهجة ، ولكننا لم نسمح لنسائنا بمثل هذا الهزر ، لذلك لم أعلق بشيء ، نظرت نحوها كشجرة قديمة ، نافرة العروق يابسة الأغصان.

اشترى لي عادل راديو كبيراً أحتفظ به في حجرتي في القلعة ، وآخر صغيراً أسير به في الجزيرة وأصبحت على علم ببعض ما يدور حولنا من أحداث كثيرة ، وقد أتضح لي أنني رغم عزلتي فقد كنت أعرف الكثير من الناس ، وذلك عندما كان

المذيع يذيع أسماء من توفوا ، فيذكر أسماء ، وبعد مراجعة هذا الاسم مع زينب وعادل ، يتضح لنا أننا نعرفه ، وأنه قريب الصلة بفلان من الناس ، وقد ظننت أن السودان صغير جداً بحيث أن جميع أهله أقرباء لبعضهم ، وقد يكون هذا الظن صحيحاً .

كانت الأيام تمضي ونحن في سعادة وبحبوحة من العيش ، حتى الحمير كانت « تبرطع » رافعة رؤوسها زهواً وأعجاباً ، ولم يعد الشاطىء الشرقي كثبان هائلة من الرمال الصفراء ، ينبت فيها عشب السيكران والحلفه ، ومأوى للثعالب والجرزان ، لقد صار يكتظ بمئات من البيوت ، بينما ارتفعت مئذنة الجامع عالية في الفضاء ، وقد ظهرت فوق المنازل ذؤبات الأشجار من نخيل ونيم وجميز وغير ذلك من أشجار الفواكه والحمضيات . ونتيجة لزيادة سكان القرية ونموها فقد أصبحت محطة تقف عندها الباخرة غادية أو رائحة ، وكان الريس يعرفني لذلك فعندما تتوسط الباخرة النيل ما بين الشاطىء الشرقي والجزيرة «يصفر» تحية لي ، واخطار أهل القرية ، الذين يخرجون من بيوتهم وهم على ظهور حميرهم ، فينطلقون خبباً ، ميممين صوب المحطة التي كانت في مكان وسط بين بيوتنا في القلعة وبيوت القرية .

وبعيداً كنت أشاهد المكان الذي دفن فيه توفيق وعصام ، لقد أتسع وأصبح جبانة القرية ، وكثرت الشواهد فيه ، ويمكن لأي واحد أن يقصده وهو مطرق الرأس ، كل ما عليه أن يتبع المسالك المحفورة في الأرض من كثرة السير ، ولقد لعبت زينب وجميلة دوراً بارزاً في حفر هذه الدروب الممتدة نحو الجبانة لكثرة ذهابهن الى هناك للزيارة ، كانت زينب قد بنت سبيلاً وضعت فيه زيراً قناوياً أبيض . كانت في البداية تنشط في ملئه بمساعدة جميلة وسعاد . اما الآن فأن جرمة الأكول هو من يقوم بهذا العمل يومياً ، وقد صنع له صفيحتين ، فكان يملأهما من النيل ثم يوازنهما على كتفه بعصا طويلة ، كانت العصا تضغط على كتفه المكتنز وتغوص بين نتون لحم رقبته . لقد صار مسئولاً عن الجبانة وهو بذلك يستلم كل النذور من أكل وشراب ومال يأتي به أهل الميت عند زيارة ميتهم .

وقدم الصيف جافاً فائضاً مملا في ذلك العام ، وبعد أن كان النيل يندفع متدفقاً بالحياة صار متمهلاً وهو شبه راكد ، وكانت تحلق على صفحته قريباً من الشاطىء البعوض والذباب وهي تطن وتكاد تلامس سطحه الساكن ، هذا السكون وهذا الحر قد فجر موقفاً حارقاً لم نكن نتوقعه ، وان لذلك قصة أخرى أرى من اللازم أن أرويها من البداية .

القسم الثالث

النزع والتقسيم



في ذلك الشتاء، كانت الجزيرة في أبهج منظر، فهي خضراء من أقصاها الى أدناها. وكانت رائحة العشب النامي تضمخ المكان بشذاها الجميل، ومن جهة أخرى امتلأت ضراع العنزات والبقرات باللبن، وها هي زينب تحمل الوعاء وتحلبهنّ، فتفوح رائحة الحليب الطازج الذكية، بينما تقف الحيوانات صامتة وهي تسمع بصمت لشخيب اللبن في جوانب الوعاء، وبعد أن يمتليء الوعاء باللبن تفرغه في السعن، ثم تعلقه على السيبة، فتجلس فرحة متهللة فتخضه لتخرج منه السمن والزبد والرائب، بينما تهرع العجول والسخلات لترضع ما تدر به الأمهات بعد حليبهن.

وقد تعلق توفيق (الصغير) بجدته، فهو لا يفارقها أبداً، فها هو جالس بالقرب منها بجانب الكوخ في الجهة المواجهة للشمس ليدفأ، وهو يراقب حركة يديها بفضول شديد.

وهناك جميلة وسعاد، يسرن بين أحواض الخضروات وهن يجمعن الطماطم والبامية والملوخية، جنباً الى جنب مع المزارعين، وحينما يفرغون من الجني، توكل لواحد من المزارعين أمر بيعه في السوق، بعد أن نأخذ منه ما يكفي حاجتنا وحاجة من معنا من المزارعين.

قالت لي زينب وهي تخض السعن:

— لقد سجل عادل اسمك لتصوت لأحد المرشحين.

— لقد أخبرني بذلك.

— ويقولون إن التصويت بين المرشحين المتنافسين سيكون في المدرسة الأولية.

— أعرف.

ابتسمت ثم قالت:

— هل سمعت ما يقوله الناس.

— لا!.. ماذا يقولون؟

— إنهم يقولون إن المحس والفلاليح وكل أهل بحري سوف يعطون أصواتهم لمرشح الاتحاد، أما الدناقلة وأهالي قبلى فسوف يعطون صوتهم لمرشح الأنصار.

— لقد سمعت.

— إذن سوف تعطي صوتك لمرشح الاتحاد!!

— لن أعطي صوتي لأي واحد من المرشحين.

— لماذا؟

— لأنني لا أؤيد أياً من المرشحين.

قالت بنبرة غاضبة:

— يا كافيء البلأ، أنت دائماً هكذا، تخالف الجميع.

— أنا لا أريد أن أزجّ بنفسي، بعد هذا العمر، في مثل هذا الصراع، وأريد منك أن تسمعي ما قاله هاشم سعيد في الصيف الماضي.

— وماذا قال هاشم؟

— لقد قال، يجب أن لا تقول هذا محسي وهذا فلاح وهذا دنقلاوي، فنحن كلنا سودانيون.

هزت رأسها متعجبة، ثم أشاحت بوجهها وقد أحكمت قبضتها على عنق السعن، وراحت تخضّه بعنف، وأظن أن ذهنها قد انشغل في التو واللحظة بكمية

السمن والزبدة والرايب ذلك الذي سوف تحصل عليه اليوم ، لقد كان هذا هو عالمها الذي لا تفضل عالماً سواه .

وانشغل الناس في ذلك الشتاء بقضية الاستقلال ، وقضية الانتخابات التي يعرفونها أول مرة في حياتهم ، وتحدثوا عن الاتحاد مع مصر ، أو الانضمام الى مجموعة الشعوب البريطانية الحرة (الكومونولث) .

ازدحم البر الشرقي ، وهاج الناس وماجوا ، وتدفق المال الى جيوب المنتفعين من هذا الصراع ، وانتشرت السيارات المجهّزة بمكبرات الصوت ، وهي تجوب القرى والطرقات ، تدعو الى تأييد هذا المرشح ونبذ ذاك ، وتحول الناس فجأة وبقدرة قادر الى سياسيين ضالعين وكأنهم رضعوا السياسة وفطموا عليها ، وتطور الصراع ، فتسلح المتظاهرون من كلا الجانبين بالعصا والهراوات والعكاكيز والحجارة ، وخرجت سيارات (الكومر) وهي تحمل رجال الشرطة ليراقبوا الوضع ، ويمنعوا الصدام بين الأطراف المتصارعة .

ووجد الناس أياماً حافلة بالأحداث المثيرة ، ونال السودان استقلاله بعيداً عن أي طرف من الأطراف ، ومن يومها لم يهدأ الناس أبداً ، وقد وجدوا أنفسهم يشاركون في اختيار من سيحكمهم ، فعرفوا الاقتراع ورموزه وعلاماته ، وها هم يتحدثون عن الديمقراطية ، وواجب الحكام نحوهم ، وعن العدالة الاجتماعية ، والإصلاح الزراعي والتصنيع ، ومجانية التعليم وقانون من أين لك هذا ، والأرض لمن يفلحها ، ومدّ المواصلات ، ومد القرى بالكهرباء ، وها هو كل مرشح يتحدث عن هذه الأشياء ، ويعد الناس بها وبتنفيذها عندما يفوز بثقتهم والناس تعرف أنه يكذب عليهم ، فما أكثر ما سمعوا بمثل هذا الحديث ، ولكنهم رغم ذلك يصفقون ويهتفون .

وأصبح كل فرد له أهمية خاصة ، حتى جرمة الأكول ، والولي ، وكرم الله الكفيف ، لقد وجدوا من يتولى أمرهم من المرشحين ليزيد بهم عدد المصوتين له ، وحسين سعد الله هو من يتولى أمرهم ، فقد تفرغ حسين لمثل هذه المناسبات ،

وأصبح شخصية بارزة، فها هو يأخذ سيارة من سيارات الحزب ويذهب يوم الاقتراع لجمعهم ولا ينسى وهو في طريقه لمركز الاقتراع أن يسأل جرمة:

— ما هو الرمز الذي سوف تؤشر أمامه يا جرمة؟

ويصيح جرمة بثقة العارفين:

— الشجرة.

— وأنت يا الولي:

— الشجرة.

— وأنت يا عم كرم الله، ماذا تقول لمندوب لجنة الاقتراع عندما تدخل معه الحجرة المقفلة للتصويت؟

— سوف أقول له: يا ولدي أنا مع الشجرة، أرجوك أن تؤشر لي أمامها.

— عظيم.. عظيم جداً.. هيا نهتف معاً: نحن مع الشجرة.

— نحن مع الشجرة.

— الشجرة البركة.

— الشجرة البركة.

ورغم انعزالي عن هذه الأحداث السياسية، فقد اكتسبت أهمية خاصة، وذلك بفضل وجود ضريح الشيخ في جزيرتي، فقد فهم الجميع أن للشيخ أتباعاً ومؤيدين، وانه من الممكن جداً بأن أدفع بهذا العدد — الوهمي — لتأييد هذا أو ذاك من المرشحين، ان بركات الشيخ كثيرة، فلولا وجود قبره في الجزيرة لما تعرفت على زينب، وحاج النعمة والعمدة عبد الله والشيخ محمد أحمد وما أعقب ذلك من أحداث انتهت بتثبيت ملكيتي للجزيرة، وها هو الآن يدفع بعلية القوم من السياسيين وأهل الرأي ليطالبوا تأييدي لهم ومؤازرتهم، فها هي إحدى صحف الأحزاب تنشر في صفحاتها الداخلية خبراً مفاده أن أهالي جزيرة العوض يقفون بكل قوة مع مرشحيهم، ورغم ما في هذا الخبر من مبالغة وكذب وافتراء إلا أنه أسعدني

أن ينشر اسم جزيرتي في الصحف ، ألا رحم الله الشيخ رحمة واسعة ، وأسبغ عليه من فضله شآبيب الرضى والغفران.

كان المرشحون من مختلف الأحزاب السياسية يزورون جزيرتي بقصد الزيارة والتبرك بالشيخ وقد أثار انتباهي أن هناك بعض الوجوه قد تكرر مرافقتها لجميع المرشحين من مختلف الأحزاب ، وكنت قد سمعت — والله أعلم — انه قد تكونت مجموعات — يمكن أن نسميها عصابات — استطاعوا أن يخدعوا كل الفرقاء والمرشحين وأنهم قد جمعوا بهذه الوسيلة ثروة لا بأس بها وكان هؤلاء من يحملون الهدايا والعطايا ، ويضعونها بجانب الضريح ، وكان كل مرشح يخبرني قبل حضوره لأكون في استقباله ، وبعد أن يقدم للشيخ ما حمله من متاع ، يسألني عن رأيي ، فكنت أتحدث معه حديثاً عاماً لا يحمل موافقة أو رفضاً ، فأنا متوكل على الله ، وكل شيء بيده ، والخير فيما اختاره الله ، وهذا النوع من الحديث تعلمته من الشيخ لأن فيه إمكانات كبيرة للخلاص من الالتزام بشيء ، وهو لون من السياسة أيضاً.

وكان آدم سعد الله قد تخرج وأصبح محامياً ، وهو يطمع الآن في دخول البرلمان ليصبح نائباً يمثل دائرتنا ، ولكن ساتي ولد العمدة عبد الله ينزل منافساً له وتأتي المباركة من الخرطوم والمبايعة لتأييد ساتي عبد الله ، ويتجمع المثقفون لتأييد خريج الجامعة المثقف ، المحامي الشهير ، وابن الدائرة المخلص ، آدم سعد على منافسة ساتي عبد الله صاحب مشروع الري ، ويسقط آدم سعد المحامي ، فيصيح في غضب فور إعلان النتيجة :

— هل هذه ديمقراطية؟ هل هذه حرية؟

ويخرج المنتصرون في مظاهرات صاخبة ، وهم يهتفون ويرقصون ، وتشهد قرية القلعة نقاشاً مستفيضاً ومثيراً يجري بين صفوة أبنائها المتعلمين، فها هو آدم سعد المحامي يشرح الديمقراطية ويبرر سبب هزيمته فيقول :

— الديمقراطية هي الحرية السياسية للشعب ، ومن الشعب ، وإلى الشعب ، ولكن الديمقراطية قامت عندنا منذ البداية على أسس خاطئة ، فهي ديمقراطية

بيوتات دينية، والانتخابات عندنا تدار كما تدار الطلاسم، تحت شعار البيعة والمباركة والإشارة.

ويتحدث كمال علي عنبر فيقول:

— إن الديمقراطية هي حق الطبقة العاملة، صاحبة المصلحة الحقيقية في حكم الشعب، حتى تحميه وتحمي نفسها من الاقطاعيين والرأسماليين والبرجوازيين.

ويستمع الناس في دهشة الى هذه التعابير الجديدة في حياتهم والتي يسمعونها لأول مرة، ويتدخل هاشم سعيد فيردّ عليه قائلاً:

— لم يعرف السودان في تاريخه الطويل حكم القياصرة الذين يستمدون سلطتهم من الحق الإلهي، فيملكون هم وحاشيتهم الأرض ومن عليها من الناس يستغلونها في الزراعة، ويسوقونهم الى الحرب ليوسعوا من سيطرتهم على شعوب وبلاد أخرى، ولا يوجد عندنا رأسماليون، لأنه لا توجد عندنا صناعة، فنحن جميعاً فقراء. وأما البرجوازيون، فأنا وأنت وآدم سعد وخميس مبروك وغيرنا، فإننا لا نملك أن نستمتع بما لدينا من دخل نسبة لالتزاماتنا العائلية. إن الواجب علينا أن نناقش انحراف الديمقراطية في بلادنا لنصحح مسارها بدل أن نتحدث عن نظريات وأفكار كتبها مصلحون عن بلاد غير بلادنا، وفي ظروف غير ظروفنا.

ويستمر النقاش طويلاً بين هاشم سعيد وكمال علي والناس يفهمون بعض ما يقال فيهمسون:

— مسكين الشاويش علي عنبر، لقد أصبح ولده شيوعياً.

— لا حول ولا قوة إلا بالله، إنه ملحد.

— نعم، ملحد والعياذ بالله.

وتمضي الأيام، وتهدأ الأحوال، وينصرف الناس الى عملهم والحديث عن زوجاتهم وأولادهم، وعلاقاتهم العامة، وينسون ساتي عبد الله، وآدم سعد، ولا يتذكرون ساتي إلا عندما تتأزم الأمور وتنشق الأحزاب على بعضها طمعاً في

السلطة، لتصبح كتلاً كثيرة تمثل مذاهب شتى، وبيوتات شتى، ومعتقدات شتى، عندها يسأل الناس عن نائبهم ومع من سيقف، ويتهكم حسين سعد الله ويسخر منه، لأن ساتي فاز على أخيه، فيقول:

— سيقف مع من يبذل له وعداً بالوزارة، دنيا بت كلب، واحد لا يعرف يكتب ولا يقرأ يمثلنا نحن، والله فضيحة.

ويأتي سعيد هلال ذات يوم ويقول لي:

— يا شيخ العوض! الى متى تقف بعيداً عن الأحداث؟

— لماذا؟ هل هناك من جديد؟

— نعم؟ هناك انتخابات جديدة، وفي هذه المرة نزل مرشح جديد، لحزب جديد، يدعو للدستور الاسلامي، فما رأيك هذه المرة؟

— هل أنت يا شيخ سعيد من ينخدع بمثل هذه الأساليب؟

— أي خدعة تعني يا شيخ العوض؟

— هل تريد رأيي بصراحة؟

— طبعاً.

— أولاً، وقبل كل شيء، حرام أننا نساوي بين الدين وبقية الأحزاب.

— كيف؟

— الدين يا شيخ سعيد لا يعرف سوى طريقين، طريق الحلال وطريق الحرام، هل أنت معي؟

— نعم.

— والسياسة، كما هو معروف، التواء، وغش، وفساد، فهي حرام، وحرام علينا، أننا نعرض الدين لما تتعرض له بقية الأحزاب، فيتعرض الدين للفساد والضلال.

ــ والله كلامك صحيح يا شيخ العوض ، لكن المرشح يقول ، إذا لم تعطوني أصواتكم حتى أحكم بالدستور الاسلامي ، فسوف تكونون مسئولين أمام الله .

ــ إن الدستور الاسلامي يا شيخ سعيد شيء لا وجود له .

ــ عجيب... كيف؟

ــ إن هذه الدعوة بدعة ، وكل هدفهم أن يصلوا الى الحكم ، شأنهم في ذلك شأن غيرهم من المرشحين ، فالقرآن لم ينزل على نبينا الكريم ليكون دستوراً ، وإنما نزل ليكون نوراً وهداية يقصده الانسان من تلقاء نفسه عندما يحس بالخواء ، وعندما يمتلىء قلب الانسان بذلك النور يصبح الانسان ذلك النور الذي يمشي بين الناس ، أو كما قال الشيخ ــ رحمه الله ــ ذات مرة ، الدنيا عامرة ، وسيأتي زمن يندفع فيه الناس من تلقاء أنفسهم للبحث عن الاسلام وتعاليمه السمحة .

ــ أفادك الله يا شيخ العوض ، يشهد الله أن فهمك لهذا الموضوع لا غبار عليه . ولكنني وعدت المرشح بأنني سوف أعطيه صوتي ، وأنت تعرف أن ولدي هاشم ، جزاه الله كل خير ، يقف معه ويسانده .

ــ أعطه صوتك ، انه خير من غيره !

ــ إذا كنت تعتقد ذلك ، فأعطه صوتك؟

ــ هل تعتقد يا شيخ سعيد أن صوتي سيجعله يفوز ؟

ــ طبعاً لا .

ــ إذا كان الأمر كذلك ، ما في لازم أحشر نفسي في هذه القضية الخاسرة ، وأنا والحمد لله ، صلتي بالله موصولة وعامرة .

ــ الحمد لله ، مع السلامة .

وانتهى حديثي مع صديق العمر سعيد هلال عند هذا الحد ، كانت هذه هي علاقتي العامة تجاه الأحداث السياسية في البلاد .

٢

كانت سياستي هي الجزيرة والأولاد ورأس الحربة وضريح الشيخ. والمضخات ومواسم الزراعة والحصاد، وتلك الأشياء التي ألتصق بها وتلتصق بي لتصنع ما يمكن أن تكون حياتي ومستقبلي ومستقبل أولادي.

وأنا أعتبر في منطقتنا من الأثرياء بمقياس ما نحن فيه من عسر وضيق، رغم أنني لم أعرف القصور والخدم والحشم والجياد المطهّمة والسيارات الفارهة، وحفلات العشاء تلك نسمع بها والتي يعقبها الغناء والرقص والشراب، فأنا ما زلت أرتدي سروالاً وقميصاً من الدمورية شأن غيري من المزارعين، ومن يدقق النظر في كعب قدمي يلاحظ شقوقاً من كثرة ما تتعرض له من هواء وبرد، إن ثرائي ثراء بسيط، كحياتنا البسيطة، وهو على بساطته يقنعني بالرضا عن حالي، ولكن حالتي هذه تثير حفيظة من يعملون حولي، فيستعدون الحكومة ضدي، ولأن من طبع الحكام أن يلاحقوا الناس في أي مكان ليفرضوا سلطانهم عليه، وليعرف الناس أن في البلاد حكومة تسهر على مصالحهم، فقد وجدت الحكومة طريقها نحوي لتحقق فيما قاله الواشون عني، فذات صباح وبينما كانت المعدية تقوم برحلتها المعتادة بين البر الغربي والشرقي، ألقت مرساها على الجزيرة، وكان هذا نادراً ما يحدث، ونزل منها بعض موظفي الحكومة والشرطة والشيخ محمد أحمد، رأيتهم يتجهون نحوي، توجّست شرّاً من هذه الزيارة، ومن هذا الجمع الرسمي الذي هبط على جزيرتي، كما يهبط الغزاة والفاتحون دون ميعاد أو إنذار.

أسرعت في استقبالهم ، لكنهم لم يحفلوا بي ، وقد حز ذلك في نفسي لأنني رجل كبير في السن ، ولي الحق في أن أجد ما هو لائق من الاحترام ممن هم مثل أبنائي ، وقد حاولوا تجنبي مثل شيء كريه ، ثم تجاوزوني عن قصد وهم يعلمون أنني صاحب الجزيرة ، وبينهم كمال علي عنبر ، وراحوا ينظرون الى الجزيرة كما ينظر القصاب الى ذبيحته ، ثم أخذوا يناقشون ويقدرون طولها وعرضها وحصر ما بها من مضخات عاملة .

أقبل عادل نحوهم ، وقد أثاره حضورهم هكذا بدون ميعاد ، كما أثارني أنا من قبل ولما عرفوا أنه هو القائم بالعمل هنا اقتربوا منه والتفوا من حوله في شبه دائرة وراحوا يوجهون اليه بعض الأسئلة .

انتهزت الفرصة ، واقتربت من الشيخ محمد أحمد أستفسر منه عن حقيقة الوضع ، فهمس لي بسرعة :

— إنها لجنة لتقصي الحقائق عن جزيرتك ، أرجوك أن تبتعد عني لا تقطع عيشي ، سوف أخبرك بكل شيء فيما بعد .

وما أن انتهى من جملته هذه ، حتى ابتعد عني ، فأشفقت عليه ، وازدادت دهشتي وحيرتي ، لجنة لتقصي الحقائق ! ! ماذا تريد مني هذه اللجنة؟ وما هي الحقائق التي تريد معرفتها؟ كل شيء واضح وضوح الشمس ، أنا والجزيرة ورأس الحربة وضريح الشيخ والأولاد ! ! جميعاً نقف على الأرض ، ونعمل تحت الشمس .

كانت اللجنة تتكون من رئيس لها ، هو مدير الاصلاح الزراعي في المديرية ، وهو في الخمسين من عمره تقريباً ، أسمر اللون ، طويل القامة ، قد جلل الشيب رأسه ، أما مقرر اللجنة فقد كان كمال علي عنبر الذي تربى هنا ، واثنان من صغار الموظفين ، والشيخ محمد أحمد ، واثنان من رجال الشرطة ، وعندما جمعتهم كان عددهم سبعة أفراد .

كان عادل قد توسط هذا الجمع تقريباً ، وهو يجيب عن أسئلتهم وقد انهمك البعض في تدوين ما يقوله ، وقد ارتسمت على وجوههم إمارات الجد والحزم ، بعضهم يزّ رأسه كأنه يفهم ما يقوله عادل ، وبعضهم عقد يديه خلف ظهره ومدّ عنقه وكأنه يستمع الى حديث خطير سوف يدمر العالم ، بعضهم يحملق في دهشة مصطنعة وبعضهم ينفث دخان سيجارته وقد رفع رأسه وصدره عالياً وهو يراقب حلقات الدخان المنبعثة من فمه في مطاردة لذيذة (هذا التعبير ليس مني) وقد راح يفكر تفكيراً عميقاً ، لقد تملكتهم نشوة عارمة في تنفيذ ما أشيع.

كان قد أشيع أن الحكومة بصدد نزع الجزيرة مني وتوزيعها على المزارعين العاملين فيها بدعوى أنني اقطاعي من كبار الملاك في السودان.

وإليكم هذه المعلومات عن الجزيرة :

تبلغ مساحة الجزيرة أربعين فداناً تقريباً ، هذه المساحة قابلة للنقصان أيام الفيضان وذلك عندما يغمر النيل أطراف الجزيرة من الناحية الجنوبية ، ونحن نقوم بزراعة ما يقرب من ثلاثين فداناً ، فكل مضخة من المضخات الثلاث تقوم بري عشرة أفدنة ، وقد أرسل بعض ضعاف النفوس برقية الى وزير الزراعة يخطرونه فيها بأنني أملك جزيرة كاملة بها عدد من المضخات ويعمل تحت إمرتي عدد من المزارعين المغلوبين على أمرهم . وتدور الشائعات بأن المزارعين العاملين معنا ، وبقيادة جابرهم من دبروا إرسال تلك البرقية.

لقد سرت في تلك الأيام إشاعات روّجها البعض عن نزع الأراضي وتوزيعها على المزارعين بقصد العدل بين الناس . وقد صدق الزارعون معنا هذه الإشاعات فأرسلوا تلك البرقية لوزير الزراعة آملين في أن يستولوا على جزيرتي .

وفي الواقع فقد كان مصير الناس في تلك الأيام العصيبة معلقاً بوشاية يطلقها فلان أو شائعة يروّجها مجهول أو شكوى باطلة لا تقوم على أساس ، كان الخوف والزعر والمصير المجهول يهدد كل إنسان ، وقد انساقت الحكومة وراء هذا التضليل

فشجعته فكان من نتيجة ذلك أن ظلم كثير من الناس الأبرياء والموهوبين ليحل محلهم المجرمون والمنتهزون والوصوليون.

كان الناس يتحدثون عندنا هذه المرة — في مرحلة بعد الاستقلال — عن (التطهير) و(التأميم) و(العزل السياسي) وغير ذلك من العبارات التي راجت أخيراً، وقد وجد أكثر الناس أنهم ينتمون الى واحدة من هذه الفئات فظنوا أنهم هم المقصودون بذلك؛ فانطووا على أنفسهم لا يدرون ماذا يصنعون فشاع الخوف والنفاق.

وأما أنا فقد وجدت نفسي فجأة أنضوي تحت فئة الاقطاعيين، وها هي الحكومة تجد الفراغ الكافي لترسل لي سبعة من عمالها يكلفونها كل يوم مالاً كثيراً يمضوا أياماً قد تطول أو تقصر ليحققوا في أمر جزيرتي التي صنعتها بجهدي وكدي عبر السنين الطويلة لأعيش منها.

كان الفضول يدفعني لأقترب أكثر وأكثر من هذا الجمع حتى وجدت نفسي ودون إرادة مني أقف بجانبهم وأستمع لما يقولونه وأخيراً تكلم رئيس اللجنة فقال:

— إننا جئنا الى هنا، بتكليف من سيادة وزير الزراعة، لنكتب تقريراً عن هذه الجزيرة ونحن من جانبنا سنرفع هذا التقرير الى سيادة الوزير ليقول رأيه الأخير بعد عرضه على مجلس الوزراء.

رحت بدافع من الحيرة والخوف، وأنا أستمع الى مثل تلك الكلمات، مجلس الوزراء، وزير، تقرير، فسألته عن معنى هذا التقرير الذي سيرفع لكل هؤلاء.

أجابني رئيس اللجنة بلهجة واضحة:

— لقد تلقى سيادة الوزير شكوى من بعض المواطنين مفادها أن جزيرة العوض، جزيرة كبيرة، ولا يجوز أن يملكها شخص واحد، وقد جئنا بتكليف منه لنتأكد من هذه الشكوى ونحدّد مساحتها وعدد المضخات وعدد المزارعين العاملين

فيها ، ومتوسط الدخل والمحصول وغير ذلك من البيانات لنرى إن كان ينطبق عليها قانون النزع والتقسيم أم لا ! !

سألته بخوف وقلق عن رأيه !

وهنا تولى الحديث كمال ، مقرر اللجنة ، كنت منذ البداية قد لاحظت أنه هو الذي يسأل ويستفسر ويعلق :

نظر إلي وكأنه صاحب الحل والعقد ، فقال :

ــ نحن الآن يا حاج بصدد بناء الدولة من جديد كما تعلم ، وهذا يتطلب منا مراجعة كل الأوضاع السابقة ، فمثلاً ، أنت تملك هذه الجزيرة كلها ، وهي كما تعلم ليست ملكك بل ملك الدولة .

وهنا قاطعته بحدة ، لكنه رفع يده وهو ينظر إليّ شذراً لأسكت ، وهو يقول :

ــ أرجوك ، دعني أكمل حديثي .

فصمت أمام نظراته الجارحة فاستمرّ يقول :

ــ هذه الجزيرة يمكن أن يستفيد منها عدد أكبر من المزارعين العاملين فيها ، وهناك احتمال ، أقول لك احتمال ، ولكن قد يكون ذلك هو الواقع ، لأنه يطابق توصيتنا من أننا سوف نعطيك عشرة أفدنة ثم نوزع باقي الأرض والمضخات على المزارعين العاملين معك في الجزيرة .

علق أحدهم وهو ينفث دخان سيجارته :

ــ أعتقد أن هذا هو الحل العادل .

ــ علق كمال على تلك الملاحظة قائلاً :

ــ نعم ! فنحن من يعرف العدل .

كنت أراقب تعابير وجهه وهو يتحدث ، فعجبت كيف يتحدث عن العدل والخير بينما كان وجهه يطفح بكل تلك الكراهية والحقد ، كانت كلماته جميلة ،

لكنها كانت كطلاء البغي مهما حاولت أن تكون جميلة إلا أن وجهها يظل دائماً شاحباً، ومنفراً، وقبيحاً، كان في نفسه شيء يعجز القلم عن إظهاره، وهكذا يمكن للكلمات البراقة والمخادعة أن تلبس الشيطان عباءة من الخير والصلاح والورع.

قلت في ذات نفسي وأنا أنظر إليه:

ــ لو قدر لهذا الشاب أن يحكم البلاد، فسوف يسوقنا جميعاً إلى المشنقة وهو يبتسم ابتسامة متشفية ماكرة.

كانوا قد استعدوا لمغادرة الجزيرة، فقلت لهم:

ــ قبل أن تذهبوا أريد أن أريكم شيئاً.

قال كمال وهو ينظر إلى ساعته بملل:

ــ لا وقت عندنا.

ــ يجب أن يكون لديك وقت، الوقت الكافي لترى ما أريد منك أن تراه.

قال بضيق:

ــ حسناً، ماذا تريد؟

وقدتهم إلى مكان الساقية القديمة وقلت لهم:

ــ هل ترون هذا المكان المهجور؟

تطلعوا إلى البئر المهجورة، وإلى بقايا الأخشاب السوداء التي تبرز من بين المياه الضحلة كأشباح لعينة، ورأوا المكان المظلم، وأرتال من الذباب والبعوض تطنّ على ارتفاع خفيض من المياه، ولما رأيت حيرتهم التي تكاد تتحول إلى دهشة ورعب، قلت لهم:

ــ هنا غرق ولدي عصام، ورفيق عمري توفيق جوار الشيخ طه المنحول، وذلك عندما كانا يقومان بواجب الدفاع عن الجزيرة عام الفيضان.

ولدى سماعهم لهذا الحديث تطلعوا نحو البئر المهجورة مرة ثانية بصورة جديدة ، وكأنهم يشاهدون الغريقين. كانت نظراتهم تبحث كل موضع فيه وقد ارتسمت على سيمائهم دلائل الخوف والدهشة ، وقال كمال :

— أنتم يا أعداء التغيير ، تظلون متشبثين بحق الشعب ، وفي سبيل ذلك تنسجون القصص والحكايات.

— أنت يا ابني ، من دونهم جميعاً تعرف صدق ما أقول ، لأنك قد شاهدت وسمعت ما حدث قد تكون في ذلك الوقت صغيراً لكنك تعرف كل شيء ، وتعرف أن هذه الجزيرة لي ، إنها جزيرة صغيرة ، لكنها جزء مني ، إنها أنا ، أعيش عليها ، أزرعها وأسقيها ، وأفرح في المواسم الجيدة ، وأحزن في المواسم السيئة ، إنها أكبر مني ، وأكبر منك ، وأكبر من أي شيء آخر ، وأنا كبير بها لأنها ملكي وحقي ، ولأنني وقبل كل شيء ، فأنا من صنعها وأوجدها.

— كلكم تتحدثون بلغة واحدة ، بطريقة واحدة ، بلهجة واحدة ، لكننا مصممون على أن ننصف الشعب.

— لكنني واحد من الشعب ، من قبل أن تولد أنت ومن قبل أن يولد أبوك كنت أنا هنا في هذه الجزيرة واحد من الشعب. وإذا كان الشعب في حاجة إلى جزيرتي الصغيرة ليحس بالإنصاف ، فإنني لعلى استعداد أن أبذلها له ، لكنكم لا تعلمون ما تصنعون.

نظر كمال الى المجموعة من حوله وقال :

— هيا لنذهب من هذا المكان ، لنبتعد ، إننا لم نصل معه الى أي حل ، هيا بنا.

واستداروا لمغادرة الجزيرة ، وقد كانوا على موعد مع المعدية التي أهملت الناس وتفرغت لهم ، لقد تجنب كل فريق النظر للفريق الآخر ، ولم تصدر منهم كلمة وداع ، ولم تصدر منا كلمة توديع ، نوع من العداء لم نعرفه من قبل، ولم أعرف

كيف أتصرف إزاءه ، إن خلية تنقسم ، ومن انقسامها يخرج ذلك الشيء الذي نكره ، كمالاً وغيره ، إنهم لقاح حضارة الغرب الفاسدة التي تقول لنا ، جاهدوا ليبغض بعضكم بعضاً . جاهدوا لتظلوا منفصلين ، إنني الآن على وشك أن أطرد من أرضي ، وابن بلدي هو من يفعل ذلك ، وهم لا يعرفون أنني صنعت أرضاً وبيتاً ومضخة بكدي وجهدي ، لأنني أريد أن أضع في الأرض والبيت والمضخة شيئاً من الذات الانسانية ، شيئاً لا يؤذي أحداً ، لكنهم يتصورون أنني أتسبب في أذية العالم ، إن من يعملون معي من المزارعين يقتسمون معي المحصول ، فنحن نعبىء شوالاتنا في يوم واحد ، فيحمل كل فريق نصيبه وهو سعيد ، لكن كمالاً قرأ في كتب الغرب شيئاً غير ذلك ، فامتلأ قلبه حقداً وكراهية ، خسارة ، الغرب فتح لنا المدارس ، وعبّد الطرق ، ونظّم الإدارة ، ولكن لأن حضارتهم كانت كدمية لا روح فيها ، فقد أفسدوا شيئاً في داخلنا ، ولن نستطيع إصلاحه ، يجب أن ندفع الثمن لأننا تقبلناها .

كان المزارعون الثلاثة ، جابر وعثمان وفضل ، قد اقتربوا من أعضاء اللجنة وقد سمعوا ما دار بيننا من حديث ، وعندما التفت نحوهم بعد مغادرة اللجنة للجزيرة بدوا لي مثل صقور جارحة في انتظار قتيل يلفظ أنفاسه الأخيرة لينهشوا لحمه . كانت نظراتهم ساكنة ، ووجوههم باردة وحركاتهم ثقيلة ، ويزيد من ثقلها ذلك الهمس الذي كان يدور بينهم بين لحظة وأخرى ، كانوا يبتسمون ابتسامات بلهاء ، هي مزيج من السعادة والتشفي والفرح الغامض المشبوب بالخجل وتأنيب الضمير ، كنا قبل لحظات أهلاً وأصدقاء ، لكننا الآن خصوم وأعداء ، لقد كرهتهم ، ولأن الكراهية لا يمكن أن تخفي نفسها فقد جاهرنا بالعداء ، كنا في البداية متحفظين ، ولكن عندما اتضح لنا أنهم متمسكون بما سمعوه من أعضاء اللجنة ، جاهرنا بالعداء وأصبحنا أعداء حقيقيين . أنا وأهلي لم نعترف بما قالته اللجنة ، لكن المزارعين تنكروا للعيش والملح ، وتمسكوا بما سمعوه ، ووضع كل واحد منهم يده على المضخة التي يعمل بها وراح يحلم بغد مشرق جميل يقوم على الحق المغصوب .

وهذه العبارة الأخيرة (الحق المغصوب) قد أصبحت شائعة للدرجة التي أقلقت

المزارعين، ولكن بدل أن تجعلهم يتراجعون عن حلمهم هذا، ويحسنون معاملتنا، راحوا يعاملوننا معاملة بعيدة كل البعد عن أصول الوفاء، فراحوا فيما بينهم يقتسمون هذه التركة التي هبطت عليهم من السماء.

عدد المضخات ثلاث، ونحن أربعة، أنا وأفراد أسرتي نستحق مضخة وعشرة أفدنة حسب توصية اللجنة، فكيف الحال بثلاثة من المزارعين وأمامهم مضختان؟ وهنا دبّ الخلاف بينهم وحتى لا يتطور الخلاف، فقد اتفقوا فيما بينهم على حسمه، حتى لا يفسحوا المجال للأعداء ــ المقصود بالأعداء أنا وأهلي ــ وعليه فقد قرّ رأيهم على أن يأخذ اثنان كل واحد منهم مضخة وعشرة أفدنة، أما الثالث فله الثلث من كل واحد، في الأرض والمضخة. وحتى لا يصبح هذا الاتفاق مجرد كلام، فقد استعانوا بكاتب المحكمة عبد الدائم عبد الحي، ليخط لهم اتفاقاً يمهرونه ببصماتهم، ويشهدوا عليه الشهود. وقد كان.

بعد ذلك رفعوه الى اللجنة التي عرفوا طريقها، وأين تعقد اجتماعاتها، وقد فهموا، أن صواباً أو خطأ، أن الحكومة قد شكلت اللجنة من أجل إنصافهم هم وظلمي أنا.

كانت توصية اللجنة كما رواها عادل، الذي نشط في التقاط الأخبار من بعض المتعاطفين معنا، كالشيخ محمد أحمد، هي أنهم سيمنحون اثنين منهم كل واحد منهما مضخة وعشرة أفدنة، أما الثالث فسوف يمنحونه مضخة وعشرة أفدنة، في مكان آخر، هذا الاقتراح من اللجنة بدأ معقولاً ومنصفاً، ولكن لأن من عادة البشر أن يطمعوا فيما هو جاهز أكثر من طمعهم في شيء ما زال في طي الغيب فقد ساورهم الشك في أن تفي الحكومة بوعدها بالنسبة للمزارع الثالث ولأن كل واحد منهم لا يعرف من هو الثالث الذي سوف يمنح أرضاً ومضخة في مكان غير الجزيرة فقد تمسكوا بقرارهم الذي رفعوه الى اللجنة تمسكاً شديداً، ودافعوا عنه دفاعاً حاراً، ووقفوا بقوة وصلابة أمام أي رأي آخر، ولما كان لرأيهم اعتبار خاص، ولما لم تكن اللجنة سوى مجموعة من الموظفين، معرضين للتطهير إن هم تهاونوا أو

تقاعسوا في تنفيذ مطالبهم، فقد رضخت اللجنة لرأيهم، واستقروا على رفعه كتوصية نهائية للوزير، رغم استياء كمال الذي وعدهم بتنفيذ ما يقول، لأنه كان يخطط لنزع أرض جديدة في مكان آخر.

وقد سرت عدوى الكلام في كل مكان، وتحرك كل واحد ليحصل على أرض ومضخة بأسهل الطرق، وهجر التجار وأصحاب المهن والموظفين عملهم، وراحوا يطاردون اللجنة ليحصلوا على أرض ومضخة في مكان ما بعد أن تنزع من صاحبها، وظهر النعيم والثراء والصحة على أفراد اللجنة، لكثرة الولائم وما يتدفق في جيوبهم من المال، كان الناس يسرعون في سيرهم وكأنهم منطلقون الى موعد هام، وفجأة يتوقفون في مكان ما ليتكلموا ساعات وساعات، وما دام الكلام لا يكلف شيئاً، وما دام هناك وقت وفير لا يعرفون أين يقضونه، فقد وجدوا في هذه الأحاديث ما يحقق رغبتهم في الكلام، وهو كلام مثير، لأنه يتعلق بأحداث ومصالح تتعلق بأفراد يعرفونهم وهذا ما يضاعف من إثارتهم وفرحتهم، إنهم يتحدثون عن أحداث لم يألفوها من قبل، لكنهم يتناولونها ويحللونها وكأنهم ضالعون فيها للدرجة التي لا يعترف فيها بعضهم لبعض.

قال لي سعيد هلال:

— ما هذا الذي سمعته يا شيخ العوض؟

— لا أدري يا شيخ سعيد، إنهم يحاولون طردي من الجزيرة.

— آخر زمن — ! !

— شيء هين ما نراه الآن، خوفي على من سيأتون بعدنا، إن زمناً قاسياً سوف يأتي، إني أرى بوارقه تلوح في الأفق.

— نسأل الله أن يحسن ختامنا ! !

— آمين.

صمت لحظة، ثم قال لي وهو يبتسم ساخراً:

— لقد عشت عمرك كله، وأنت بعيد عن الحكومة والسياسة، ماذا أنت فاعل الآن، وهم في عقر دارك؟ سلاح وجنود!!

— سوف ترى يا شيخ سعيد! تعال واشرب معي فنجان قهوة.

وسرنا متمهلين صامتين، كان اليوم حاراً، والأرض متوهجة فكأنها مفروشة ببلاطات من الألمنيوم اللماع الذي يخطف البصر.

٣

من المفيد لمن يقرأ هذه القصة ، أن يعرف شيئاً عن المزارعين الثلاثة الذين يعملون معنا ، وهذا ما سوف أفعله .

هؤلاء المزارعون ليسوا غرباء عنا ، أنهم من أبناء القلعة ، وقد لا يعرفونني حق المعرفة ، ولا يعرفون تاريخ الجزيرة ، أما أنا فأعرفهم منذ أن كانوا أطفالاً صغاراً وأعرف آباءهم وأجدادهم . .

أحدهم وهو فضل ، كان عمره نحو عشرين عاماً يوم أن أتصل بنا ، وهو قريب الصلة بالأسطى عبد الوهاب — رحمه الله — وقد جاء ليعمل معنا بواسطة صاحبي ابراهيم عبد الوهاب .

الثاني اسمه عثمان وهو في مثل عمر فضل ، وقد جاء ليعمل معنا بواسطة سعيد هلال وهو يعرف جميلة ، وهو صهرهم لأن هاشم سعيد متزوج من شقيقته رقية ، فكان كثيراً ما يذهب الى القلعة ليكون في ضيافة عادل وسعاد .

أما الثالث فاسمه جابر ، أعرف جده عبد النبي بلولة ، وأن كنت لا أعرف أباه فهو من عائلة شيخ ادريس ، وبذلك يكون على قرابة بعيدة مع زينب . وهذا الاخير كان وجهه يذكرني بوجه انسان أساء الي اساءة بالغة ، لا أدري متى ! ولكن صورته انطبعت في ذهني بهذا الانطباع الذميم ، فكنت لا أرتاح اليه . كان وجهه غامضاً بحيث لا أستطيع أن أقدر عمره ، أحياناً أقول أنه في العشرين من عمره ،

وأحياناً أقول أن عمره قد يكون أربعين عاماً ، أنه وجه من تلك الوجوه المجهدة والتي توجد بكثرة في بلادنا ، كان (مشلخاً) .. ثلاثة شلوخ بطول خديه ، لكن هذه الشلوخ لا تكاد تبين بين تجاعيد وجهه الذي لا لون له ، اذ يمزج بين كل الألوان ليخرج لنا لوناً معتماً هو بين الأسود والبني.

يأتي الواحد منهم ليزرع في الجزيرة ، وهو مسئول عن مضخة وعشرة أفدنة ، وعليه أن يحرث الأرض ، ويبذر البذور ، ويشرف على الري، ويحرس الزرع ويحصده وقت الحصاد ويقوم بدرسه وذره ونحن مسئولون عن المضخات وصياناتها وشراء قطع الغيار اللازمة لها ، وتوفير الجازولين والتقاوى ودفع الخراج.

عند تقسيم ايراد الزراعة ، يقسم المحصول الى اثني عشر قسماً ، قسمين لمالك الأرض ويطلق عليها (الأرضية) أما عشرة الأقسام الباقية ، فتقسم بالتساوي بين صاحب الأرض والمزارع ، فينال كل منهما خمسة أقسام ، وعلى صاحب الأرض أن يدفع للعمدة الخراج أو ما يسمى (مال الحكومة).

كان المزارعون سعداء معنا ، وقد جنوا أرباحاً لا بأس بها منذ أن شرعوا في العمل معنا قبل بضعة أعوام.

كان فضل عندما اتصل بنا ، لا يعرف من اللباس سوى رداء يتدلى إلى أسفل الركبة بقليل ، أسود لونه تحت أبطيه وخلف ظهره ، ويلبس تحته سروالاً . وقد تحول لونهما الى لون الطين من البلى والعرق والوسخ وكثرة الاستعمال ، وكنت أشاهده يجلس على حافة النهر ثم يخلع سرواله ، ويضعه بين يديه ، ثم يكب عليه ويفليه . كان يستغرق في عملية البحث عن القمل ، فيقبض على الواحدة تلو الأخرى ويقصعها ، وكان يتأكد من سحقها لدى سماع انفجارها بين ظفري ابهامه . ويسير حافي القدمين ، ربما بسبب ضيق ذات اليد أو من عادة أجبرته الحاجة اليها.

أنه الآن ، وبعد أن عمل معنا في الجزيرة ، يلبس كما يلبس عادل ، ثوباً ناصع البياض ، وتحته سروال قصير ورداء نظيف وعمامة وحزاء . وقد اشترى له حماراً هيأه كما هيأت أنا حماري من جميع لوازمه من سرج وفروة ولجام ، وقد عرف طريقة الى

مكتب البريد حيث يدخر أمواله ، وقد سمعت أنه يملك في دفتر توفيره مبلغاً يبلغ أربعمائة جنيه ، وقد بنى له بيتاً جميلاً في القرية ، ولديه في هذا المنزل مخزن كبير يخزن فيه محصوله حتى اذا ارتفع سعره ، أخرجه وباعه ، كان في أيامه الأولى انساناً مهملاً ، أما الآن فيقولون أن خاله درار الذي كان قد طرده من بيته ، أصبح الآن يسأل عنه ويتقرب اليه ، وقد يزوجه من ابنته صفية التي لم يكن يحلم بها ، ويقولون أن له أبياتاً من الشعر قالها في بنت خالته هذه ، وأنه يلتقي بها وقد يتزوجان قريباً .

وأما عثمان فقد كان يعمل راعياً لمواشي الشيخ عاشور ، وكان من الممكن أن يظل راعياً ، كل حظه من الدنيا لقمة خبز وجرعة ماء وثوب كل عام ، ودراهم معدودات تمنح له في المناسبات ، ولأنه كان من أقرباء سعيد هلال فقد عرف طريقه إلينا ، وأنه يسافر الى الخرطوم حيث ينزل هناك عند هاشم سعيد زوج شقيقته وأنه يبيع بعض محصوله هناك ويقولون أن شقيقته خطبت له واحدة من بنات المدن ، يرجع أصلها الى الشايقية المشهورات بجمالهن .

أنه الآن يجلس مع الأعيان ، ويقصده بعض من كانوا في يوم من الأيام أهل عز ويسار ، فجار عليهم الزمان فصاروا يقصدونه ويطلبون منه مالاً يستعينون به على قضاء ما يحتاجونه ، على أن يردوه له عندما تتيسر الاحوال ، والاحوال تتيسر عادة عندما يرسل الأبناء الذين يعملون في دواوين الحكومة لآبائهم ما اعتادوا على ارساله أول كل شهر ، انه الآن فرح بما صار اليه وهو لا يخفي سعادته وفرحه بأنه صار من أهل اليسار وولي نعمة من كانوا في يوم من الأيام اشرافاً وسادة .

وأما جابر ، فعندما اتصل بنا ، كان يريد أن يكون مظهره معقولاً ، وقد كان رب أسرة ، ولكن كانت ثيابه ممزقة وكثيرة الثقوب ، وأن الخيط والابرة قد عملا في أكثر من موضع ، وأن هناك رقعة كبيرة واضحة على ثوبه من خلفه رغم محاولته في أن يكون لونها كلون الثوب الذي يرتديه ، ولا أدري من أين تعلم تلك العادة التي منعته عنها ، وهي أن يظل واقفاً اذا جلس الناس ، واذا جلس جلس بعيداً على الأرض مقعياً كالكلب .

انه الآن يتعمد أن يجعل العمامة كبيرة ، وهي احدى دلائل العظمة عندنا ، ويتوشح بشال من ذلك النوع الذي استعمله ، وقد صار ميسور الحال لدرجة أن بعض المزارعين يأخذون منه ما يحتاجونه من حبوب وتقاوى . وفوق هذا أنه يأخذ مجلسه بين الناس سيداً محترماً يأخذ في الحديث ويعطى ، وكثيراً ما يصحب معه بعض أطفاله ، وقد لبسوا وأكلوا بعد أن كانوا عراة وجياعاً .

وجابر هذا من جاهر بالعداء نحونا ، وهكذا تعجبت لصدق شعوري نحوه منذ البداية ، وكدت انشغل بهذا السر المجهول من قوى الانسان الخفية ، هذا الاحساس والشعور يكون صادقاً لا لبس فيه ولا غموض . لقد منع عادل من أن يحرك أي شيء ، أو يباشر هو ومن معه أي عمل بحجة أن الأرض منزوعة منا ، وهي الآن في انتظار التقسيم ولا يجوز العبث بحق الغير لون من المنطق والأخلاق ، راج في تلك الأيام وليس لها في قاموس المنطق والأخلاق مثيل لها ، فتجلدنا بالصبر اذ لا سبيل الى عزاء أفضل .

وهكذا أصبح الوضع في الجزيرة يسوده الفوضى وعدم النظام ، فلا الأرض لي ولا هي للمزارعين ، ولا هي للحكومة ، لقد صار أمرها معلقاً أو مجمداً ، انها مثل تركة مهملة يسودها الاهمال والخراب والغبار ، ولكن كان في تصرفات الملاك الجدد ــ وهو اسم أطلق عليهم ولا أدري ان كان المقصود به التندر ، أو هو لقب يطابق واقع الحال ؟ ــ كان هؤلاء الملاك أقرب ما يكونون أصحاب الحق في الجزيرة منا ، لقد اكتسبوا هذا الحق لأن نصيبهم من الجزيرة والمضخات أكبر من نصيبنا ، لكنهم كانوا في الوقت ذاته لا يملكون حق التصرف وتحمل نفقات العمل وتبعاته . كان الوضع جامداً ، ويمكن القول بأن الضرر قد لحق بنا جميعاً ، نحن والمزارعون والدولة وأهل القرية ، كانت الجزيرة تغل وتنتج ، ولكن بعد أن نسف كل ذلك من جراء وشاية كاذبة وسوء فهم وتقدير ، فاذا نحن والمزارعون والحكومة في ضياع .

موسم الزراعة يقترب ، ونحن لم نستعد كما ينبغي أن نستعد ، المضخات صامتة ، والأرض يابسة ، وفوق هذا وذاك الحقد والكراهية والأذى .

كنا في شهر يوليو، نظرت الى النيل، لم يكن ينذر بالخطر الشديد، ولكن خطر في ذهني هذا السؤال:

— ماذا لو فاض النيل كما فاض في ذلك العام؟ ومن سيدافع عن الجزيرة؟ ومن يستطيع أن يبذل مثل ذلك الجهد ويضحي مثل تلك التضحية؟

سؤال جعلني في حيرة من أمري، فأنا قد صرت سلبياً، أو غير قادر على التفكير السليم، لقد شلت ارادتي وتزعزع ولائي للأرض والناس، ان انساناً ينتزع من داخلي ويلبسني شيء غريب عني.

٤

كنت أنا وعائلتي من عرفوا بأصحاب الحق المغضوب ، لقد ألقت الأحزان بظلها الثقيل علينا ، كنت أعرف أن جميلة تنفرد وحدها وتبكي بكاء حاراً ، وكنت أعرف أن عادلاً وسعاد قد أصابتهما خيبة أمل مريرة بعد أن كانت الأحوال قد استقرت وبدأت تبشر بمستقبل زاهر . انهما يتألمان في صمت ، وأن من ينظر الى وجهيهما يدرك أنهما يتألمان ألماً عظيماً . بل أنهما يتمزقان لوعة وأسى ، أما زينب فقد كانت صابرة متجلدة ، وتطلب منا أن نتوكل على الله كانت تقول ذلك خوفاً على عادل من أن يحدث له حادث ان هو تألم أو غضب ، أما أنا فقد حاولت جاهداً أن أخفف عن نفسي وقع المصيبة ورحت أطمئن النفس بأن الأمر لا يعدو من كونه مجرد غمة سرعان ما تنقشع وتعود المياه الى مجاريها ، ووطنت العزم على الصبر حتى يصدر قرار اللجنة النهائي .

كانت الأخبار والاشاعات تتضارب ، وكنا قد سمعنا من جملة ما سمعنا أن اللجنة قد تراجعت عن قرار النزع والتقسيم بعد أن درست الأمر دراسة متأنية ، وسمعنا بأنهم قد اقتنعوا بأن الجزيرة أصغر من أن تنزع منا وتقسم بين المزارعين ، وهي فكرة معقولة ومنطقية ، وقد وجدت هوى في نفوسنا .

صار بيتنا في القلعة كبيت فيه مأتم وهو يشهد حركة مستمرة من المواسين وهم يطلبون منا التوكل على الله والتمسك بالصبر ، وظل الشيخ سعيد هلال يلازمني بصفة مستمرة ، حتى اذا أقبل الليل ذهب ونام مع ابنته جميلة في دارها . لقد وجدت في رفقته عزاء وسلوى . وكان يلتقط الاخبار والأنباء . وذات يوم قال لي :

ـــ عندي لك خبر سار!

ـــ ان شاء الله خيراً.

ـــ خيراً. أعطني مائة جنيه، وأرد لك جزيرتك كاملة.

ـــ كيف؟

ـــ ان اللجنة لم يقتصر عملها على جزيرتك فقط، لقد لحقوا ببعض الملاك في المناطق الأخرى من المديرية، وصار كل واحد من هؤلاء الملاك يدفع مئة جنيه فيستخلص أرضه، وذلك بأن يرفعوا تقريراً يقولون فيه: أن الأرض على قدر أصحابها، وينتهي الأمر.

ـــ كيف يتم ذلك؟

ـــ هناك موظف صغير اسمه صديق، انه حلقة الوصل بين اللجنة والملاك، أذهب وأتفق معه وينتهي الأمر.

ـــ لن أفعل ذلك.

ـــ لماذا؟

ـــ لأنني مؤمن بحق، ولأن هذا العمل حرام، والخطأ لا يعالج بخطأ مثله. اننا أن فعلنا ذلك نكون قد شاركنا في جريمة بشعة.

ـــ أي جريمة يا أخي العوض؟

ـــ تحطيم الروح في الانسان السوداني الى الأبد.

ـــ يا العوض الزمن تغير، وما تحطم كثير.

ـــ كل شيء يمكن معالجته، الا افساد الناس وتلويث ضمائرهم.

علق بحزن وحسرة:

ـــ كنت أعرف أنك لن توافق على ذلك، كنت أعرف

ـــ ومع ذلك سوف أفكر في الأمر.

نظر إلي بدهشة واستغراب، وهو لا يكاد يصدق.

فكرت أحياناً بأن أحتج لدى الحكومة، وأن أحكي لها قصة كفاحي من أجل الجزيرة وأعوام الصبر والفقر والخوف، كنت أريد أن أقول لها:

— لا يجوز أن يجني الكسالى حصيلة جهد الآخرين!

ولكن قلت في نفسي:

— يجب أن أنتظر قرار اللجنة، وفي ضوء قرارها يمكنني أن أتصرف.

وصدر قرار اللجنة أخيراً وكان مخيباً لآمالي وآمال أهلي، فقد أقرت اللجنة، ما كان مجرد شائعة لا يصدقها عقل، ولا يقرها عرف أو قانون، فقد أوصت بإعطاء المزارعين ما طلبوا، ومنحتني أنا وأهلي مضخة وعشرة أفدنة، ومنحت مضختان وباقي الأرض للمزارعين، وقالوا:

— ان هذه التوصية سوف ترفع لسيادة الوزير، وعندما يقرها فسوف يرفعها لمجلس الوزراء ليقرها نهائياً، وبعدها يصبح النزع والتقسيم قراراً سارياً وملزماً لجميع الاطراف.

لقد اتضحت الحقيقة أخيراً، ولم يعد هنالك مجال للشك، بدأت أحس بمرارة وغصة في الحلق، ودب الاعياء في جسدي ولم أعد قادراً على الوقوف أو التفكير الحكيم وصحت:

— سوف أقتلكم جميعاً!

— لكننا مجرد لجنة شكلها الوزير.

— وأين هو وزيركم هذا؟ سوف أنتقم منه!

— ان الوزير لا دخل له في الأمر، انه ينفذ سياسة عليا أقرتها الحكومة.

— الحكومة تفعل ذلك، الحكومة جاءت لتحمي الناس، لا لتنهب وتسرق.

— من فضلك لا تسيء الى الحكومة، ان ذلك سوف يعرضك لمشاكل أنت في غنى عنها.

— لست خائفاً من الحكومة، فنحن من يصنع الحكومة، ثم قال ذلك، وسوف أحطّمها إن هي اعتدت على جزيرتي.

— لكنك لا تستطيع أن تحطم الحكومة، الا اذا استطعت أن تحطم العالم.

— لكنكم عندما تشتركون في تحطيم انسان غلبان مثلي، فانكم تشتركون في تحطيم العالم.

— يمكنك أن تستأنف القرار.

— نعم يمكنك ذلك.

كنت قد سمعت بهذه الكلمة من قبل، وفهمت منها أنه ما زالت أمامي فرصة للعمل؛ وان أنسى لا أنسى تلك الابتسامة الماكرة والباهتة التي ارتسمت على وجه كمال، لقد صحت بهم أن يغادروا الجزيرة فوراً وقلت لهم:

— ان المرارة التي جرعتها اليوم، سوف تنطلق في يوم ما، وسوف تنشر رعباً قاتلاً تدفعون ثمنه.

غادرت اللجنة الجزيرة، وجلست أنا على الأرض غير قادر على الحركة، كانت محنة قاسية، والضربة قاصمة، والفاجعة أكبر من أن أحتملها، وفي موكب حزين أخذتني المجموعة الى القلعة وأنا أترنح وأكاد أقع مغشياً علي، وهناك في غرفتي استلقيت على السرير، وقد انصرف الجميع ليحزن كل منهم بطريقته.

شعرت بأن الجزيرة بعيدة عني، كعزيز ووري الثرى، فامتلأ كياني بحزن هائل، وما هي الا لحظات حتى أحسست بأن وجهي من الجهة اليسرى قد أصبح جامداً وثقيلاً، وأنني غير قادر على فتح عيني اليسرى أو تحريك فمي بالكلام، انني الآن على وشك أن أصاب بشلل نصفي، ان لم أكن قد أصبت فعلاً، كانت عيني اليسرى جامدة لا تتحرك، ولكن أحداً لن يلاحظ ذلك لأن حواجبي الغزيرة تخفي عيني، أما فمي فقد ارتخى وتمطى من الناحية اليسرى، ولكن أحداً لن يلاحظ ذلك أيضاً، لأن شاربي ولحيتي تخفيه، ولكن الأمر الذي لا يمكن اخفاؤه هو طريقة نطقي

للكلام ، لقد أصبحت عاجزاً عن النطق السليم ، فكانت الكلمات تخرج من في ثقيلة ومتعثرة ، وهكذا افتضح أمري ، وأدركت المجموعة من حولي الحقيقة المؤلمة .

آه ، لقد اعتراني الضعف .

كنت حتى هذه اللحظة أسير وأتحرك ، وقد عقد الأبناء العزم على أن يخففوا من مصابي حتى لا يتطور الأمر فأصاب بالشلل التام ، وأصبح غير قادر على الحركة ، لذلك فقد راحوا يخففون عني وقع المصاب بحديث يقوله الناس عادة في مثل هذه الظروف ، انهم يقولون :

ـــ الجاتك في مالك عتقتك .

هذا الكلام رغم موضوعيته الا أنه لم يخفف ما بي من مصاب ، لقد أصبت فعلاً في مالي ونفسي ، ان المال عزيز ، وهو أكثر معزة عندما يكون ثمرة جهد وعمل ، والانسان عندما يصاب في ماله وحقه ، وتكون هذه الاصابة ظلماً وعدواناً ، وأنه عاجز عن صد هذا الظلم وهذا العدوان ، فانه يتألم أكثر .

كنت في أيام الفيضان على وشك أن أفقد ايماني ويقيني عندما وطدت العزم على الغرق مع الجزيرة ان هي غرقت ، لكن الله لطف بي وأعاد إلي إيماني ويقيني ، فاذا كانت تلك هي حالتي مع قدر الله ، فكيف يكون حالي مع قدر الناس ؟

قلت في ذات نفسي :

ـــ لن أدعهم يأخذون حبة رمل واحدة من جزيرتي ، ولن أقعد طريح الفراش فيضيع حتى يجب أن أتحرك فالحق معي ، أنا الأرض والتاريخ ، وهم القشور والفقاقيع ، وسوف أنتصر .

كان هذا هو الهاتف الذي هتف بي ، والذي رددته في عجزي ومرضي .

طلبت من عادل أن يأخذني الى الجزيرة ، وعندما وصلت اليها ، طلبت منه بالاشارة أن يعود ليكون بجانب أهله هناك في القلعة ، فعاد .

كانت الجزيرة خالية ، والوقت ظهراً ، وقد بدت لي موحشة ، وزاد من وحشتها

أنني رأيت فجأة وفي الجانب الجنوبي من الجزيرة ، غباراً يدور في مكانه دورات سريعة ، ثم يندفع مسرعاً في اتجاهي ، وعندما اقترب مني توقف ثم دار حول نفسه دورات سريعة مرة أخرى ثم ارتفع في السماء ، ليصنع ذرات الغبار الضائع في وهج النهار وضوءه الخاطف.

كنت وحيداً وحدة قاسية ، فبجانب الألم الذي يعتصرني ، كانت الحرارة لاهبة ، والشمس في كل مكان حتى أنني لم أستطع أن أميز بين الأشياء ، لقد بهرني الضوء تماماً ، وارتعشت الأشياء في الحرارة ، لكن رأس الحربة وضريح الشيخ كانا واضحين لي تماماً. كنت قد انصرفت عن زيارة الشيخ لأن هذا ما طلبه مني ، اما الآن فقد قصدت ضريحه ، ووقفت أمام قبره وقرأت الفاتحة ، وترحمت على روحه الطاهرة ، ثم توجهت بعد ذلك الى الله سبحانه وتعالى أن يعجل بشفائي وأن يرفع عني هذا البلاء.

جلست بجانب الضريح ، تحسست جيبي ، فوجدت به تمرة ، أخرجتها ثم أكلتها بصعوبة بالغة ، وبينما كنت أمضغ فيها لفحتني حرارة الجو فشعرت بكآبة وفتور ثم رحت في اغفاءة قصيرة ، وأنا بين النوم واليقظة رأيت الشيخ ينهض من قبره ، ثم يقترب مني ويمسح على وجهي بيد رطبة تفوح عطراً ، ثم يقول لي بأسلوبه الواضح البسيط وهو يبتسم تلك الابتسامة الطيبة التي أعرفها عنه.

ـــ يا ولدي العوض ! ان الحكومة فيها رجال طيبون ، اذهب للخرطوم ، وقابل الوزير وأشرح له مشكلتك ، البلد ما زالت بخير.

وعندما أفقت كنت قد برئت تماماً والحمد لله ، وشعرت باطمئنان وثقة بأن الجزيرة لن تضيع مني. فرح الأولاد بشفائي ، وفرحوا مرة أخرى عندما طلبت من عادل أن يستعد للسفر معي الى الخرطوم لمقابلة الوزير واستئناف قرار اللجنة وشرح مشكلتنا له. كان هذا القرار مفاجأة عظيمة ، ومثار دهشة وفرح لا حد له. فهذه هي أول مرة في حياتي أترك فيها الجزيرة لسفر بعيد. لا شك أن الأمر خطير ، وهل هناك ما هو أخطر من أن تتعرض جزيرتي للسلب والنهب في وضح النهار بحجة

العدل والمساواة وهما كلمتا حق أريد بهما باطل ، وقد كان أصحاب عادل يداعبونه بقولهم :

— حاميها حراميها .

وهكذا نشطت زينب وسعاد وجميلة في أعداد ما نحتاج اليه في سفرنا من متاع وثياب وهو نشاط يستمد دفعاته من أن هناك حركة ايجابية تتخذ شكل الرفض والمقاومة — أو هكذا ظنوا — فما دام هناك اعتقاد يكاد أن يكون راسخاً في وجداننا من أن الحق لا بد من أن ينتصر ، فقد انتشى الجميع بتلك الرؤيا المبهمة ، وقد غمرتهم موجة من الفرح الغامر وكأن الجزيرة قد عادت الينا فعلاً ، وقد دعوا الله ضارعين مبتهلين أن نعود ظافرين غانمين باذنه تعالى .

كان الوداع حاراً ، فنحن ذاهبون في مهمة تتأرجح فيها آمالنا بين اليأس والرجاء كانت حالتي أنا وعادل تدعو الى الشفقة وارثاء مما جعل الدموع تنحدر في المآقي لتجفف بأردان ثيابهم ، وكنت ألمح زينب وهي تأخذ حفنات من التراب من أثر أقدامنا على الأرض لتنثره فيما بعد قريباً من قن الحمام ، حتى نعود بالسلامة .

٥

ذهبنا الى المديرية ، ومن هناك استأجرنا سيارة الى المطار ، كنت قد تخيلت أن المطار مكان مثير ، لكنني لم أجد سوى غرفة صغيرة في الصحراء ، تقف بالقرب منها الطائرة التي سوف تقلنا الى الخرطوم .

ركبت متن الطائرة لأول مرة في حياتي ، وكانت الطائرة صغيرة تتسع لما بين تسعة أو عشرة أشخاص ، وهي عبارة عن ماسورة ضخمة ولا يستطيع الراكب أن يسير فيها الا اذا انحنى ، وعندما أقلعت كانت كالمركب عندما يواجه رياحاً وأمواجاً فتمايل لكن المركب يشق عباب الماء فاذا حدث حادث فسوف نسبح حتى الشاطىء ، فكيف الأمر بالنسبة لتلك التي تسبح في الفضاء؟ وزاد من خوفي أنه كان يقودها قائد واحد ، ماذا لو حدث له حادث؟ شعرت برهبة في بادئ الأمر ، ولكن سرعان ما بدا لي كل شيء وكأنني قد اعتدت عليه منذ أعوام ، فالانسان لا يظل في دهشة أبداً ، شعرت بدوار بسيط ، وصداع خفيف ، ورغبة في التقيؤ ، ولكن بعد ساعتين تقريباً كنا قد وصلنا الى مطار الخرطوم بالسلامة .

أخذنا سيارة أجرة لنصل بها الى منزل هاشم سعيد ، كان عادل يحدثني أثناء الطريق عن أهم معالم العاصمة والتي بدأت بالعمارات والمباني الجميلة في حي المطار ، ثم مررنا بالخرطوم أثنين فالديوم الشرقية ثم السجانة . لقد شعرت بسعادة والسيارة تنطلق بنا وسط شوارع مرصوفة وميادين فخمة ، وكنت أراقب لوحات الاعلانات الضخمة عن السجاير والراديوهات والسفريات وغير ذلك حتى وصلنا

منزل هاشم بمدينة الشجرة. وقد أعجبني موقع المنزل لأنه كان قريباً من النيل الأبيض والذي يطلق عليه الناس (بحر أبيض).

لقد استقبلنا هاشم أحسن استقبال، كان منزله لا يختلف كثير عن منازلنا في القلعة، ولكن أثار انتباهي التصاق السقف بالجدار وقد اعتدنا نحن أن نجعل السقف مرتفعاً عن الجدار وذلك بوضع حجارة ترفع الدعامات والأعواد عن الحائط، وذلك خوفاً من الأرضية التي تستطيع أن تنحر فيه حتى تأتي عليه في غضون أعوام قليلة.

بعد أن ارتحنا قليلاً، وقدمنا لهاشم بعض ما حملناه معنا من القلعة من فول وشمار وثوم وحلبة وهي هديتنا له، وان كان المقصود منها أن تكون بديلاً عن تكاليف مغبة اقامتنا معه وهي اقامة بسيطة، تنتهي بانتهاء مهمتنا.

سألنا هاشم عن الأخبار، وكان قد ألم بطرف منها، وقد شرحنا له ما حدث، مرة أتحدث أنا ومرة يتحدث عادل. وتشعب الحديث وطفق هو من جانبه يحدثنا عما يحدث في المكاتب، فقال:

— لا أحد يعمل شيئاً، ومع ذلك فالنفقات باهظة، والأموال تضيع أو تختلس، أما الأوضاع الاقتصادية فنهارة، وهذا يقلق الحكومة وهم يسافرون الى بعض الدول العربية الشقيقة التي فتح الله عليها بالبترول يسألونهم بعض المعونات للتنمية، ولكن الشيء المؤسف بروز طبقة أرستقراطية من التجار، أكثر جشعاً من أي طبقة أخرى. وهناك المنتهزون والوصوليون الذين اندسوا وسط السلطة وراحوا ينشرون الفساد والارهاب. وما زلنا نقلب الأمر من وجوهه كافة وفي الواقع فقد انتاب الناس في تلك الأيام هوس السياسة، فكل واحد يكلمك بوجهة نظر مختلفة وكأنه يريد أن يؤلف معجماً خاصاً به يحلل فيه الأوضاع السياسية كما يراها.

طال الحديث وامتد حتى أقبل الليل فحمدت الله لأنني لا أرغب في الخوض في موضوع السياسة ما دام ليس هناك من يسمعه من المسئولين، لأن لهم هم أيضاً آراءهم التي لا يرضون لها بديلاً، كنت مرهقاً وأريد أن أنال قسطاً من الراحة،

ولكن النوم رفض زيارتي ، فكيف أنام وأنا أردد باستمرار ما سأقوله للوزير بشأن جزيرتي ، كنت أعرف أن اطالة الحديث مع هؤلاء الناس غير مجدية ، حيث أن هناك الكثير من المهام التي تنتظرهم ، لذلك فقد ركزت على أهم النقاط التي سوف أحدثه بها ، وكنت أنا وعادل قد أعددنا صياغة الشكوى التي سوف نرفعها للوزير وهذا نصها :

السيد المحترم وزير الزراعة .

تحية طيبة وبعد :

أنا عوض حاج النور ، صاحب جزيرة العوض ، هذه الجزيرة كانت عبارة عن مرتفع رملي صغير ظهر في وسط النيل قبل أكثر من ستين عاماً . وفي هذه المدة كنت أعمل على تعميرها واصلاحها ، حتى صارت على ما هي عليه الآن .

إن أسرتي تتكوّن من زوجتي وولدي عادل وزوجته سعاد وابنهما توفيق ، وجميلة زوجة المرحوم توفيق حوار الشيخ طه المنحول ــ المدفون بجزيرتي وقبره يزار ــ والذي كان شريكي في الجزيرة ، وقد مات غرقاً هو وابني عصام ــ رحمهما الله ــ وذلك عندما كانا يقومان بواجب الدفاع عن الجزيرة عام الفيضان .

وقبل أيام تكونت لجنة بتوصية من سيادتكم ، أثر شكوى باطلة فحواها أن الجزيرة منطقة كبيرة ، وقد قررت اللجنة هذه منحي مضخة واحدة وعشرة افدنة من جملة ثلاثين فداناً وثلاث مضخات أملكهم ــ ولم أسدد أقساطهم بعد ــ وأوصت بالباقي لثلاثة من المزارعين العاملين معنا .

أرجو من سيادتكم أن تدرسوا الأمر على حقيقته ، لأن الجزيرة صغيرة ، وهي على قدر أفراد أسرتي المذكورين أعلاه ، وهم سوف يظلمون ان هي نزعت منهم ، كما أنني سوف أشعر بغبن شديد وأنا أظلم كل هذا الظلم في ظل حكمكم العادل .

انني على يقين من أنكم سوف تولون هذا الأمر ما يستحقه من عناية واهتمام والله ولي التوفيق.

والسلام

مقدمة: عوض حاج النور سليمان

لقد ابتسمت في غبطة وسعادة وأنا أقرأ هذه الشكوى التي استوعبت وأوجزت، تفاءلت خيراً لتوافق العبارات الواردة في الشكوى دون قصد مثل: حكمكم العادل، وعادل ولدي، والله ولي التوفيق، وهناك توفيقان، توفيقا الكبير — رحمة الله — وتوفيقاً الصغير يرعاه الله.

وأخيراً تثاءبت، وعلى حين غفلة هجم علي النوم، فنمت دون أن أدري، وأنا أحلم بالجزيرة والتماسيح الصغيرة، بينما كان هناك تمساح كبير يزحف نحوي ليخنقني، فأفيق مزعوراً، ثم أنقلب وأواصل النوم.

٦

ما أن أصبح الصباح وأشرقت الشمس حتى توجهنا الى الوزارة التي يديرها الوزير المقصود كان أول ما لفت نظري ان المسئولين في الخرطوم يتخبطون. لكنهم لا يريدون أن يظلموا أحداً، كان هدفهم العدل والخير للجميع، وهي أهداف عظيمة، ومطمح كل حاكم عادل، ولكنهم في سبيل تحقيق هذه الأهداف كانوا يتعجلون النتائج حتى يرى الناس صنيعهم فيثنون عليهم وعلى حكمهم. وهم في حاجة الى هذا الثناء حتى يخرسوا ألسنة الأعداء المتربصين بهم في كل مكان. وقد قالوا لي: أن الأعداء هم المعارضة، ولم أكن أعرف أين توجد هذه المعارضة، فكل من كنت أقابله في الطريق كان يقرئني السلام ثم يبتسم في رضى وينصرف.

قصدنا مكتب الوزير، وهناك قابلنا السكرتيرة، كان من الضروري أن أتوقف قليلاً لاتحدث عن هذه السكرتيرة من وجهة نظري في فهم الجمال الذي عرفته منذ زمن بعيد عندما التقيت بزينب ولكن لا يوجد مجال لمناقشة هذه القضية، ونحن في مثل تلك الظروف، لقد قادتنا السكرتيرة الى مكتب مدير الوزير وهو شاب وسيم وحليق يتراوح عمره ما بين الخامسة والعشرين والثلاثين، وقد أشار علينا بالجلوس حتى يدبر لنا أمر مقابلة الوزير، اعتقدت أن الوزير هنا ليقابلني أنا فقط، وأنا محق في اعتقادي هذا، ما دامت مشكلتي أكبر من أي مشكلة أخرى، فأنا قد حضرت من جزيرتي البعيدة لأقابله وأعرض عليه قضيتي لينصفني، وهكذا رأيت في الانتظار هذا أمراً غير طبيعي، لذلك فقد توترت أعصابي والتي كانت متوترة أصلاً، فارتفع صوتي، ويبدو أن صوتي المرتعش والمتهدج قد أثار انتباه الوزير في الغرفة المجاورة

ففتح الباب وأطل علينا. صمت واتجهنا بأبصارنا نحوه، فتقدم نحونا وهو يبتسم ابتسامة ودودة، وكما أثاره صوتي، فقد أثاره أيضاً منظري كما يبدو، وقد رأى في حضوري هنا لمقابلته أمراً جديراً بالاهتمام نظراً لكبر سني وفي الحقيقة فقد كان الوزير شاباً في الاربعين من عمره، سمح الأخلاق، أو هكذا بدا لي، باشاً وودوداً، وقد استقبلني أنا وابني عادل أحسن استقبال، ثم التفت نحو مدير مكتبه وقال له مازحاً.

— لا ينبغي لآبائنا أن يطلبوا الاذن بالدخول، ان لهم الحق في أن يدخلوا على أبنائهم وقتما يشاؤون.

أشار علينا أن نتبعه الى مكتبه، فتبعناه.

كان مكتب الوزير عبارة عن غرفة لم ار مثلها في حياتي، فقد كانت أرض الغرفة مفروشة بالسجاد. والنوافذ تتدلى عليها ستائر ذات لون أزرق جميل وفي الخلف توجد منضدة مستطيلة مفروشة بالقطيفة الخضراء، أشار الينا أن نجلس، فجلسنا على أرائك وثيرة، وما هي الا لحظات حتى دخل علينا أحد العاملين وقدم الينا شراباً بارداً من عصير البرتقال فرشفناه على مهل، والآن وقد هدأ روعي وشعرت بالسكينة والهدوء سألني عن مشكلتي.

وضعت الكوب أمامي على منضدة صغيرة، اعتدلت في جلستي، ثم مسحت فمي بأردان ثوبي، وشرعت أحدثه عن مشكلتي، مبتدئاً بعرض سريع لتاريخ الجزيرة، ثم ما تعرضت له أخيراً من محنة النزع والتقسيم، كان طيلة الوقت يصغي الى بكل اهتمام، لم أكن اتصور أنني سوف أجد كل ذلك الوقت وكل ذلك الصبر منه لأسترسل في الحديث معه، بحيث أنني لم أترك شاردة أو واردة الا وذكرتها له، حتى أوفيت قضيتي ما تستحقه من شرح وتوضيح، وختمت حديثي بأن نهضت وقدمت اليه صيغة الشكوى التي كنت قد سطرتها اليه، فتناولها مني بكل اهتمام وترحاب، رمقها بنظرة سريعة، ثم سألني ان كنت قد فرغت من حديثي فاجبته بالايجاب.

سرح ببصره قليلاً ، تناول قلماً فنقر به على المنضدة عدة نقرات ثم جر نفساً عميقاً ، فقال لي وهو يبتسم :

— اننا حتى الآن لم نقم بنزع جزيرتك ، ان الأمر كله قيد البحث والنظر وأنني أعدك بأنني سوف أكون عادلاً في قراري ، وسأبذل قصار جهدي لمساعدتك بأسرع فرصة ، وكحل سريع فسوف أعطيك خطاباً تقوم بموجبه بالزراعة والاشراف على المضخات حتى يصدر القرار النهائي ، وثق بأنه سيكون في صالحك ، فالقضية واضحة ، ولكن يبدو أن هناك سوء فهم ، وسوء الفهم هذا ليس قاصراً عليك أنت وحدك ، وانما هو سوء فهم يعمل على تعطيل كل شيء وافساده .

ضرب على الجرس ، فأقبل مدير مكتبه ، كتب له خطاباً موجهاً الى السلطات المحلية بالمديرية يأمرهم فيه بما قاله لي ، ثم ناوله الخطاب حتى تقوم السكرتيرة بطبعه ليوقعه بيده ، وقد تم كل ذلك بسرعة واتقان ، كان فرحي بهذا الخطاب عظيماً ، وقد قال لي :

— عد يا والدي الى جزيرتك ، وباشر فيها زراعتك وعملك كالمعتاد .

شكرته ونهضنا لمغادرة الوزارة بعد أن أنجزنا المهمة التي جئنا من أجلها ، نهض هو أيضاً وودعنا ، وتمنى لنا السلامة ، وغادرنا مكتبه فرحين متهللين .

قال لي عادل ونحن نغادر الوزارة :

— يا له من وزير طيب .

قلت له :

— انه مثل الانجليز .

سألني بدهشة :

— كيف ؟

قلت له :

ـــ كان الانجليز يصدرون الأوامر والقرارات الظالمة ، ثم يتركون أمر تنفيذها الى المأمير وغيرهم من المسئولين ، وعندما يلجأ اليهم المواطنون مظلومين ، يجدون عندهم الانصاف والعدل ، فيخرجون داعين لهم بطول العمر ، وطول البقاء.

ـــ هذه اذن سياسة انجليزية!

ـــ طبعاً ، يصدرون الأوامر والقرارات ويتراجعون عنها ، بعد أن يرجعوا اللوم الى غيرهم.

ـــ صدقت يا والدي.

طلب مني عادل أن نتجول قليلاً في سوق الخرطوم ، فسرت معه ، كان السوق الافرنجي كبيراً وعامراً ولامعاً ، لكنني لم أشعر بالدهشة ، ويخيل لي لو أن انساناً بعث من أعماق الماضي السحيق ، لما وجد هناك ما يثير دهشته ، لأن العقل البشري قد استوعب أكثر بكثير مما نراه ونلمسه ، وسرعان ما شعرت بالضجر والتعب من الزحام والضجيج وحر يوليو. كانت السحب تتجمع في السماء فتحجب الشمس فيبرد الجو لحظة ، ولكن سرعان ما تتفرق السحب ، فتظهر الشمس فتلسعنا حرارتها الملتهبة. وزاد من استيائي أن السيارات كانت وهي منطلقة تمر فوق مياه الأمطار المتجمعة على أطراف الشوارع ، فيتناثر رشاشها علينا ، فتتلوث ثيابنا ، فطلبت من عادل أن يعود بي الى المنزل ، وعدنا.

وفي المنزل صليت الظهر ، وشعرت بحنين الى الجزيرة ، فسألت الله أن ينتقم ممن كانوا السبب في تعبي واقلاق راحتي ، استلقيت على السرير لأنال قسطاً من الراحة ، وبعد قليل حضر هاشم وهو يحمل بعض الصحف اليومية ، سألنا عن نتيجة مقابلتنا مع الوزير ، فقصصنا عليه ما حدث فسر سروراً عظيماً ، وقال :

ـــ لقد تحدث معي الأخ آدم سعد الله المحامي ، وعندما سمع بحضورك وعد بأن يحضر في مساء اليوم ليسلم عليك.

ـــ جزاه الله كل خير.

قرأنا بعض الصحف، ثم تناولنا طعام الغداء، واستلقينا لننال قسطاً من الراحة كعادة أهل المدن، وقد عزمت كل العزم على العودة للجزيرة في اليوم التالي، وهذا ما جعلني أشعر بالسعادة والفرح.

في المساء توقفت اذاعة أم درمان، وراحت تبث بعض الأناشيد الوطنية والمعزوفات العسكرية.

صاح هاشم وهو يصغي الى الراديو بقلق:

— إن انقلاباً قد حدث بالبلاد.

وفجأة وجدت نفسي وأنا واقف أصيح:

— الله أكبر، ان الله يمهل ولا يهمل، كنت أعلم أن الله سوف ينتقم من هذه الحكومة الظالمة، وأنه سوف يذيقها من بأسه جزاء ما اقترفته في حقي من ظلم وأهانة.

ابتسم هاشم ابتسامة حزينة وقال:

— لكننا يا عم العوض لم نعرف حتى الآن هوية هؤلاء الانقلابيين.

— لا يهم، فليس هناك ما هو أسوأ من هذه الحكومة، حكومة ملعونة، فلتذهب في ستين داهية.

— يا عم العوض، اجلس، واسترح قليلاً.

جلست، وبعد أن هدأ روعي قليلاً سألته:

— وماذا سيكون مصير اللجنة التي شكلت للنظر في أمر جزيرتي؟

— سينتهي أمرها بالطبع.

— وكمال!

— سيعود الى عمله السابق، مجرد موظف كما كان.

— الحمد لله.

وما هي الا ساعات قليلة حتى بدأ المذيع يكرر بلاغاً يقول فيه :

— سيداتي... سادتي ، سنذيع على حضراتكم بياناً هاماً بعد قليل .

لم يعد هناك أي لبس أو غموض أن البلاد تشهد انقلاباً حقاً ، فالتففنا حول الراديو في انتظار سماع ما سيأتي به ذلك البيان فيروى غليلنا ، تململنا في ضجر ويأس ، وخفقت قلوبنا لوعة وأسى ، فأنا — رغم كراهيتي للحكومة — أكره العنف ، فسألت هاشم بقلق :

— هل سيقتلون بعضهم؟

— طبعاً .

— هل سيموت الكثير؟

— لا أدري ، ان ذلك متوقف على ما ستأتي به الساعات القليلة القادمة .

— وما رأيك؟

— أنا أكره اراقة الدماء .

— وأنا أيضاً يا ولدي .

— أنا أعتقد يا عم العوض ، أنه لا شيء في هذه الحياة يستحق أن يشترى بالدم ، ان دم رجل واحد هو أثمن من حرية الجنس البشري بأكمله .

— صدقت انها السياسة .

— فعلاً ، فقد أضحت السياسة قدراً لعيناً ، يتمدد ويلتف حول الكثيرين من المتهورين والطامعين في الحكم ، وعندما نرى ما فعله قدر السياسة اللعين في بلادنا اليوم ، نسأل أنفسنا برعب عما سيفرضه على الآخرين في الغد .

— الحمد لله ، فمنذ أن نشأت وأنا أتجنب السياسة .

— أما نحن ، فلا بد من أن نخوض في السياسة لأنها تصنع مصير البلاد .

— أنتم أحرار ، أما أنا فلا سياسة عندي غير الجزيرة .

ضحك هاشم وعلق ساخراً :

— ولكن جزيرتك وقعت فريسة في يد السياسة .

— صدقت ، فقد هان أمر الحكم وأصبح شيئاً لا سمو فيه ولا رفعة ، شيئاً فقد بريقه واصبح يسعى لينتزع مني جزيرتي .

ضحك هاشم وقال :

— سوف أخرج ، وأعود بعد لحظات ، علني أجد خبراً عن حقيقة هذا الانقلاب .

— تفضل .

خرج هاشم ، ثم عاد وقال لنا :

— لقد نجح الانقلاب ، وتم القبض على جميع أفراد الحكومة ، من رؤساء ووزراء ، وكذلك جميع الضباط ممن هم في الرتب العسكرية العالية ، ومن ضمنهم جاري العميد مصطفى . ان زوجته آمال تستقبل الآن بعض جاراتها ومن ضمنهم رقية زوجتي ، واللائي رحن يسألن عن الحادث وهي لا تفتأ تشرح لكل من يسألها ، والدموع تسيل من عينيها وهي تقول :

— لقد أخذوه وهو لم يكمل طعامه ، ولم يسترح .

ثم تجفف عبراتها ، وتقول :

— لقد خفت أنا ، وخافت أمه ، وخاف الأطفال ، وهم يسوقونه بقسوة ، لكنه التفت الينا وقال :

— لا تخافي يا أمي ، فأنا لم أفعل أي شيء ، ولم أشترك مع أي فريق في أي شيء سوف يطلقون سراحي قريباً ، فأنا بريء ، وأنتي يا زوجتي العزيزة كوني على يقين من أنني سوف أعود سريعاً فأنا لا أعرف سوى الواجب ، أرعي الاطفال في غيابي ، ولا تخافي… وداعا ، والى اللقاء .

— قلت هل قبضوا على جميع الوزراء؟!

ـــ نعم.

ـــ وهل قبضوا على وزير الزراعة؟

ـــ طبعاً.

ـــ أرجو ألا يصيبه أذى أو يلحق به مكروه، فقد عاملنا معاملة طيبة.

ـــ أرجو ذلك.

ـــ هاشم!

ـــ نعم يا عم العوض.

ـــ أنني أشعر يا ولدي بأنني أمام شيء أكرهه.

ـــ وأنا كذلك.

وبعد قليل حضر آدم سعد، وقد استقبلني مازحاً:

ـــ لقد أتيت يا شيخ العوض لتقلب الحكومة، لأنها نزعت جزيرتك.

ـــ لقد قلبها الله.

اعتدل في جلسته وقال:

ـــ اننا في انتظار ما سيأتي به بيانهم هذا.

سألت آدم سعد عن رأيه، فقال:

ـــ ان أول من ابتدع هذه الانقلابات العسكرية هم الامريكان، ذلك عندما خافوا من الحركات الوطنية في أمريكا اللاتينية، فظنوها حركات شيوعية، فأوعزوا للجنرالات أن يسيطروا على الحكم وقد كان، وقد جاراهم الروس في ذلك، فصنفوا الانقلابات الى انقلاب تقدمي وآخر رجعي.

ـــ اذن هذه الانقلابات أما أن تكون طبخة أمريكية أو روسية؟

هز رأسه وقال:

— لا .. فمن الجائز جداً أن تتحول هذه الانقلابات في كثير من الدول الى حكم وطني ، بعيداً عن نفوذ أي من القوتين .

وما زلنا نتحدث حتى أعلن المذيع عن أذاعة البيان ومن سيذيعه ، أرهفنا آذاننا ، وتتبعنا ما قاله قائد الانقلابات كلمة كلمة ، وقد وصف من كانوا يحكمون البلاد بالفساد والانحراف والاهمال وانهم فرطوا في حق الشعب ، ووعد الناس بعهد جديد من الحرية والديمقراطية .

علق آدم سعد ساخراً :

— غداً سيقول لنا ، لا حرية لأعداء الشعب .

قال هاشم :

— ان الكلام سهل ، ولكن العبرة بالتنفيذ .

قلت للمجموعة :

— ما رأيكم في أن نخرج معاً لنرى ما يحدث ؟

لكنهم اعترضوا على الخروج في مثل هذا الوقت من الليل ، واتفقنا على أن نرجىء موضوع الخروج لصباح اليوم الباكر حيث يكون كل شيء قد اتضح ، وهكذا بقينا نستمع الى الراديو وهو يرسل الأناشيد والمقطوعات العسكرية ، ويصدر بعض البلاغات والأوامر المتعلقة بحل بعض الأجهزة ، ويعيد اذاعة بيان قائد الانقلاب والذي أصبح حاكماً للبلاد من أقصاها الى أدناها ، بما في ذلك جزيرتي ، وأخيراً استأذن آدم سعد في الانصراف ، فسار معه هاشم حتى الباب الخارجي وودعه .

كنت مستلقياً على السرير في ساحة الدار ، رفعت رأسي الى السماء ، فرأيت النجوم نفسها التي كنت أراها وأنا نائم في الجزيرة ، ورحت أتابعها مستغرقاً حتى نمت .

٧

في صباح اليوم التالي للانقلاب وفي تمام السابعة صباحاً ، كنا نركب سيارة أجرة أنا وعادل وهاشم متجهين الى وسط العاصمة ، عندما وصلنا المحطة الوسطى كان باعة الصحف اليومية ينادون :

— جريدة الثورة... جريدة الثورة...

وهي صحيفة يومية صدرت باسم الثورة ، بعد تعطيل غيرها من الصحف ، اشترينا صحيفة ، وقبل أن نقرأ شيئاً ، كنا مدفوعين بتلك الرغبة الشديدة في رؤية صور من دبروا لذلك الانقلاب ، وبالتالي من سيحكمون البلاد. كان الصور تظهرهم شباباً صغاراً ، وقد كانوا كذلك حتى في ابتساماتهم وكأنهم نجوم من نجوم السينما ، وقد أحنى البعض رؤوسهم تلك الانحناءة الباسمة والمفكرة والتي يعتقد الشباب أنها احدى علامات العبقرية والنبوغ ، نظرت الى صورهم الضاحكة والمستبشرة وقلت في ذات نفسي :

— أي مصير مشرق أو مظلم ينتظرهم ؟ انهم ليس أكثر من لعبة في يد القدر ، قدر السياسة اللعين.

تلفت حولي ، فرأيت الناس في حيرة من أمرهم ، صامتين واجمين ، وقد سمعت بعضهم يقولون :

— انهم من اليمينيين.

— لا.. انهم من اليساريين.

— ولكن البعض يؤكد انهم من الوسط المعتدل.

كانت حركة الشارع بطيئة وثقيلة، مما يدل على العزلة التي يعيشها الانقلابيون.

طلبت من عادل وهاشم أن نذهب الى وزارة الزراعة فهي المكان الوحيد الذي يهمني أمره أكثر من أي مكان آخر، فهناك يتقرر مصير جزيرتي. وفعلاً بادرنا بالذهاب الى هناك.

لم يكن هناك نظام دخول أو خروج. كانت الفوضى هي السمة البارزة التي يلاحظها المرء لأول وهلة. كان الموظفون يقفون في تجمعات خارج مكاتبهم وهم يتحدثون بصوت مرتفع، ويكادون أن يلتحموا مع بعضهم البعض في معارك بالأيادي وغير الأيادي، بينما وقف البعض يشاهد ما يحدث أمامه دون مبالاة.

ذهبنا الى مكتب الوزير، فهالني أن أجد كمال علي عنبر يجلس مكانه أي مكان الوزير السابق، شعرت بالفزع والرهبة، كان رغم صغر سنه، وضعف بنيته مهيباً رهيباً، وقد رأيت مسئولين كباراً وهم ينحنون أمامه ويهرولون هنا وهناك لمجرد اشارة أو ايماءة تصدر منه، كان الاعداد يجري على قدم وساق لعقد اجتماع سريع مع جميع العاملين في الوزارة، لقد اختلط الحابل بالنابل، وتساوى المدير والساعي، وكل منهم يحمل كرسياً أو كرسيين ويسرع الى قاعة الاجتماعات ماراً بمن صار وزيراً بين يوم وليلة حتى يراه، ويعرف أنه من المؤيدين أو المتحمسين للحكومة الجديدة، وأعتقد أن كمالاً لم يكن يجهل الباعث الحقيقي لأي فرد منهم، ولو كنت في مكانهم لبقيت في داري معززاً مكرماً حتى تنجلي الحقيقة، ولكن ما يحدث الآن هو ايذان بانهيار أكبر القيم التي نعتز بها على مدى التاريخ الا وهي كرامة الانسان.

وسألت نفسي:

— من الذي عين كمالاً، لا بد أن يكون هناك خطأ ما، كنت أعتقد أن كمالاً سوف يذهب هو ولجنته الى غير رجعة، ولكن ماذا أرى الآن؟ لقد عاد وهو أكثر قوة، لا حول ولا قوة الا بالله، لقد انهارت بلادي وهي تفتح فخذيها لكل طارق!،

قلت لهاشم هامساً:

— انه كمال!

— نعم.

صحت بتوتر:

— لكنه واحد من أصحاب السلطة السابقة،

قال ساخراً:

— لا تخف على جزيرتك، فسوف ينسى أمرها بعد أن صار وزيراً.

وما هي الا لحظات حتى رأيت كمالاً يقف أمامنا، وعندما رأيته قرأت في سري آية الكرسي حتى يهدأ روعي.

نظر إلي ساخراً، ثم قال:

— اذن فأنت هنا كما سمعت.

— نعم، يا ولدي.

— وقد حضرت لتستأنف قرار اللجنة!

— نعم.

— ان الحقيقة التي تقول أن الأقطاعي لا يمكن أن يتنازل عن حق الشعب الا بالعنف الثوري هي حقيقة ثابتة لا تقبل الشك. وأنت بكل أسف واحد من أعداء الشعب.

— أنا!؟

وتدخل هاشم وقال بحده:

— يؤسفني أن أقول لك أنك بتصرفك هذا تسيء اساءة بالغة الى جميع المبادىء والأفكار. ان عم العوض ليس سوى مزارع بسيط، أنظر الى يديه الخشنتين المتشققتين، انها يدي مزارع يشتغل بالفأس والمجراف والمحراث.

وحتى لا يتطور الأمر قلت مهدئاً :

— أسكت يا هاشم ، ان كمالاً مثل ولدي ، غداً يكبر ويعرف الحقيقة .

ويبدو أن كمالاً قد تجاهل ما قاله هاشم لأنه على ما يبدو خاف أن يتطور الأمر ويبدأ عهده بشجار يخرج منه خاسراً ، لذلك فقد واصل حديثه قائلاً :

— لقد قامت هذه الثورة لتطهر الصفوف من الذين انحرفوا وخانوا قضية الشعب .

— لكنني يا ولدي لا دخل لي في كل ذلك .

— بل لك ، فالوزير الذي كان يعمل هنا ، قد وعدك برد جزيرتك اليك وهذا معناه أنه يشترك في خيانة الشعب .

— هل أنا من يتسبب في كل ذلك !؟

— اسمع يا شيخ العوض !

— نعم .

— انني وبحكم معرفتي الشخصية لك ، فأنني لم أقبض عليك وعلى من معك .

ونظر الى عادل وهاشم نظرة ذات معنى ، ثم استمر يقول :

— أنت رجل كبير ، ومثل والدي تماماً ، لذلك فأنني أنصحك بأن تعود الى الجزيرة ، وتنفذ قرار اللجنة لمصلحتك .

قلت له بألم وحزن :

— سوف أعود يا ولدي قريباً ان شاء الله ، عندما تهدأ الاحوال .

قال بقلق :

— أنصحك بالعودة سريعاً ، انك سوف تكون في أمان هناك ، فأنت لا تدري ما سيحدث لأعدائنا عنا ، نطق بكلمة أعدائنا وهو يعض على أسنانه ، ويلتفت حوله ، وكأنه يريد أن يسمعها لمن حوله ، ثم ختم حديثه قائلاً :

— اسمع ما أقوله لك وعد فوراً.

ثم التفت الى من حوله وقال:

— ماذا تنتظرون؟ هيا الى قاعة الاجتماعات لننتهي بسرعة حتى نخرج في موكب لاستقبال وتأييد قائد الثورة، هيا.

قال ذلك ثم اتجه مسرعاً الى قاعة الاجتماعات بالوزارة.

قلت لهاشم:

— ما معنى كل ذلك؟

قال بحزن:

— ان أي انقلاب يفرز مثل هذه الطحالب السامة في أيامه الأولى، دعنا ننتظر لنرى ما ستأتي به الأيام المقبلة.

غادرنا الوزارة وأنا أسير متهالكاً على نفسي، وأنا أستند على عادل، لقد كنا عاجزين امام بلاء لا ندري كنهه. اتجه ذهني لمراقبة الطرق والمباني، فرأيت جنوداً صغاراً يقفون في حزم وثبات وهم يمسكون ببنادقهم، لقد خيل إلي أنني أرى تماثيل مصبوبة، كتلك التي يلعب بها الاطفال. كانوا صامتين وجامدين، ما عدا العيون التي لا ترمش أبداً، وان كانت تتحرك لتراقب ما يجري هنا أو هناك انهم ينفذون الأوامر بحزم وشدة، ويعيشون اللحظات الحاسمة في تقرير مصير الحكم في البلاد، ولا شك في أن كل واحد منهم اعتقد أنه قد أصبح متألقاً ولامعاً، وأنه واحد من الذين يصنعون التاريخ في بلادي.

قال هاشم:

— نفهم من الكلام الذي قاله كمال، ان هناك مواكب تأييد للسلطة الجديدة، فلنذهب لنرى.

سرنا خلف وزارة الزراعة حتى وصلنا شارع القصر ومنه اتجهنا الى ساحة

الشهداء. وفي أثناء سيرنا كانت تمر بنا مواكب المؤيدين للحكومة الجديدة، وهي مواكب متفرقة وصغيرة.

كنا نقف في الساحة المواجهة للقصر، ويفصل بيننا وبينه شارع الجامعة، كنا نشاهد بعض العربات المدرعة والدبابات تقف عن قرب. كانت بعض السيارات تنطلق في اتجاهين بطول الشارع في اتجاه الشرق أو الغرب، وأحياناً يتوقف بعضها لينزل منها بعض العسكريين أو رجال السياسة ممن لهم مصلحة في التعاون مع الانقلابيين، وهذا النوع من الساسة موجودون دائماً ومستعدون للظهور في مثل هذه المناسبات ليقدموا خدماتهم. كان هناك أيضاً رجال الاعلام الذين حضروا ليغطوا هذا اللقاء ويتابعوا أخباره، ويبثوه عن طريق الاذاعة ليسمعه الناس في أرجاء البلاد كافة.

وأخيراً اعتلى قائد الانقلاب المنصه، لم يقف منتصباً، وانما وضع يديه على المنضدة ثم استند عليها وقد استقبلته الجموع بعاصفة من التصفيق والهتاف بحياته وحياة الثورة، وعندما هدأ التصفيق والهتاف ألقى عليهم خطابه فهاجم الحكومة السابقة ثم طلب منا أن نقف بالمرصاد لأي محاولة تحاول النيل من الثورة ثم حياهم وودعهم والجميع يهتف بحياته وحياة من معه.

كانت الساعة قد جاوزت الحادية عشرة، الحزن ران على العاصمة، ان كآبة قاهرة تستبد بها وأن هناك انقباضاً مبهماً يجاذب القلب، فقد كان الخطاب مخيباً للآمال، فالناس تريد أن تعرف التشكيل الجديد للوزارة حتى يكونوا على بينة من أمرهم، كانت شمس يوليو قد ألهبت الارض والجدران والوجوه في ضحى ذلك اليوم العصيب، كنت لا أستطيع أن أنظر الى أي شخص لأفهم منه شيئاً، كان ضياعاً تصنعه الشمس والعنف وزجاج السيارات المتوهج الذي يعكس أضواء تخطف البصر وتجهره لحظة ثم تبتعد. الجنود يقفون في الشمس صامتين، لقد قالوا لهم أنكم ذاهبون لحماية الشعب، والآن بدأ الشك يساورهم من أنهم ربما يكونون أداة قهر لارادة الشعب. لقد رثيت لحالهم والعرق يتصبب من جباههم ولا أحد

يسأل عنهم ، الناس في ثيابهم الواسعة والمغبرة كأعلام الهزيمة يسرعون بدون هدف ، وصبية صغار يبيعون الماء المثلج ليطفئوا ظمأ القلوب . الظل الذي تصنعه العمارات والأشجار لا يكفي ، فهو ظل جاف وحارق ، ولا نسمة هواء ، حر واختناق وعرق يبلل الوجوه والثياب وكان لا بد من أن نعود الى المنزل ، فعدنا .

وفي المنزل كانت الاذاعة هي المصدر الوحيد ، وهي مصدر ينطق باسم السلطة الجديدة ، ونحن نريد أن نعرف شيئاً عن مصير أفراد السلطة السابقة ، وبدأت أندم على سقوطهم وأتمنى عودتهم ففيها على الأقل وزير الزراعة ذلك الوزير السمح الذي أنصفني .

راقبت منزل العميد مصطفى ، لقد خفت الحركة فيه لأن الناس بدأوا يخافون زيارته حتى لا يجلبوا لأنفسهم تهمة هم في غنى عنها ، طلبت من هاشم أن يأخذني الى زوجته لأواسيها وأخفف عنها ، فوافق على اقتراحي وقال لي : انه هو أيضاً يريد أن يواسيها ويطمئنها على زوجها على أن نأخذ معنا رقية زوجته لتسهل علينا الزيارة فذهبنا الى منزلها ومعنا رقية .

استقبلتنا زوجة العميد مصطفى وقد ظهر على وجهها الاعياء والخوف ، كان الأطفال يتبعونها أينما سارت ، وهم أشرف وعمره سبع سنوات ، وهويدة وعمرها أربع سنوات وعاصم وهو أصغرهم وعمره لا يزيد عن العام ، وهي تحمله على صدرها . كانت آمال زوجة العميد مصطفى في الثلاثين من عمرها على قدر كبير من الجمال ، الا أنها في خلال الأربع وعشرين ساعة التي مضت على غياب زوجها الذي لا تعرف عنه شيئاً ، قد أفقدها الكثير من الحيوية وظهر عليها شحوب الخوف والألم ، وهم في مثل هذه الظروف لا يوقدون ناراً ، وهي عادة متبعة عندنا ، وهي دليل على حرمانهم من رب الأسرة الذي يأكلون ويشربون بوجوده ، انهم يتناولون الآن ما يقيم الأود ، وهو عبارة عن عجينة من الذرة تعد اعداداً خاصاً ، ثم تخلط بالماء ليشربوها في ساعات الأكل . أما الأطفال فهم لا يرضخون لهذا النظام لأنهم

صغار يتناولون ما اعتادوا عليه من طعام وان كانوا لا يشعرون بالرغبة في الأكل وهم يرون الدموع تسيل غزيرة من عيني أمهم.

طلبت منها أن تتذرع بالصبر، وأن توكل أمرها الى الله.

قالت لي بحزن:

— لا ذنب له، فهو لم يشترك في أي انقلاب من قبل، لقد جاءوا الى هنا وأخذوه منا، قلت لها مهدئاً:

— لا تقلقي، سوف يعود اليك بأذن الله.

قالت برجاء:

— ان شاء الله.

شكرتنا على الزيارة، ثم عدنا الى المنزل.

قلت لهاشم:

— هل يمكنني أن أقابل قائد الانقلاب؟

قال بدهشة:

— لماذا؟

أجاب عادل مازحاً:

— ربما يريد والدي أن يتحدث معه بشأن الجزيرة.

— لا يا عادل، انني أريد أن أقابله في أمر هام، أهم من الجزيرة!

سأل هاشم بدهشة:

— وهل هناك ما هو أهم من الجزيرة؟

— كنت أعتقد لا، أما الآن فانني أعتقد أن هناك أشياء أهم من جزيرتي.

— بصراحة يا عم العوض، ان مقابلة قائد الانقلاب في مثل هذه الظروف تعد أمراً مستحيلاً.

— لماذا؟

— لأنهم لم يفرغوا بعد من تأمين الحكم، ان الوضع لم يستقر بعد، وحياتهم تتأرجح بين الحياة والموت.

— أعرف ذلك، لكنني أريد أن أتحدث معه في أمر هام.

— ولكن ما هو هذا الأمر الهام!؟

— أريد أن أطلب منه أن يطلق سراح العميد مصطفى.

صمت لحظة، ثم قال بحزن:

— فكرة انسانية، لكنها مستحيلة التحقيق.

— هذه الفكرة مستحيلة التحقيق؟ لماذا؟

— لأن الانسان في بلادنا لم تعد له أي قيمة.

تذكرت جزيرتي، وقلت متمتماً:

— صدقت... صدقت...

في تمام الساعة الواحدة بعد الظهر، سمعنا جلبة ودوياً هائلاً، فأسرعنا الى الباب الخارجي حيث شاهدنا دبابة ضخمة هائلة، قيل لنا: أن اسمها (صلاح الدين) كان يطل علينا من الفتحة التي على سطحها شاب في حوالى العشرين أو الخامسة والعشرين من عمره، قمحي اللون ممتلىء الجسم قليلاً، ويميل الى القصر، وجهه مستدير، وعيناه واسعتان ويزيد من اتساعهما حالة الفزع التي يعيشها، وكان يخاطب من حوله بلهجة متوترة، كانت حركاته تنبىء عن فزع شديد، انها اللحظات الحاسمة بين الحياة والموت بين الهزيمة والنصر وكان يقول:

— ان الجيش قد خرج ليقضي على الانقلابيين، ويعيد الحكومة، هيا أخرجوا لتساندوه.

ثم يختفي داخل الدبابة، ويعيد الظهور مرة أخرى وهو يردد تلك العبارة، وقد

فهم الناس بسرعة أن الجيش قد انقسم. وأن صراعاً يدور الآن بين من دبروا الانقلاب وبين من يعارضونهم ويدافعون عن الحكومة السابقة، وأن الشعب هو من سيحسم القضية.

سألني هاشم:

— ما رأيك؟

— نخرج!

— ومع من نقاتل؟

— مع الحكومة السابقة طبعاً.

ضحك هاشم وقال مداعباً:

— طبعاً... ان فيها ذلك الوزير الذي أنصفك، وأعاد اليك جزيرتك، أما هذه، ففيها كمال!!

وبذلك الحماس التلقائي الذي لا يذكيه شيء انه ينبعث من تلقاء نفسه، ويشع كما يشع النور في الظلام، خرج الناس في أعداد لا حصر لها، لتصنع يوماً من أيامها الخالدة عبر الأزمان والقرون، وعاد السودان الى سابق جرأته، ولم يكن كما كنت أظن مثل امرأة تفتح ساقيها لكل طارق، انه الآن كشر عن أنيابه وقذف بأوحاله وغاباته ووحوشه وأشواكه ورماله ليحطم سطوة الفاشية ويعيد الحق الى نصابه.

خرج الشعب وهو يعرف دوره، انه ينطلق للقضاء على الانقلابيين، كانت هناك قلة تلهث جاهدة للابقاء على الحركة الانقلابية الحاكمة بكل ما تملك من قوة، لقد سمعت أحدهم يقول لرفيقه:

— لقد خرجوا للقضاء علينا.

— انهم يهمسون ويقولون، دعنا نقضي على هؤلاء أولاً، وبعدها يمكننا أن نقضي على الآخرين.

— هذا ما يقوله رجال الأحزاب البائدة ، والرجعيون والرأسماليون.

— لقد وجدوا يوماً يتحدون فيه ضدنا.

— أولاد الكلب ، سوف يدفعون الثمن غالياً يوما ما.

نظرت الى وجهه الحانق ، وقلت في سري متمنياً:

— ارجو ألا أحضر ذلك اليوم.

كانت هناك مجموعة ليس لها أي دور ، ولا تساهم في شيء ، انها مثل ذلك الجمهور الذي يذهب لمشاهدة حلبة مصارعة الثيران ، فيصفقون للثور ولطعنات المصارع في آن واحد.

تبرع أصحاب الحافلات بحافلاتهم لنقل الناس ، كان الطريق الذي يمتد من مدينة الشجرة وحتى مدخل كوبرى الحرية قد ازدحم بالخلق ، انطلقت بنا الحافلة التي كانت تموج بالخلق ، بحيث لم يكن هناك موضع لقدم حتى وصلنا وسط العاصمة عند تقاطع شارع الجمهورية ، وهناك رأيت بعضاً مما كانوا يحكمون البلاد قبل لحظات وهم يهيمون على وجوههم والشعب يطاردهم من شارع الى شارع ، ومن زقاق الى زقاق ، وقد أثار انتباهي الطريقة التي تم بها القبض على أحد قادة الانقلاب.

كان قصير القامة ، فاتح اللون وجميل الطلعة ، له جبهة واسعة ، ممتلىء الجسم ، يميل الى القصر ، في حوالي الأربعين من عمره ، كان قد تسلل من مكان ما ، ثم أقبل وهو يركض مسرعاً ، وهو يحمل مسدسه ، توقف أمام أحد المحال التجارية ثم أفرغ رصاص مسدسه في القفل فهشمه ، ثم دفع الباب ودخل ، لاحقه الجنود هناك ، دخلوا خلفه ، لكنه استطاع أن يصل الى السقف بواسطة سلم داخل على ما أعتقد ، وهناك جرت مطاردة رهيبة ولما كان السقف غير مرتفع ارتفاعاً شاهقاً ، فقد أجبر على الهبوط مرة أخرى الى الأرض حيث تم القبض عليه ، كان يمسك به جنديان لم يبلغ عمر كل منهما الثامنة عشرة من عمره ، وسرعان ما تولى أمره بعض الشباب الغاضب ، فصاروا يضربونه بأعواد الشجر على رأسه ووجهه حتى سال

الدم على جبهته الواسعة ، كان الذعر بادياً عليه ، لكنه كان متماسكاً وصامتاً ، لقد استكان تماماً ، ولم يبد أي مقاومة ، ربما أعتقد أن هذا السلوك قد ينقذه . أو ربما فجر اليأس في قلبه حزناً على مصيره ، جعله يرضى بقدره الذي صنعه بارادته ، ولا بد من تقبل النتيجة بروح سودانية سامية . لقد كان وديعاً مثل الحمل ، وهو الذي شارك في صنع ثورة ، وأخيراً دفعوا به الى سيارة من سيارات الجيش الصغيرة ، كما يدفعون بصندوق من القمامة وهم يصيحون :

— ايها الخائن الكلب .

الكراهية قد طفت على السطح بوجهها الذي لا يخطئه الانسان ، نوع من الكراهية والعنف لم نكن نعرفه ، وان كنا نسمع به ، أما متى ظهر عندنا هذا اللون من الكراهية التي تجعل من بعض أفراد شعبنا الطيب ، ارهابيين وجلادين ، فهذا ما لا أعرفه .

أشفقت عليه ، وأنا أنظر اليه مكوماً في صندوق السيارة الخلفي ، وهي تنطلق به كصيد ثمين وقلت في ذات نفسي :

— لقد كان خليقاً أن يصنع بخصومه أكثر مما يصنعون به الآن لو كان يملك القدرة على ذلك ، ما دمنا جميعاً نملك أن نفعل كل هذا الأذى .

قلت لهاشم :

— يبدو أن الانقلاب قد فشل !

يبدو ذلك .

طرق أسماعنا صوت رصاص يأتي من الجهة الشرقية ، فتتبعنا الصوت ، والجماهير التي تسرع أمامنا ، وكأنها قد انتشت برائحة الدم حتى وجدنا أنفسنا نسير في شارع النيل ، وكان البعض يصيح :

— لقد قتلوا جميع الضباط المعتقلين .

وفجأة قفز الى ذهني العميد مصطفى الذي لم أره ، ولكن تمت بيني وبينه مودة خاصة منذ اللحظة التي تعرفت فيها على زوجته وأطفاله ، وتمنيت ألا يصيبه أذى ، وصلنا الى المكان الذي كان يعتقل فيه أولئك الضباط ، كانت الجريمة واضحة للعيان ، فالدماء ما زالت تسيل ، ولم تجف بعد واطراف بشرية مبعثرة وأجزاء من جثث كان أصحابها أحياء قبل قليل. ساق مبتورة ما زالت ترتعش وهي تبحث عن صاحبها ، وصدر تكسرت أضلاعه والدم يتفجر منه غزيراً من عدة ثقوب أحدثتها طلقات عديدة من رشاش ، وبقايا أحشاء مندلقة ، هذا مستلقياً على ظهره ، باسطاً ذراعيه ، ويوحي منظره بأنه قد مات وهو يصرخ ، وآخر كانت اصابته مباشرة ، فبرزت عيناه من محجريها على وجهه وبدا موضعهما أحمر كاللحم النيء ، وساقان ، واحدة قد بترت من أعلاها والثانية لا يشدها الى جسمه سوى خيط رفيع من الجلد ، وفمه ملتو من صراخ الألم ، وآخر يصيح :

— اخواني ، اقتلوني ، اقتلوني ، اشفقوا علي ، لا تتفرجوا علي هكذا ، انني أتعذب ، وجسمي يحترق انني أنزف من الداخل ، ورئتاي ملأهما الدم... أريد ماء... ماء...

لكن وجهه كان قد غدا شاحباً شفافاً وباهتاً ، أحنى رأسه الى جنبه ، انتفض لحظة ثم كف عن الوجود.

وآخر يصيح متوسلاً :

— انني أموت... أموت... أريد أن أعيش.

ويكف عن الصراخ ، لأنه كان لا يعرف أنه يصرخ ، أنه مات.

قلت لهاشم وعادل :

— انني خائف.

قال هاشم :

— وأنا أيضاً.

وقال عادل :

— وأنا كذلك خائف .

استدرك هاشم وسألني :

— ممن تخاف يا عم العوض ؟

— هؤلاء الذين يقفون حولي ، انني أشعر بأنه لو لمسني واحد لأصبحت مسعوراً ، اننا نتعارك في وحشية لا يمتلكها قطيع من الذئاب .

قال هاشم :

— نعم ، ان ما حدث لا يمكن أن يقدم عليه انسان .

ان الصورة التي تم بها قتل هؤلاء الضباط والقادة سوف تظل الى الأبد صورة من صور الوحشية العمياء ، وكل ما تفعل الجريمة والعنف ، لقد قتلوا وهم يلعبون أو يقرأون ، وعندما قتلوا رأوا القاتل وهو يقتلهم ، فعرفوا أنهم مقتولون ، فارتسمت على وجوههم صورة من صور الرعب واليأس ، كانوا عزل وكان القاتل يحمل الرصاص كانوا يلعبون وهم بملابس النوم الخفيفة ، وكان القاتل قد أتى ليقتلهم ، وهو بكامل لباسه وعتاده .

سألت عن العميد مصطفى .

فقال لي هاشم وهو يؤشر نحوه :

— هو ذاك ، لقد مات ... لقد قتلوه .

نظرت اليه ، كان وجهه هادئاً ، لقد أنقذه ايمانه بقدر الله .

شعرت بحزن وألم ، وقلت بغضب :

— ملعون من فعل ذلك .

طلبت من هاشم وعادل أن نخرج من هذا المكان الذي يؤكد الموت الذي لا أطيقه وعدنا الى وسط العاصمة .

وهناك صاح أحد المارة :

— خائن . . . خائن . . .

رأيت فتى ، لا أدري من أين أتى ينطلق مذعوراً لدى سماعه لهذه العبارة ، وهو يحمل صندوقاً صغيراً لمسح الأحذية ، وما هي الا ثوان قليلة حتى اخترقت جسده العشرات من الطلقات النارية فخر على الأرض صريعاً ، فخرجت امعاءه من بطنه المفتوحة ، وتكومت على الأرض حمراء يتصاعد منها بخار الحياة ، وأمال رأسه الى الخلف ، وصاح في صوت مرتو من الألم والخوف :

— ألحقيني يا أمي .

انتفض على الأرض لحظة ، فاغرا فمه ، وعلى وجهه شحوب الموت ، وخيط من لعاب أحمر يتقاطر من فمه ، جحظت عيناه من محجريهما وثبتتا تحدقان في لا شيء ، لم يعد سوى كومة من اللحم البشري الممزق .

كان الجنود الذين أطلقوا عليه الرصاص يواجهون الشمس التي كانت تجنح الى المغيب في ذلك الوقت ، لأنهم لو امعنوا النظر فيه ، لتبين لهم أنهم أمام فتى صغير لم يتجاوز عمره العاشرة ، يرتدي عراقياً من الدموريه ملوثاً ببقع الأصباغ السوداء والحمراء والصفراء ، لقد راح ضحية عبث أحد رفاقه الذي وقف مبهوراً وهو يردد في خوف وكذب :

— نعم .. أنا أعرفه ، انه واحد من المتعاونين مع الخونه ، أقسم بالله على ذلك .
قال ذلك ثم انخرط في بكاء شديد :

نظر الجنود الى الجثة الغارقة في الدم في وهج الشمس الغاربة ، ثم نظروا الى بعضهم دون أن ينبسوا ببنت شفة ، وما هي الا لحظات حتى أقبلت سيارة أسعاف كانت تمر بالمكان فنقلته الى حيث لا أدري اذ يكفي أنه قد مات .

قلت لهاشم :

— هذا ما تصنعه الانقلابات التي كنت أسمع بها !

ــ نعم.

ــ ولماذا لا تسن الدولة قانوناً توقف به هذه المحنة؟

ضحك هاشم وقال:

ــ ان ذلك مستحيل، لأن الانقلاب ضد القانون وضد الشرعية اذا لا بد من وجود شيء يمنعه.

ــ ان ذلك متوقف على الرخاء والاحساس بالأمن.

ــ ومتى يأتي الرخاء والأمن؟

ــ قريباً... ان شاء الله.

سرت خلف مظاهرة صغيرة لا يتجاوز عدد أفرادها الثلاثين أو الاربعين شخصاً، كانوا يهتفون ويرقصون، كان فرحهم غامراً وشديداً لدرجة أنني سألت نفسي:

ــ اذا قدر لمن دبروا لهذا الانقلاب أن يحكموا بلادي، فكيف ترضى نفوسهم أن يحكموا شعباً يكرههم كل هذه الكراهية؟

سرنا خلفهم حتى وصلنا الى المنطقة الواقعة قرب حديقة الحيوان من الجهة الجنوبية، وهناك استوقفنا بعض الجنود وطلبوا منا أن نعود لأن كبرى أم درمان قد سد، وقد شعر المتظاهرون بخيبة أمل لأنهم كانوا يريدون أن يصلوا الى أم درمان ليحرروا الاذاعة من أيدي المخربين.

تقدم أحد الجنود وقال لنا باسماً بعد أن عرف قصدنا:

ــ عودوا، وسوف تعود الاذاعة للحكومة بعد قليل، ان فلول المنهزمين من الخونة والمأجورين يحاولون في جنون أن يسيطروا على الاذاعة لمدة أطول، ولكن نهايتهم دنت ولا نجاة لهم.

هلل المتظاهرون فرحاً لحديث الجندي، ثم قفلوا راجعين في طريق المعهد الفني.

وهناك عند الشارع الذي يمر بدار الرياضة اتجهوا الى وسط العاصمة مرة أخرى ، كان المتظاهرون يهتفون ويرقصون ، وكان الناس على جنبات الطريق أو هم يطلون علينا من الشرفات يصفقون ، وكنا نسمع صدى الزغاريد يرتفع الفينة بعد الفينة .

عندما وصلنا الى وسط العاصمة ، وجدنا أنفسنا نخترق بعض الشوارع الضيقة المظللة بالأشجار الضخمة مما زاد من الوحشة والظلام حتى وصلنا الى شارع الملك ثم فاتجهنا جنوباً صوب مستشفى الخرطوم العمومي . كنا نسمع مكبرات الصوت تدعوا الناس للتبرع بالدم لأنقاذ حياة بعض الضحايا من الشعب .

قلت لهاشم وعادل :

— هيا لنتبرع بدمائنا .

قال هاشم بحماس :

— ان هذا أقل ما يمكن أن نقدمه للوطن في مصابه الكبير .

وهناك رأيت ما كان خافياً علي ، لقد انتشر الموت في كل مكان ، وضح ذلك من الأعداد الهائلة التي تأتي بها سيارات الاسعاف من الجرحى والمصابين والمحتضرين والموتى ، لم يكن هناك من هو تقدمي أو رجعي ، من هو يميني أو يساري ، لقد كان هناك عذاب الانسان ومأساته .

وفي احد ممرات المستشفى شاهدت ممرضين يدفعان بنقالة يرقد عليها شخص يئن أنيناً موجعاً ويسرعان به نحو حجرة العمليات وهو مغمى عليه ، وبدافع من الفضول تطلعت الى وجهه فرأيت فيه كمالاً الذي أعرفه . فصحت :

— هذا كمال ولد الشاويش علي عنبر .

اقترب مني هاشم وعادل ، قال لي الجندي الذي كان يتبع النقالة :

— هل تعرفه يا جدي؟

— نعم... أعرفه وأعرف أمه عائشة بنت شريف علي فضل .

— مسكين، لقد كان يوزع السلاح على من حوله، وعندما رآنا حاول الهرب، فأصابته رصاصة من رصاص جنودنا.

قال أحد الممرضين:

— اذا كنت تريد انقاذه فتبرع له بدمك، هناك نقص شديد في الدم.

— نعم سوف أتبرع له بدمي.

— أرجو أن يكون دمك من فصيلة دمه!

— لا تقلق، فولدي عادل وهاشم سوف يتبرعان بدمائهما أيضاً.

قادونا الى غرفة نقل الدم حيث جرى الأمر بسرعة وسهولة، وكان دمي مطابقاً لدم كمال فطلبت من الدكتور أن لا يأخذ دماً من عادل وهاشم، لكن عادل وهاشم أصرا على التبرع بدمائهما لغير كمال من المصابين فتم لهما ذلك.

— بعد قليل أقبل الممرض الذي كان معنا منذ البداية وقال لي بسعادة:

— لقد جرى دمك في شرايين المريض، وعاد إليه وعيه وبعد قليل سوف يكون على أحسن حال.

خرجنا من المستشفى وفي الطريق كان أحد المارة يحمل راديو فسمعت المذيع يقول:

— لقد تم القبض على قائد المؤامرة.

قلت لهاشم:

— انه من وجهة النظر التاريخية يعتبر بأنه قد حكم السودان أربع وعشرين ساعة تقريباً.

قال هاشم ساخراً:

— نعم، فسوف يذكر المؤرخون أنه في يوم كذا.. بتاريخ كذا.. قاد فرقة من الجيش وحكم البلاد من الساعة كذا.. الى الساعة كذا..

ضحكنا في مرارة.

وقلت أحدث النفس:

— وهل يستحق الحكم كل هذا؟

الساعة الآن حوالى الثامنة مساء، معنى ذلك أننا أمضينا نحو سبع ساعات دون أن نرتاح لحظة واحدة، فلا غرو أن شعرنا جميعاً بالرغبة في العودة الى المنزل، أخذنا سيارة أجرة واتجهنا نحو شارع الحربة حيث أخذنا طريقنا نحو مدينة الشجرة.

كانت الشوارع صامتة، والحركة هادئة، وقد انتشرت قوات الحكومة التي أعادت السلطة السابقة من جديد.

عندما وصلنا الى المنزل سمعنا الصياح والعويل يأتي من ناحية منزل العميد مصطفى لم يكن لي قدرة على عمل أي شيء رغم رغبتي في الذهاب لمواساة أهل الفقيد، فتركت عادلاً وهاشماً ليذهبا، زحفت نحو سريري واستلقيت عليه، نظرت نحو السماء لحظة، فرأيت سحباً تتمدد في شكل وحش رهيب ثم تتفتت من جديد وعندما هاجمني النوم دون أن أدري كنت أردد: ما الهدف من كل ذلك؟

٨

في صباح اليوم التالي كنا نتابع أخبار من دبروا الانقلاب ومحاسبتهم ، وهو حساب قد بدأ منذ مساء البارحة ، ولكنه الآن يستمر مبتدأ بمن ذهبوا الى الاذاعة وغنوا للانقلابيين أو من أرسلوا برقيات الملق والزيف ، أو لمجرد الخوف والجبن ، محاسبة من تهاونوا وأهملوا أو من خرجوا وواجهوا الحكومة بالعداء.

ومن جملة ما قيل عن الضباط الذين دبروا لذلك الانقلاب ، أنهم لم يثبتوا ساعة تنفيذ الحكم عليهم بالاعدام ، وقيل ان بعضهم بكى واسترحم وانهار ، وقد كان خليقا بي أو بأي منا لو قدر له أن يكون في مكانهم أن يفعل كما فعلوا ، فالموت قاسي وصعب ، وقد قيل أن بعضهم ثبت وكان شجاعاً ، وهي شجاعة مصطنعة ، لأنه كان في قرارة نفسه يرفض الموت رفضاً تماماً ، وأظنه كان في دخيلة نفسه يتمنى لو عادت عقارب الزمان الى الوراء بضعة ساعات ليفكر في الأمر من جديد ، لكن الحياة لا تمنح الانسان في مثل هذه الحالات ، سوى فرصة واحدة يختار فيها الحياة أو الموت.

كان الطريق الذي اختاروه لا يقبل سوى حل واحد من حلين ، فأما المجد والشهرة والاماني ، وأما الموت والظلام وهو احتمال كان وارداً في حساباتهم عندما اقدموا على فعلتهم تلك. أما لماذا غامروا بأرواحهم؟

هنا تكثر الاشاعات والأقاويل ، البعض يقول :

ــــ انهم خرجوا لانقاذ البلاد.

ويقول البعض:

ــــ ان قادة ذلك الانقلاب قد ظلموا، فلم ينالوا ما ناله زملائهم من امتيازات، وهم يريدون أن يصلوا الى الحكم لينصفوا أنفسهم.

ويقول البعض:

ــــ انهم خرجوا لينتقموا، لأنهم أبعدوا ظلماً وقهراً.

ويقول البعض:

ــــ ان السبب يعود الى خلافات شخصية.

وتكسر الأقاويل...

عادت الاحوال في البلاد الى سابق عهدها، وما كنت وأنا في مثل هذه السن أن أخوض في شئون البلاد الكبرى، لولا أن الأقدار هيأت لي أن أشاهد واحداً من هذه الانقلابات الدامية كانت جزيرتي قد استحوذت على كل تفكيري وهمي، فليعذرني القارىء الكريم ان أنا بعدت به عن القصد، ولكن اذا عدنا الى الحقيقة فسوف نجد أن هذه الأحداث قريبة الصلة من جزيرتي.

عدت الى الجزيرة فاستقبلني الجميع بالبهجة والفرح، وزادت فرحتهم عندما أخبرتهم بخبر ذلك الخطاب الذي أحمله معي وهو موجه من الوزير مباشرة الى سلطات الادارة المحلية بالمديرية لمباشرة عملي في الجزيرة كالمعتاد، وقد علق الشيخ سعيد مازحاً:

ــــ انك لم تنقذ الجزيرة فحسب، بل لقنت الحكومة درساً لن تنساه... انك بطل!!

وبمقتضى ذلك الخطاب باشرت العمل في الجزيرة أنا والمجموعة بهمة ونشاط، وقد أحس المزارعون بأن التيار يسير ضدهم.

صدق الوزير وعده لي ، فبعد أيام قليلة من عودتي من الخرطوم صدر قرار هام ، هذا القرار لم يكن خاصاً بي أو بجزيرتي ، ولكنه قرار يخصني بطريقة غير مباشرة ، ويخص كل من كان في مثل وضعي ، كان القرار يقول :

— لا تنزع أي أرض مستصلحة أو مزروعة ، وتلك التي عليها منشآت من سواق أو مضخات أو خلاف ذلك من وسائل الري .

انتهى القرار وكان قد أذيع ونشر في الصحف والمجلات .

كان واضحاً أن جزيرتي قد عادت الي . لأن هذا القرار يشملها ، فهي جزيرة مستصلحة ومزروعة وعليها مضخات تقوم بري الزرع .

وهكذا عاد الفرح والسرور الينا ، وبدأت أشعر بأنتمائي الى بلادي العظيمة ، وقد صدق الشيخ عندما قال لي :

— البلد ما زالت بخير .

انتشر هذا الخبر كانتشار النار في الهشيم ، وأصبح المزارعون وكأن على رؤوسهم الطير ، فكانوا يدورون حولي في خجل وخوف ، كان كل واحد منهم يريد مني أن أقول له شيئاً ، أو أصدر له أمراً . كان الحديث قد انقطع بيننا منذ أن حلت بنا محنة النزع والتقسيم تلك ، فماذا نقول لبعضنا بعد تلك المواجهة الساخنة ؟ التي امتدت الى أربعة أشهر ؟ لقد شعرت بالحيرة ، كيف أبدأ معهم الحديث ؟ وماذا أقول ؟ كنت أشعر بأنهم يعانون عذاب النفس وأنهم نادمون ، لذلك كنت أعتقد أننا سوف نتصافى وننسى الماضي ونكون كما كنا من قبل ، ان لم يكن أحسن .

صحت بهم :

— لماذا تدورون حولي هكذا كشخص سقط من بعير ، هيا اقتربوا لنشرب القهوة ،

قلت لعادل :

ـــ قل لسعاد أن تعد لنا قهوة سريعة ، هيا أسرع ، انني أعرف أنك قد أحضرت فناجين جديدة للقهوة من الخرطوم.

وجلسنا قريباً من الكوخ في شكل دائرة ، كان النهر يلمع بضوء الشمس الغاربة ، ونسمة من هواء الشمال تهب علينا ، قال جابر وهو يتزحزح في مكانه قلقاً :

ـــ والله يا عم العوض ، لم نكن...

وقاطعته :

ـــ اسمع يا جابر ولدي ، انني لم أطلب منكم أن نجلس هنا ، ونشرب القهوة لكي نتحدث عن الماضي ، انني أريد منكم أن نفكر سوياً في موضوع الموسم الجديد.

وهنا صاح فضل بفرح :

ـــ الله يبارك فيك يا عم العوض ، أنا من رأيي أن نزيد من زراعة الثوم ، الثوم سوقه حار.

وقال عثمان معلقاً :

ـــ كلامك صحيح يا فضل ، لكن لا تنسَ يا «أخوي» الفول ، والله العظيم الربع في الخرطوم وصل جنيهين.

وأقبل عادل يحمل القهوة ، فصب لنا جميعاً ، فتناول كلاً منا فنجانه ، وامتد بنا الحديث وكأنّ شيئاً لم يكن. ثم انفض سامرنا.

وفجأة بدأت أرثي لحالهم ، وكرهت ما في الدنيا من عذاب ، وتمنيت لو كنت أملك جزراً وأراضٍ ومضخات بعدد من حولي من الناس ، حتى أعطيهم ، وأجعلهم يحسون بالسعادة الحقيقية ، لقد كانوا سعداء بظلمهم لنا ، فكيف بهم عندما يصبحون سعداء بحبنا لهم؟ متى حدث هذا التغير في نفسي وروحي؟

حدث ذلك في اللحظة التي عادت فيها الجزيرة لي ، كانت الكبرياء وحدها هي الدافع الأول الذي دفعني لاسترداد الجزيرة بأي ثمن ، أما الآن وقد عادت الجزيرة لي فقد أرضيت ذلك الكبرياء ، وبدل أن أشعر بالسعادة والفرح ، بدأت أشعر بذلك الحزن الذي انتابني فجأة الحزن المشوب بالأسى تجاه ذلك النفر من المزارعين الذين كان يسعدهم أن ينزعوا الجزيرة مني.

كان هذا الخاطر قوياً فبحت به لزينب. وأفصحت لها عن حقيقة مشاعري تجاه المزارعين الذين أساؤوا إلينا ، فلم ترد على أن قالت لي :

— لقد خرفت... أنا أعرف أنك مجنون... مجنون ،

أعتقد أنها كانت صادقة في زعمها ذلك.

قلت لها :

— إن المزارعين يا زينب ضحايا من ضحايا هذه النظريات التي تجعل من كسب الآخرين حقاً مشاعاً للجميع ، لقد راجت هذه الدعاوى الفارغة.

قالت لي بغضب :

— إن حديثك هو الفارغ...

نظرت إلى جزيرتي ، فرأيت أنها متسعة وعامرة حقاً ، فقلت في ذات نفسي :

— أنا صاحب هذه الجزيرة ، ومن حقي أن أشارك المزارعين فيها ، بمحض إرادتي إنهم شركاء حقاً.

وبدأت أفكر في الأمر.

٩

زار الوزير الذي أنصفني المنطقة ، وأرسل من يخطرني بأنه سوف يزورني في طريق العودة.

لم يكن أحد ليصدّق هذا الخبر ، لقد شعرت بأنني بقدر ما أهنت وظلمت وتعذّبت ، ردَّ إليَّ اعتباري ، لقد مرت بي لحظات شعرت فيها وكأنني إنسان طفيلي وغريب عن بلدي ، أما الآن فإنني أشعر بفخر ، والاستعدادات تجري على قدم وساق لاستقبال الوزير في جزيرتي ، إنني أنتمي حقاً الى هذه البلاد الطيبة المتسامحة التي لن يضام فيها إنسان ، فهي بلاد الخير والعدل والصلاح والصالحين.

زارني الوزير في الجزيرة ، وقد استقبل استقبالاً حافلاً هو ومن معه من نواب ومساعدين ومنهم آدم سعد الله وكمال علي عنبر.

انشغل الوزير بمن التفّ حوله من مواطنين يصافحونه ويسلمون عليه ، وانفردت أنا بآدم سعد وأسأله بدهشة واستغراب :

— هذا كمال علي عنبر!

— نعم.

— ولكن...

قاطعني آدم سعد ، وقال لي باسماً :

— لقد اتحدنا جميعاً من أجل السودان.

— ولكن كيف أمكن ذلك؟

— ما دمنا جميعاً نهدف لمصلحة الشعب فلا خلاف بيننا.

قلت مشفقاً:

— يا لها من مهمة صعبة.

— هل هي مهمة صعبة يا عم العوض.؟

— نعم يا ولدي، إلا إذا استطعنا أن نطهّر قلب الانسان من الأثرة والأنانية.

— إنها مهمة سهلة أن نطهر القلوب من الأثرة والأنانية.

— ليست سهلة!

— هل تعتقد ذلك؟

— وأعتقد أن ذلك مستحيل!!!

— مستحيل!!!

— نعم! ما دمنا لا نعرف دخيلة القلوب.

— لكننا يا عم العوض، قد عقدنا العزم على أن نخدم الشعب بكل إخلاص وأمانة.

— أرجو لكم التوفيق والسداد.

اقترب مني كمال علي عنبر، وقال لي باسماً:

— كيف حالك يا عم العوض؟

— الحمد لله يا ولدي.

— لقد عرفت أنك تبرعت بدمك لإنقاذي من الموت، فألف شكر لك.

— الحمد لله الذي حفظك ورعاك لشبابك ولوالديك.

ــ شكراً يا عم العوض.

ــ تلفّت كمال وسألني:

ــ أين يمكنني أن أتوضأ وأصلي.

قلت له وأنا في حيرة من أمري:

ــ هناك في الناحية الجنوبية، يمكنك أن تخوض بضع خطوات في المياه الضحلة وتتوضأ.

ذهب الى هناك، فالتفت الى آدم سعد وقلت له:

ــ إنه يصلي!

ــ نعم! فالانسان السوداني سليل حضارة دينية عميقة الجذور، فلا تخف عليه أبداً مهما طفا على السطح من ضلال وتضليل.

قلت له بحدة:

ــ لكنه ملحد!

قال لي ضاحكاً:

ــ لا تصدق ذلك يا عم العوض.

اقتربنا من الوزير الذي نظر إلي وقال لي بسعادة وفرح:

ــ هذه إذن جزيرتك!

ــ نعم يا سيادة الوزير.

ــ وقد ردّت إليك.

ــ نعم.

ــ أرجو أن تحسن الظنّ بعد ذلك بالحكومة!

ــ إننا يا ولدي نحترم الحكومة والحكام، ألا ترى السعادة والفرح باديان على وجه كل إنسان.

— نعم إنني أرى ذلك.

— قلت له ناصحاً.

— طوبى لحكومة تملك أن توجه هذا الشعور لمصلحة الأمة.

قال لي بحزم:

— بإذن الله سوف يتحقق ذلك.

كنت قد أعددت لهذه المناسبة عدتها، فذبحت ثوراً احتفالاً بالوزير وبانفراج الغمة والمحنة وعودة الجزيرة إليّ، وقد تقاطر الناس من القلعة والقرى المجاورة وقد اشتهر اسمي واسم جزيرتي وحضر بعض أتباع الشيخ، وهكذا أكل الناس وشربوا وحمدوا الله كثيراً، ودعوا إليّ بطول العمر وحماية الجزيرة من أي مكروه، وهتفوا بحياة الوزير والحكومة.

كنت أظن أن المزارعين سيقفون موقفاً معادياً للوزير الذي خان قضيتهم — كما علقوا ذات مرة — لكنهم كانوا في غاية البهجة والفرح، كنت أراقبهم عن كثب، وأحاول أن أسبر أغوار نفوسهم لأفهمهم، هؤلاء الذين تسببوا في أذيتي وأذية أهلي، فوجدتهم كسابق عهدي بهم، فرحين متهللين ويتبادلون الملح والطرائف مع الولي وجرمة الأكول، فزاد إيماني بأنهم أبرياء، وأنهم كانوا ضحية من ضحايا التضليل، وهكذا في فورة من فورات الحماسة التي طغت علي، كما طغت على الجميع أعلنت أمام الحاضرين هذا الاعلان الخطير:

— يا حضرات السادة، إنني سوف أقسم الجزيرة فيما بيني وبين المزارعين بالطريقة التي أرادوا، وسيصبحون بذلك شركاء فيها.

وتعالى الهتاف بحياتي، وبشهامتي وبمروءتي، وصرت شيئاً لامعاً ومتألقاً وبراقاً، وجذبني هذا الإطراء والثناء الذي غمرني به هذا الجمع الغفير، على الظن بأن الوزير نفسه قد تضاءل بريقه أمام بريق شهرتي ومجدي، وبدأت أنصف من يسعون إلى مثل هذا المجد وقلت في ذات نفسي:

— كم هو شائق وجميل أن يجد الانسان نفسه وقد صار محطّ أنظار الجميع .

وما أن انتهيت من إعلان قراري هذا ، حتى اندفع نحوي المزارعون وهم يشدون على يدي في غبطة وسعادة ، وزاد من سعادتي أنني أملك ما يجعلهم سعداء كل هذه السعادة .

وهتف الوزير نفسه بحياتي وردّد الناس خلفه الهتاف ، وما أن هدأ الجمع حتى تحدّث الوزير فقال :

— إن الجزيرة ملك خالص لشيخ العوض ، وقد أراد بكامل حريته وبمحض إرادته أن يشارك معه المزارعين ، لقد فعل بإرادته ما عجزنا نحن عن فعله بسيادتنا وقوانيننا ، وهذا إن دلّ على شيء فإنما يدل على أن الانسان إذا ما استيقظ ضميره ومنح إرادته فإنه قادر على إنجاز ما ظلت البشرية تحلم به ، إنني كمسئول ، أعلن بصراحة ، أنني أقف أمام تجربة فريدة من نوعها ، وأنني عاجز عن تفسيرها تفسيراً واضحاً ، ولكن عندما أمنح فرصة أكبر للتفكير والمراجعة فسوف أعلن صراحة أن شيخ العوض قد علمنا شيئاً جديراً بأن نستوعبه ونستخلص منه العبر والعظات .

وتعالى الهتاف والتصفيق ثم استمر الوزير في إلقاء خطابه :

— أنا شخصياً لا أجد حرجاً في أن أعلن أنني قد استوعبت الدرس من رجل في سن والدي ، وقد يسأل سائل ويقول : وما هو هذا الدرس؟ إن ما تعلمته في عبارة موجزة ، هو أننا نستطيع تحقيق أي شيء بالحب والخير والصفاء .

وعلا الهتاف والتصفيق مرة أخرى ، وتحدث آدم سعد ووصفني بأنني أمثل الانسان السوداني أصدق تمثيل في أصالته ورجولته ، وتحدث كمال علي عنبر ، وبشر الناس بأن السودان لن يشهد صراعاً بين الطبقات وأن عهداً من الاشتراكية السودانية الحقة التي تقوم على العدل سوف يظلل السودان قريباً .

وفي النهاية رحل الوزير ومن معه من المسئولين ، وكان بعض هؤلاء المسئولين لا يتابعون حديثنا ، ويبدو انه لم يعد هناك ما يثيرهم أو يلفت انتباههم لكثرة ما

يسمعونه من حديث لقد كانوا مشغولين بالحديث مع حسين سعد الله الذي اشتهر عندنا بصداقته لهؤلاء القوم، وفضلاً عن ذلك فهو أحسن من يختار أجود الخمور المصنوعة من البلح.

لقد أصبح الوزير صديقاً شخصياً لي.

١٠

شعرت بأن زينب قد نصحت عادلاً بألا يناقش معي قراري الذي أعلنته أمام الناس برغبتي في تقسيم الجزيرة بيني وبين المزارعين، وأعتقد أنها قالت له بأنها سوف تعالج الأمر معي بطريقتها الخاصة.

لقد خافت زينب من أن يتطور الأمر بيني وبين عادل إن هو ناقش معي أمر تقسيم الجزيرة فيتطور الأمر الى مواجهة تنتهي بإصراري على قراري فتحدث جفوة بيني وبينه.

اتضح ذلك لأن عادلاً لم يناقش معي قرار التقسيم ذلك حتى نتفق على قرار، وهكذا أفسدت زينب بتدخلها كل شيء، ولم يفد تدخلها بشيء، فالجفوة بيني وبين ولدي الذي يرفض شراكة المزارعين قد حدثت، وذلك بمحاولته المستمرة في الابتعاد عني. لقد صار المزارعون أكثر قرباً مني من ولدي. وكان عادل يتجنبني أكثر كلما رأى المزارعين يحيطون بي. لقد بدأ واضحاً أنه بدأ يكرههم، وقد غضبت من زينب لأنها هي السبب.

هل كان مقدراً لي أن أستبدل حباً بكره وخصام جديد؟ أم هل قدّر للعالم أن لا يعرف الحب أبداً؟

كان قلبي قد اتسع لحب الجميع، لأفراد أسرتي وللجزيرة وللمزارعين وللضريح

ورأس الحربة ، ولكل شيء من حولي ، ولكن كيف يمكنني أن أجعل الجميع من حولي يدركون ذلك؟

كان واضحاً أن زينب هي رأس المعارضة ، والمعارضة هم عادل وجميلة وسعاد وتوفيق الصغير ، إنهم أصحاب الحق الأول والأخير في الجزيرة ، وهم من وقفوا معي أمام كل الصعاب والمحن لتبقى الجزيرة خالصة لنا ، ومن هذا الجانب فيجب أن أنصاع لرأيهم حتى لا أكون طاغية أتصرف كما أهوى دون اعتبار لرأيهم وحقهم.

عندما أعلنت قراري ذلك أمام الوزير والناس ، لم يكن قراري قراراً سياسياً أرمي من ورائه الى أن أكون زعيماً للمزارعين والناس من حولي وإنما كان قراري قراراً نابعاً من الحب الذي في داخلي لكل ما يمكن أن يكون جبراً لخواطر الآخرين.

قالت لي زينب :

— أنت لست مسئولاً عن إصلاح العالم.

هذا صحيح ، لكنني في جزء من العالم جد صغير ، وأمام مجموعة من الناس جدّ صغيرة ، يمكنني أن أحقق ما يمكن أن يكون إرضاء لروحي ، إن رضي الروح أمر عسير ، لأن الروح القلقة لن تجد الراحة ولو ملكت الدنيا بأسرها ، أما الروح الراضية القانعة فهي السعيدة حقاً ، تلك التي برئت تماماً من الكراهية والأنانية والأذى.

أصبحت أمام خيارين كلاهما مرّ ، هل أرضي المزارعين على حساب أسرتي؟ أم أتراجع عن قراري وأكسب أسرتي وأخسر نفسي؟ وأمام هذه المعضلة ذهبت الى القلعة حيث اعتكفت في حجرتي أفكر في الأمر.

زينب تعتقد أنني قد جننت وخرفت ، وكانت أسرتي وأنا صغير قد ظنوا هذا الظن ، فصار الجنون تهمة لاصقة بي ، ويبدو أن زينب قد نشطت في تأكيد هذا المرض ، فكانت تعلق على ما أقوله بقولها بعد أن أنصرف :

— لا تسمعوا له ، مسكين ، لقد جُنّ وخرف.

كان هذا هو المدخل الأول لتصرف به المزارعين عن التمسك بقراري ، وأما المدخل الثاني فقد سمعنا عن طريق الإذاعة التشكيل الجديد للوزارة ، وفيه أبعد صديقي الوزير عن الوزارة نهائياً ، وهكذا لمحت زينب بأن الرجل الذي كان يمكن أن يكون سنداً للمزارعين إن هم تمسكوا بوعدي لهم قد راح وجاء محله وزير جديد لا يعرف شيئاً عن أمر جزيرتي ، ولا يهمه أن يعرف عنها شيئاً لأنها لا تستحق أن تثير اهتمام وزير جديد يريد أن يلمع سريعاً بإصدار قرارات تكون على مستوى الدولة ، ولقد كان لغياب صديقي الوزير أثره الواضح في المزارعين ، فقد شعروا بأن التيار يجري ضدهم ، وإن (المعارضة) أقوى مني ومنهم ، وخافوا إن هم ساروا في ركابي أن يلحق بهم مكروه ، فعادل هو من يمسك بأعنة الأمور صغيرها وكبيرها وله فصل الخطاب في كل شيء ، وهكذا استدرجوا ليتصلوا بي في حجرتي بالقلعة ليعلنوا أمامي بكل الصدق والوفاء أنهم لا يريدون أن يكونوا سبباً في خراب بيتي ، وأنهم قد شعروا بأن أفراد أسرتي غير راضين عن قراري ذلك ، ولا يجوز حرمانهم فهم أصحاب الحق ، ونحن لا ينقصنا شيء ، وننال حقنا بالزيادة والحمد لله ، ولا يحسون بأي غبن أو ظلم ، وهم يقدرون موقفي وحسن نيتي ، وهم قد نالوا حقهم كاملاً دون أن يكونوا شركاء ، لأنهم شركاء فعلاً ، وهم راضون بوضعهم هذا ولا يرضون بغيره بديلاً ، وختموا حديثهم بأن طلبوا مني راجين ومتوسلين أن أنسى وعدي الذي قطعته لهم .

قلت لهم بعد فترة صمت طفيف ، وزينب تصغي إلي بلهفة :

— فليكن ذلك .

شعرت بارتياح شديد ، فقد كان قراري ذلك ككارثة من تلك الكوارث التي شهدتها الجزيرة ، ولكن من سخرية القدر فقد كنت أنا من تسبب فيها ، اتضح لي ذلك من موجة الفرح التي غمرت الجميع .

أقبلت سعاد وقد أصبحت امرأة كاملة الأنوثة بعد أن وضعت مولودها الأول توفيق وهي تحمله وتطلب مني أن أحمله قليلاً ، وقد أخذته منها وحملته وأنا أشعر

بالغبطة والسعادة ، ثم راحت تحدثني بفرح ومرح عن الشبه بينه وبين جده ، لقد كان فعلاً كذلك ، وقد أثار هذا الحديث في نفسي ذكرى تلك الأيام الطيبة والجميلة أيام كنت أنا وهو نعيش في الجزيرة وحيدين إلا من الضريح ورأس الحربة والساقية والثور ، ونحن نصنع هذا المستقبل الذي أتحمل تبعاته الآن إن حلواً أو مراً .

زارتني أيضاً جميلة ، وقد اقترحت علي — بإيعاذ من زينب — أن نذهب جميعاً الى الجزيرة لأنني انقطعت عنها أياماً ، وقد أثلج صدري هذا الاقتراح لأنني كنت في شوق لرؤية الجزيرة ، ولأن جميلة أثيرة عندي ، فقد تأهبت للإبحار فوراً نحو الجزيرة ، فركبنا المركب أنا وزينب وجميلة وسعاد وتوفيق ، وقمت أنا بإدارة المركب بهمة ونشاط ، فقد شعرت بأن هماً ثقيلاً قد أزيح عن كاهلي ، عندما وصلنا الى الجزيرة كان عادل في استقبالنا ، وهو في غاية الفرح والسعادة بعد أن سمع بالنبأ من المزارعين الذين سبقوني الى هنا ، وقد راح يحدثني بحماس وفرح عن المحصول الجديد وعن توقعاته لإنتاج وفير هذا العام ، وهو حديث نردده كل عام دون أن نحس بالملل والرتابة من تكراره عاماً بعد عام .

شعرت ببعض الحزن ، فقد كنت قوياً وأنا أدافع عن حقي ، والآن صرت ضعيفاً وأنا أدافع عن حق الآخرين ، لو تساوى حقي مع حق الآخرين لما كان هنا هذا الاخفاق الذي شعرت به ، ولما كانت هذه التعاسة عندما تراجعت عن وعدي وقراري .

قال لي عادل ، وقد لاحظ ما أعانيه من صراع :

— لا أحد يلتزم بوعده في هذه الأيام ، احصر جملة الوعود التي قطعها المسئولون أمام الناس هذا الشهر ، ثم راجع ما نفذ منها ، أقسم لك يا أبي ، أنك لن تجد وعداً واحداً قد نفذ .

أصغيت الى حديثه ، لأنني كنت أعلم انه صادق ، وان العالم من حولنا غارق في الكذب ، لكنني كنت أؤمن بأن هذا الفساد يجب ألا يكون مبرراً لأغرق أنا أيضاً فيه ، إن وجود شخص واحد — حتى لو كان العوض — يملك أن يقول كلمته ،

وأن يكون صادقاً في وعده، يؤكد الحقيقة التي يجب ألا تغيب عن أذهاننا، إن هناك في مكان ما، يوجد شخص واحد صادق، ويحترم كلمته، ذلك لأن الله موجود.

وحتى أخفي خجلي وعاري، صدقت جنوني، ووجدت فيه مخرجاً كريماً لإخفاقي وعاري، وبدأت أشعر من حولي بأنني لست إنساناً سوياً، وأنني مريض ذلك المرض الذي اعتقدوه، وليس في ذلك أي غرابة، فمن كان في مثل سني يمكن أن يلصق بنفسه أي صفة يراها، ويبيح لنفسه أي سلوك يراه، وهو مطمئن غاية الاطمئنان الى أن هناك ما يبرر سلوكه.

رددت في ذات نفسي:

— مرحباً، بجنوني وخرفي إذا كان فيهما خلاصي.

القسم الرابع

الاخفاق والموت



١

آه .. لقد كبرت حقاً ، ولكنني أعتقد أنني لم أعش طويلاً ، وأن عمري قليل جداً بالنسبة لعمق الزمن ، فإذا كان عمق الزمان باتساع الفضاء الذي لا تحده حدود ، فيمكن القول بأن الأعوام التي عشتها تبدو بمقدار ذرة صغيرة ، صغيرة جداً وهي تسبح في الفضاء ، وتمنيت لو يطول عمري ، ولكن ما الفائدة من ذلك ما دامت نهايتي معروفة ، ليتها تأتي لأرتاح وأضع حداً لخوفي .

كان قد أطلقنا على المكان الذي كانت به الساقية اسم (مكان الساقية القديمة) . وكنا نتجنب هذا المكان الذي غرق فيه توفيق وعصام . لقد صار مكاناً مهجوراً ومخيفاً ، كانت بقايا الساقية من أخشاب وحبال وجرار ترتفع أطرافها من تحت الرمال كجثث لمخلوقات سوداء مبهمة .

كان هناك أيضاً بعض من بقايا أكياس الرمل من أيام الفيضان تحيط بهذا المكان ، وقد تحجرت واختفت الأكياس فصنعت مكاناً مرتفعاً يحيط بالبئر ، فأصبح شبه مظلم ، يوحي منظره بالرعب والانقباض ، وزاد من إحساسنا بهذا الشعور تلك الروايات التي أطلقها المزارعون وعادل من أنهم رأوا أشباحاً هناك .

ولسبب ما صار هذا المكان أثيراً عندي ، فكنت أجلس على ذلك المرتفع الذي يحيط بالبئر ، وأنا لا أدري لماذا نفضل دائماً أن نجلس على المكان المرتفع عن سطح الأرض ؟ سؤال خطر في ذهني وقد أثار في نفسي رغبة ملحة في أن أجد إجابة عليه ، وأخيراً هداني تفكيري الى الإجابة التالية :

ــ إننا نخاف الأرض المنبسطة ، ويكون خوفنا أكثر عندما تكون الأرض منخفضة ولو قليلاً ، ويتحول خوفنا الى رعب حقيقي عندما ننزل الى بئر ، ولكننا كلما ارتفعنا عن سطح الأرض فإننا نشعر بالراحة والارتياح ، ونتنفس بعمق وسعادة ، إذاً فهذا الخوف راجع الى شعورنا بأن الأرض فيها معاداناً ، فهو إذاً خوف من الموت ، وليس خوفاً من الأرض المنخفضة ، ولكن مهما ارتفعنا عن سطح الأرض ، فسوف نسقط يوماً ما.

عندما أدركت هذه الحقيقة ، أصبحت أجلس عند أسفل هذا المرتفع ، وأحفر لي حفرة صغيرة أستلقي فيها كالكلب ، هذه الحفرة تشعرني بالسعادة والراحة فهي باردة ورملها ناعم ومريح ، وتجعلني أحس بالوحدة والعزلة تماماً ، فقلت في ذات نفسي :

ــ قد يكون للكلاب تقدير أحسن من تقديرنا عندما تفضل مثل هذه الحفرة الصغيرة عند جدار ما فتنام فيها.

وفي هذا المكان سواء على المرتفع أو في الحفرة ، كنت كثيراً ما أفكر في حياتي الحافلة كما يقولون ، وهي حياة حافلة حقاً بالنسبة لتصورنا الضيق لأعمارنا القصيرة ، ولكن من يعيش حتى يصل الثمانين مثلي فإنه بالتأكيد يكون أكثر حظاً ممن عاش أقل من ذلك وما أكثرهم ، وما موت توفيق وعصام ببعيد.

البعض يفضل أن يقيس عمر الناس بمدى مساهمتهم في حضارة الانسان ، ولا أريد أن أخوض في نقاش هذه النظرية ، لأنني لم أساهم بشيء في حضارة الانسان ، ولكنني صنعت هذه الجزيرة وسكبت فيها من ذاتي ، فجمعت شيئاً من الذات الانسانية تلك التي تتجمع لتصنع حضارة الانسان ، وحياتي ــ والحمد لله ــ طويلة ، وهي ما زالت مستمرة وما زلت آكل وأشرب وأتنفس الهواء وأرى الجزيرة والأولاد ، ولا أريد أن أحرم من هذه الأشياء مهما كان.

إنني أتصور حياتي كعمل تراجيدي رائع ، له بداية ووسط ونهاية ، البداية تكاد تكون معروفة للجميع ، وذلك يوم أن جامع والدي أمي جماعاً حلالاً فحملت بي

ووضعتني ، وبدايتي شيء مقدر منذ الأزل ، وهو قدر مسطر في لوح محفوظ ، إن حياتي تسير كما قدر لها أن تسير ، ولأن الخالق القادر هو وحده من حكم علينا بهذا المصير فهو وحده القادر على خلاصنا يوم تذهل كل مرضعة عما أرضعت ، وتضع كل ذات حمل حملها ، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ، ولكن عذاب الله شديد.

وبدايتي لم تبدأ من يوم أن ولدت ، لكنها بدأت قبل ذلك. وذلك عندما كنت في بطن أمي ، وقد سمعت أشياء ، ووعيت أشياء كان لها أكبر الأثر في حياتي ، لكنني لن أتحدث عنها لأن أحداً لن يصدق ذلك ، لكنني سوف أذكر حادثاً حدث لي عندما كنت في شهري الخامس.

كان ذلك عندما حضرت جدتي الحاجة آمنة من الأراضي الحجازية بعد أن أدت فريضة الحج. كنت ألتصق بصدر أمي ، وكانت الأصوات والزحام والغبار المديح والطبول والحمير والزغاريد ، كل ذلك مما راعني ، فصرخت ، فأخذت أمي تهدهدني وقد رفعتني على يديها قليلاً فنظرت حولي فرأيت جدتي آمنة تسير وسط جمع من النساء ، كانت تتمايل مثل مركب تتقاذفه الأمواج ، وهي ترفل في ثياب بعضها فوق بعض وقد كست هيكلها بعباءة سوداء ، ولما كانت قصيرة القامة فقد بدت لي مثل كومة تتدحرج بين مزالق الطريق ، كانت هناك امرأتان تقومان بإسنادها ومساعدتها لتسير الهوينى ، وكانت الحاجة خديجة تمسك بدف وهي تمدح مديحاً عذباً. كان جمع النساء هذا يسير في الناحية الجنوبية للشارع بينما كان جمع الرجال يسير في الناحية الشمالية ، بينما انتشر الصبية هنا وهناك ، دون انتماء لأي جمع من هذه الجموع. أما زوج جدتي آمنة — الذي حج معها — فقد كان يسير وسط جمع من الرجال في خطوات ثابتة لقد كان طويلاً ورفيعاً ومتماسكاً ، وقد طوى عباءته وألقى بها فوق كتفه لتتدلى خلف ظهره ، وقد لملم أطرافها بيد ، وأمسك باليد الثانية عصاً ذات مقبض منحني في شبه دائرة وراح يتوكأ عليها في مهابة وجلال ، لم يكن يثير اهتماماً كبيراً فقد كان رجلاً بسيطاً ومتواضعاً.

هذا المشهد كان واضحاً لي ، ولكن أحد لم يصدقني عندما كنت أقوم بوصفه وصفاً واضحاً ومستفيضاً بعد أن كبرت قليلاً ، وعندما كبرت رأيت كيف أن بعضاً ممن كانوا يحيطون بنا من الكبار وهم يقومون باستدراج الصبية الى المراحيض والمنازل المهجورة والحدائق البعيدة حيث يمارسون معهم شذوذهم ، وقد تعرض صديقنا حسن التوم لتجربة كهذه.

كان حسن التوم يسكن في منزل قريب من المسجد ، ولا بد من أن يكون قريباً ما دامت القرية صغيرة ، وبيوتها متقاربة ، وكان يذهب للمسجد حيث كان فناؤه يجمع أنواعاً كثيرة من الأشجار منها أشجار العناب والجميز والنبق والنخيل ، فكان يجمع من ثمارها ، أحياناً يلتقطها ، وأحياناً يقذفها بالحجارة ، فتتساقط منها الثمار. وفي إحدى الأمسيات اقترب منه علي عبد الجبار وهو شاب في العشرين من عمره وهو من يؤذن للصلاة ، وطلب من حسن أن يصعد معه المئذنة ليرى القرية من فوقها ، فتبعه حسن مسروراً ، وبعد أن أذن للصلاة ، أمسك بحسن وهدده بأنه سوف يُلقي به من فوق المئذنة إذا هو لم ينفذ ما يطلبه منه ، فرضخ له حسن ومارس معه جريمته الشنعاء. وقد أصيب بجرح في الشرج ، وقد تطور الأمر فأخبر حسن والده حاج التوم الأنصاري فعرض حسن على الطبيب الذي أقر بوجود الجريمة ، وقبض على الجاني ، الذي استدرج حتى اعترف بجريمته ، وقد حكم عليه بالسجن لمدة وصلت الى عشر سنوات ، وقد تحول أهل قريتي جميعاً الى حماة للشرف والفضيلة ، حتى لم يعد هناك من واحد يشك في أخلاقه ، وقد انشغلوا بهذا الحديث أياماً ، أما حسن فقد سافر فيما بعد الى مصر منارة العلم ، حيث التحق هناك بالأزهر الشريف وصار عالماً ، وقد أحب مصر حباً ملك عليه شغاف قلبه ، وقد تزوج من مصرية عملا بوصية الامام الشافعي رضي الله عنه والتي يقول فيها فيما يزعم الرواة :

— من لم يتزوج بمصرية فهو غير محصن.

وقد يسأل سائل : لماذا أذكر مثل هذه الواقعة المشينة في تاريخ القرية؟ صحيح

أنها مشينة لكنها موجودة منذ القدم وقد تطرق القرآن الكريم اليها عندما تحدث عن قوم سيدنا لوط عليه السلام في سورتي الحجر والنمل وغيرها من السور ، وكان قوم لوط ــ كما جاء في القرآن ــ يأتون الذكور بدل الإناث وعندما طلب منهم سيدنا لوط عليه السلام أن يؤمنوا بالله ويكفوا عما هم فيه من ضلال ، سخروا منه وصمموا على إخراجه من قريتهم : فأنزل الله عليهم ملائكته يحملون العذاب إليهم ، فصاحوا بهم فماتوا جميعاً ، وحمل الملائكة القرية ونكسوها فجعلوا عاليها سافلها ، وأمطر الله عليهم حجارة من سجيل وقد نجا لوط ومن معه لأنهم خرجوا من القرية ليلاً بأمر من الملائكة .

وهناك سبب رئيسي جعلني أذكر هذه الواقعة المشينة وهو أن الهمس كان يدور بأن من أفشى هذه العادة الذميمة هم الانجليز ، وكان ذلك سبباً في حرمان الكثير من أبناء زمني من دخول المدارس التي فتحها الانجليز لأنها تفسد الصبية ، وأعتقد أن هذه التهمة ألصقت بالانجليز المستعمرين للبلاد لتظلمهم بعض الشيء ، فقد حكى لنا حاج التوم الأنصاري أن الإمام محمد أحمد المهدي ــ رحمه الله ــ قد شاهد في مدينة الأبيض رجلاً يزفّ الى رجل فكان ذلك سبباً من جملة أسباب دعته للتعجيل بالثورة الإصلاحية الدينية ، تلك الثورة الخالدة في تاريخ الأمة السودانية ، وسواصحّت هذه الرواية أم لم تصح فإنها تلقي بعض الضوء على تفشي هذه العادة ووجودها منذ القدم ، ويقولون إن أغلب من يمارسون هذه العادة غالباً ما يكونون عباقرة في الفن والأدب ، الأمر الذي جعلني أعتقد أن قريشاً لا شك مليئة بالعباقرة والأعلام .

أمضى علي عبد الجبار أعوامه في سجن المديرية ، ثم خرج وعاد الى القرية ومارس فيها حياته كالمعتاد ، وقد قال عنه إمام المسجد الشيخ عبد الرحمن : إن الله قد غفر له لأنه عوقب وتاب فعاد الى مهنته السابقة يؤذن للصلاة ويقيمها ، وصار من الملازمين لحلقات الدرس الذي يلقيه مولانا الشيخ حسن التوم وذلك عندما يحضر من مصر في زيارة من زياراته لقرية القلعة .

لا شك أنكم قد لاحظتم أنني لا أتحدث عن أسرتي كثيراً، وأنني أمر على ذكرهم مروراً عابراً، ذلك لأنني لا أجد ما يميزهم عن الناس، وقد ابتعدت عنهم عندما اكتشفت الجزيرة التي عشت فيها حياتي حتى صرت عجوزاً أجلس بجانب الساقية القديمة وأنا أتقلب في حفرتي وأردد في ذات نفسي:

— ليتني لو لم أوجد أصلاً.

كان مصدر هذا الاحتجاج المستحيل هو أن نهايتي ستكون الموت، لا شيء غير الموت، فلماذا إذاً حياتنا؟ خاصة عندما أدركت أن حياتي رغم امتدادها، كانت قصيرة جداً.

لقد سمعت أن كثيراً من الفلاسفة المتشائمين خاصة قد طرحوا على أنفسهم هذا السؤال، وتبحروا في الحديث عنه، أما أنا فقد هداني تفكيري المتواضع الى هذه النتيجة البسيطة فعاد إليّ يقيني وإيماني، وهي:

— أن وجودي فضل من الله وكرم أسبغه علي، لقد وهبني هذه الحياة لأنعم بها ولو لساعة واحدة، ثم أعود إليه مرة أخرى أليس هذا أفضل مما لو لم أوجد أصلاً؟ لكن وجودي كان أمراً مقرراً في الأزل، لأنني لو لم أوجد لما وجد هذا الكون، ولما كان هنا هذا العالم. أن لا يكون أي شيء، لا أنا ولا العالم، هو الأمر الذي لا ينبغي التفكير فيه، لأنني لو جلست أفكر في مثل هذا الأمر ساعة من الزمان فسوف ينتهي بي الأمر، إما الى الجنون أو الى الانتحار.

خلاصة الأمر، أنني أحمد الله الذي أوجدني، وأنني أحب حياتي، وأودّ لو تطول، ولكن يجب الاعتراف بأنني لا أقدس الموت، ولا أرى فيه شيئاً يستحق أن يتمناه الانسان، لأنه أمنية كل إنسان في نهاية المطاف.

هذا بعض ما كنت أحدث النفس به عندما كنت أجلس وحيداً في المكان المهجور من الجزيرة، وكان أكثر ما يخيفني هو أنني كنت أستطيع استعراض حياتي وتلخيصها في ثوان قليلة، وبدأت أتيه في علاقة دورة الزمن الذهبية بالحياة.

كنت أردد هذه الخواطر والأفكار همساً ، ثم أصبحت أحرك بها شفتي ، وليس في هذا ما يثير ، فكثير من الناس يتحدثون مع أنفسهم ، ولكن حديثي بدأ يتخذ شكلاً خطيراً ، ولذلك عندما بدأت أتحدث مع نفسي بصوت مسموع.

كنت فجأة أنادي شخصاً قد يكون موجوداً ، وقد لا يكون موجوداً بصوت مسموع لأمر لا أعرفه ، وكان من يسمعني يرد ذلك لجنوني أو خرفي ، كنت أسمع أصواتاً مبهمة ، وعندما تكون زينب قريبة مني وتسمع ندائي ، فإنها تقترب مني وتقول لي في حدة وعتاب :

— لقد حذرتك من الجلوس هنا في هذا المكان ، قم وتعال معي .

كنت أعرف أن من تحدثني هي زينب ، لقد بدأت أحس نحوها بحساسية شديدة ، فكنت أحس بها عندما تقترب مني ، وأكثر من ذلك ، فقد كنت أحس بها وهي تفكر في الاقتراب مني ، حتى أنني كنت أراها متجهة نحوي.

كان مجرد ظهورها أمامي يملؤني بطوفان من الكراهية نحوها ، بما لو سكب بعض منه لأغرق العالم ، شيء واحد كنت أتمناه لها ، أن تموت ، إنه الحل الوحيد الذي ينهي قضيتي معها لكن الموت كان بعيداً عنها وقريباً مني ، وقد زاد نفوذها في الجزيرة ، وصارت لها أهمية خاصة أما أنا فقد تضاءل نفوذي بمشيئتي ، وصرت أقرب لأهل الآخرة مني لأهل الدنيا ، وهذا ما كان يضاعف من كراهيتي وحقدي نحوها.

وسألت نفسي :

— لماذا كل هذه الكراهية تجاه هذه الزوجة المخلصة؟

نعم ، إني محق في كراهيتي لها ، صحيح أنها منحتني الحب لحظة ، ذلك الحب الذي صار وهماً لا أذكر منه الآن شيئاً ، وأنجبت لي عادلاً وعصاماً ، عادل بعيد عني لأنه مشغول في أعماله واستثمار ما تعبت في صنعه ، وعصام مات غرقاً ، هذا كل ما منحتني إياه ، وهي في مقابل ذلك قد أحاطتني بسجن رهيب .

كنت أحب أن أقيد بقيد حقيقي ، وأن أسجن في سجن حقيقي حيث يعرف الانسان نفسه ، أما في ذلك الوضع حيث القيد موجود وغير موجود ، والسجن موجود وغير موجود فقد كنت ضائعاً تماماً ، وقد تأكد لي هذا الضياع يوم أن حرمتني من جميلة . أجل جميلة زوجة المرحوم توفيق .

وحتى لا يدهش القارىء فسوف أستعرض الأمر من أوله .

كنت منذ أن ولدت سعاد ، قد عقدت العزم أن أزوجها من ولدي الكبير عادل ، ولكن زينب كانت تعارض هذا الزواج بحجة أن توفيق وزوجته جميلة ليسا في المقام المناسب لابنها عادل ، وكنت أبذل الجهد الكبير لإقناعها ، وعندما مات توفيق — رحمه الله — بدأت أفكّر في مستقبل امرأته جميلة ، وبدأت أسأل عنها ، وأرعى شئونها وشئون ابنتها الوحيدة سعاد ، وصارت أثيرة عندي فصرت أقضي معها معظم الوقت ، فقد اكتشفت — رغم كبر سني — أنني أحبها ، وأنني قاب قوسين أو أدنى من عرض الأمر على سعيد ، الذي كان يتوقع مني ذلك ، فينتهي الأمر بسرعة وصمت ، كانت جميلة تصغر زينب بنحو عشرين عاماً ، كانت قد بلغت ذروة النضج والشباب حتى ان الانسان لا يستطيع أن يفرق بينها وبين ابنتها سعاد ، وقد أحست زينب بالأمر . ودار بين الناس لغط شديد في هذا الأمر .

وفجأة ظهرت تلك الحماسة المفاجئة من جانب زينب لزواج ابنها عادل من سعاد ، وكان هناك ذلك الحب الخفي والمستتر الذي كنت ألاحظه بين عادل وسعاد ، ورغم أنني تحمست حماستها إلا أنني فيما بعد اكتشفت الحقيقة ، لقد كانت تريد إبعادي عن جميلة لأنني كنت أشعر بحرج لأكون عديلاً لابني .

لقد فعلتها وكان الدافع لذلك مصلحتها فقط ، وبدأت أكرهها ، لقد تجاهلت الأمر وكأنَ شيئاً لم يكن ، وفرحت لفرح عادل وسعاد ، ولكن كان هناك في داخلي شيء ينمو ، إنني أحس به الآن وأنا قابع في هذه الحفرة الرطبة بجانب الساقية القديمة في انتظار شيء مجهول . أعرفه لكنني لا أحفل به لدرجة أنني لا أكاد أصدق حدوثه .

لقد كرهت زينب ، وعادلاً ، وكراهيتي لعادل كراهية مبهمة ، فأنا لا أحب أن يلحق به ضرر ، إنني أريده أن يبقى لأكرهه دون أن أخسره ، كرهت جميلة خاصة عندما تحترمني ذلك الاحترام المبالغ فيه ، وعندما تسبغني بنوع من الحنان والرعاية ، وكأنها تقول لي : ما أجدرني أنا بك.

أما سعاد فلم أكرهها أبداً ، لقد كانت صغيرة وجميلة وفاتنة ، خاصة بعد أن وضعت مولودها الأول والأخير توفيقاً ، لقد امتلأ جسدها فصار مفرهداً وأكثر نعومة وفتنة ، كان مثل هذا القوام وهذا الجمال قد أثارني من زمن بعيد عندما رأيت زينب. واليوم يثيرني أكثر وهو بعيد عني.

سرت أرسل لصديقي سعيد هلال ، وكان سعيد هلال لا يحضر عندي الا نادراً رغم صداقتي له وقربه مني ووجود ابنته جميلة بيننا مع ابنتها سعاد وولدها توفيق ، لكنه كان يعلم أنني منصرف عن لغوه الى ما كان يشغلني من أمر الجزيرة ، أما الآن فهو يحضر عندي بصفة مستمرة ، فنجلس معاً تحت رأس الحربة ، نشرب القهوة وهو يقصّ عليّ المِلَح والنوادر التي تحدث بالقلعة وكلها تدور حول الجنس.

كنت أستمع الى نوادره وحكاياته الكثيرة ، وأنا أضحك ولا أكاد أكف عن الضحك ، وقد ظن أنني مسخت في آخر العمر ، وقد تطور الحديث وبدأت أسأله عن تلك العقاقير التي تزيد من شهوة الرجل.

دهش سعيد لهذا التطور الخطير الذي طرأ على حياتي ، ولكنه كان يصف لي بعض العقاقير ، وبعض أنواع الأطعمة ، شعرت بعد استعمالها أنني قد صرت قوياً وقادراً على ممارسة الجنس وكأني في الثلاثين من العمر.

لقد أحببت سعاد منذ زمن طويل ، وقد فرحت عندما تزوجها عادل ـــ رغم أن هذا الزواج قد حرمني منها ومن أمها ـــ لأنني على الأقل سوف أضمن بقاءها بقربي والتمتع بالنظر اليها.

كنا عندما نقوم بعمل جماعي كنت أطلب من سعاد أن تعمل في مجموعتي ، حدث ذلك عام الفيضان فعندما كنا نقوم بتلك الأعباء من اصلاح كيس أو شد حبل ، أو نندفع لتثبيت عود من الأعواد ، وسعاد بجانبي ، كانت تحدث بعض تلك الاحتكاكات الصغيرة ، وذلك عندما ألامس صدرها أو مؤخرتها ، أو حتى عندما ألتصق بها في اندفاعة من تلك الاندفاعات الكثيرة ، صحيح أن موضوع الجزيرة كان فوق كل اعتبار آخر ولكن كان لمثل تلك الاحتكاكات الصغيرة ما يجل عن الوصف إنها امتع من اي شيء آخر ، لا شيء كان يمنعني من الزواج بها الا كبر سني وزينب ، حسنا ، فليكن عادل ، وقد كان.

كنت في حفرتي أتقلب عندما أقبلت سعاد ، وأخذت مكانها بجانبي وراحت تدلك لي قدمي ، وضعت يدي على ظهرها ، ثم تركتها تنزلق لتستند على عجيزتها

سرت أرسل لصديقي سعيد هلال ، وكان سعيد هلال لا يحضر عندي الا نادراً رغم صداقتي له وقربه مني ووجود ابنته جميلة بيننا مع ابنتها سعاد وولدها توفيق ، لكنه كان يعلم أنني منصرف عن لغوه الى ما كان يشغلني من أمر الجزيرة ، أما الآن فهو يحضر عندي بصفة مستمرة ، فنجلس معاً تحت رأس الحربة ، نشرب القهوة وهو يقصّ عليّ المِلَح والنوادر التي تحدث بالقلعة وكلها تدور حول الجنس .

كنت أستمع الى نوادره وحكاياته الكثيرة ، وأنا أضحك ولا أكاد أكف عن الضحك ، وقد ظن أنني مسخت في آخر العمر ، وقد تطور الحديث وبدأت أسأله عن تلك العقاقير التي تزيد من شهوة الرجل .

دهش سعيد لهذا التطور الخطير الذي طرأ على حياتي ، ولكنه كان يصف لي بعض العقاقير ، وبعض أنواع الأطعمة ، شعرت بعد استعمالها أنني قد صرت قوياً وقادراً على ممارسة الجنس وكأني في الثلاثين من العمر .

لقد أحببت سعاد منذ زمن طويل ، وقد فرحت عندما تزوجها عادل — رغم أن هذا الزواج قد حرمني منها ومن أمها — لأنني على الأقل سوف أضمن بقاءها بقربي والتمتع بالنظر اليها .

كنا عندما نقوم بعمل جماعي كنت أطلب من سعاد أن تعمل في مجموعتي ، حدث ذلك عام الفيضان فعندما كنا نقوم بتلك الأعباء من اصلاح كيس أو شد حبل ، أو نندفع لتثبيت عود من الأعواد ، وسعاد بجانبي ، كانت تحدث بعض تلك الاحتكاكات الصغيرة ، وذلك عندما ألامس صدرها أو مؤخرتها ، أو حتى عندما ألتصق بها في اندفاعة من تلك الاندفاعات الكثيرة ، صحيح أن موضوع الجزيرة كان فوق كل اعتبار آخر ولكن كان لمثل تلك الاحتكاكات الصغيرة ما يجل عن الوصف إنها امتع من اي شيء آخر ، لا شيء كان يمنعني من الزواج بها الا كبر سني وزينب ، حسناً ، فليكن عادل ، وقد كان .

كنت في حفرتي أتقلب عندما أقبلت سعاد ، وأخذت مكانها بجانبي وراحت تدلك لي قدمي ، وضعت يدي على ظهرها ، ثم تركتها تنزلق لتستند على عجيزتها

اللينة ، وفجأة نظرت الى مكان البئر ، وتحدثت حديثاً واضحاً ، وان شخصاً ما يقف أمامي .

قالت سعاد لي بدهشة وخوف :

— الى من تتحدث؟

— ألم تشاهدي شخصاً هناك؟

التفتت الى حيث أشرت ، الى موضع البئر ، ثم قالت بدهشة ، وقد أيقنت من جنوني :

— لا .. انني لا أرى شخصاً هناك.

قلت لها بكل ثقة واطمئنان :

— لقد رأيته !

— من؟

— الشبح !

صاحت بخوف ورعب ، فقد كانت فكرة الشبح واردة عند الجميع :

— الشبح ؟

— نعم !

— وهل رأيته ؟

— نعم ! إنه توفيق .

— توفيق !

— نعم .. توفيق والدك.

٣

كنت قد أيقنت أن هذا المكان من الجزيرة يحتوي على سر ما ، انه مكان قد صنع نفسه بحيث يوحي بالصمت والرهبة والظلام ، مكان موحش لا يقترب منه أي انسان ، كنت قبل ذلك قد توصلت الى حقيقة فحواها :

— ان الجنون هو نحن ، نحن الأشباح والخوف والشر والخير والانهار والفضيلة والموت وكل شيء .

ولكن عندما رأيت شبح توفيق ، بدأت هذه الرؤيا تهتز في نفسي ، لقد رأيته ينهض من وسط الماء عارياً كما ولدته أمه ، لقد زال منه الخوف والرعب الذي رأيته مرتسماً على وجهه يوم أن غرق . وسبب ذلك الخوف والرعب ، أنه في تلك اللحظات الممتدة في الزمان ، كان يعرف أنه يموت والآن فانه يقف أمامي مشدوداً في الهواء ، وقد تراءى لي أنه يملك قوة تتشكل بارادته ، وانتظرته أن يتكلم ، لكنه لم يتكلم ، ربما لأنه رأى سعاد تقف بجانبي ، كانت سعاد تنظر إلي بدهشة ، أما أنا فقد ألجمتني المفاجأة ، ولم استطع أن أحرك شفتي بكلمة واحدة .

نظر كل منا الى الآخر ، كانت نظرته مسددة نحوي بحيث أنها تكاد تلمسني ، وأخيراً استجمعت شتات نفسي ، وصحت فيه :

— من هناك؟ ماذا تريد؟ من أين جئت؟

لقد صارت حياتي سلسلة من الحيرة والانحراف والجنون والكراهية والحب وها هو الشبح يزيد عليها بأن يجعل مني قاتلاً، لم يرعبني هذا الاتهام، فكلنا نقتل الآخرين بطريقة ما، وكلنا قتلة.

مسكين توفيق أنه الآن وبعد أن مات يفصح عن نفسه، ولو كان حياً لما واجهني هذه المواجهة أبداً، ولما خاطبني بهذه اللهجة القاسية الجافة، ولكن هذه المواجهة أن دلت على شيء، فانما تدل على تلك الثقة التي كان يضعها في، وله الحق في أن يثق بي، فقد رآني أنجز أشياء كثيرة، فظن عندما كان يغرق أنني الوحيد القادر على انقاذه، معنى ذلك أنه كان قد قرر أن يموت لو أن شخصاً غيري حاول انقاذه، انه يقارن نفسه بعادل، لقد كانت قوة الحياة عند عادل أقوى منها عنده، كان عادل يحاول أن يسحب نفسه من تحت الطين، أما هو فقد أمسك بيد عصام وجذبه معه الى القاع.

رغم هذه الأفكار التي راودتني فقد جعلني حديثه في حيرة من أمري وبدأت أعتقد أنه كان بإمكاني أن أنقذه لو حاولت ذلك، ثم بدأت أحلل الأحداث وأقول، لو أنني حاولت انقاذه لما غرق عصام.

وهكذا تشتت ذهني، وتبلبلت أفكاري وفكرت في أن أعد له رداً معقولاً عندما أقابله في المرة القادمة، وسوف أقول له:

— لقد مت يا ولدي، وحدثت المنية في ذلك اليوم، وفي تلك الساعة، وبالصورة التي عرفتها، فاذا لم تكن قد حدثت في ذلك اليوم، فهي سوف تحدث في المستقبل واذا لم تحدث في المستقبل فانها سوف تحدث الآن، واذا لم تحدث الآن فهي آتية لا ريب فيها، لا تجادل في قدرك ما دام هناك دائماً وأبداً ذلك الكأس في الانتظار، جميعنا نعرف ذلك وننتظر ذلك في خوف، أما أنت فقد وضعت حداً لخوفك ومضيت في أمان.

قلت في نفسي، هذا الكلام يقوله الواعظون كل يوم، وقد سمعه توفيق مرات ومرات، وما أظن أنه قد اقتنع به، ولو اقتنع به لما تمرد ضد موته ذلك التمرد،

ورفض قدره هذا الرفض ، اذاً فلا بد من أن اخاطبه باللغة التي خاطبني بها ، لغة التحدي ، لذلك فعندما أقابله فسوف أفاجئه كما فاجأني وأقول له :

— اذا كنت غير راضي عن موتك فتعال وواصل حياتك معنا مرة ثانية ، اننا يا ابني لم نسع في موتك ، وقد حزنا عليك حزناً شديداً يوم فقدناك أنت وعصام.

نعم سوف أفاجئه بهذا التحدي ، وسوف أكون محظوظاً اذا هو أجابني ، سأكون حينئذ قد توصلت الى لغز الموت.

ورحت أطارده ليل نهار ، لا أفارق موضع الساقية القديمة الا لماماً ، لكنه لم يظهر أبداً ، لقد مضى وطوى سره معه ، وقد صرفتني هذه المطاردة عن سعاد التي لا أبدل بها شيئاً آخر مهما كان.

وأنا منهمك في هذه القضية شعرت بأن سعاد صارت تقترب مني أكثر وأكثر، وقد أذهلها انصرافي عنها كل هذا الانصراف، انها تريد أن تستأثر بي، وصارت تتزين وتختار عطراً كنت قد ذكرته لها، وأبديت ارتياحي لرائحته، كان واضحاً أنها تحاول اغرائي أو اغوائي، وأكثر من ذلك فقد صارت تغار علي.

قد يضحك القارىء عندما أذكر له هذه الحقيقة، وهل يمكن لسعاد بكل شبابها وجمالها أن تحبني كل هذا الحب؟ وأن تصل الدرجة التي تغار علي فيها؟

نعم! وسبب هذه الغيرة فتاة اسمها هدى كانت تأتي مع والدتها لزيارة الضريح، كانت جميلة جداً، انها كالضوء الساطع الذي لا تستطيع أن تنظر اليه، كان عمرها نحو خمسة عشر عاماً، وفي زيارة من هذه الزيارات اقتربت منها ضاحكاً، وقد شعرت بالسعادة وهي تراني اقترب منها، مددت يدي فمدت لي يدها فصافحتها بحرارة، ثم مررت بيدي اليسرى على شعرها الناعم ورحت أسألها بصورة أبوية عن اسمها واسم والدها، وقد عرفته وعرفت أهلها فهم من عائلة الأسطى عبد الوهاب — رحمه الله — وبعد أن تمت المعرفة، سألتها عن أسماء بعض من أعرفهم من أهلها ومنهم ابراهيم عبد الوهاب، وسرعان ما استأنست بي فطلبت منها أن تأتي معي لترى بعضاً من معالم الجزيرة، فسارت بجانبي وأنا أستند بيدي على كتفها حتى وصلت رأس الحربة، فحدثتها عنها وعن تاريخها، الذي هو تاريخ الجزيرة، فارتسمت على وجهها امارات الاعجاب والاكبار والدهشة لذلك الماضي التليد، ثم طلبت منها أن

تتبعني الى مكان الساقية القديمة لترى آثارها وترى المكان الذي غرق فيه توفيق وعصام فتبعتني الى هناك ، وهناك في مكاني الذي أعرفه جلست مرهقاً فجلست بجانبي باطمئنان ، وطلبت منها أن تدلك لي قدمي ففعلت ، فكنت في أثناء دلكها لقدمي ألمس بعض أجزاء جسدها النامي البض الصغير ، كانت مستغربة لكنها لم تشعر بالخوف مني ، كانت سعيدة وان كانت أفكارها غير مستقرة على شيء واضح وهي تراني أتحسس جسدها ، كانت تعرف أنها جميلة ، ويمكن أن تكون مشتهاة من أي انسان حتى لو كان انساناً عجوزاً قميئاً مثلي ، وربما اعتقدت انها قد سحرتني بجمالها ، سحراً يرضي غرورها لكنه لن يصل الى ارضاء عاطفتها . كنت أحس بيدها طرية ناعمة وهي تدلك لي قدمي الخشنتين الجافتين المعروقتين كانت تدلكهما برفق وحنان فهي تدرك بالفطرة أنها تتعامل مع جسد عاجز وضعيف ، وفجأة أحسست بأن هناك عينين في مكان ما تحدقان نحوي . انها عينا سعاد ، أنني أعرف ذلك ، ولكن أين يا ترى تكون؟

كنت قد بدأت أحس بالناس وهم بعيدون عني ، ولكن احساسي بسعاد كان أكثر حضوراً في ذهني حتى أنني أحس بها في اللحظة التي تفكر فيها في الحضور الى هنا . لا شك أنها الآن قريبة منا ، وانها تنظر وتحدق وترى كل شيء ، انها الوحيدة التي تدرك سري ، لو حضر أي انسان غيرها وشاهد هذا المنظر ، لما فكر في شيء ، أما سعاد فلا ، لأنها تعرف الكثير عني أكثر مما يعرفه الآخرون .

عندما رفعت رأسي كانت سعاد تقف قريبة منا ، تنظر الينا نظرة من أدرك قصدي ، ابتسمت وقلت لها :

— تعالي يا سعاد وسلمي على أختك هدى .

أجابتني بصوت استشففت منه السخرية :

— حاضر يا جدي .

اقتربت سعاد ومدت يدها الى هدى ، فنهضت هدى وصافحتها ، وفي هذه اللحظة جلست سعاد في مكانها بجانبي بينما ظلت هدى واقفة وسعاد ترمقها بغضب .

قالت سعاد وهي تكاد تلتصق بي :

— لقد علمتني يا جدي كيف أدلك قدمك . هل كانت تعرف ذلك ؟

ونظرت الى هدى نظرة ذات معنى .

قلت لها بود :

— نعم ! لقد دلكت لي قدمي برفق ولين .

صاحت بدهشة واستنكار :

— اذن فهي تعرف !

ضحكت وقلت لها وأنا أعرف ماذا تقصد :

— انها لا تعرف شيئاً ، لقد تصرفت بادراك سليم .

نظرت الى هدى وقلت لها :

— لماذا لا تجلسين؟

ضحكت ببراءة وقالت :

— شكراً يا جدي العوض ، سوف أعود ، فقد تكون أمي في انتظاري .

وبتلك الروح الطفولية اسرعت عائدة الى حيث تجتمع النساء بقرب الضريح .

قالت لي سعاد بعد أن ذهبت هدى :

— هل مسكت ضفائر شعرها؟

وعندما رأت صمتي ، قالت :

— هل تحسست جسدها؟

أطرقت في صمت ، وران علينا صمت ثقيل ، فواصلت حديثها بحنق .

— نعم ، لقد مسكت شعرها ، وداعبت نهديها ، ومررت بيدك على فخذيها ، أعرف ذلك ، ولكن ليس تحت ثوبها ، أليس كذلك؟

انك لا تعرفها حق المعرفة بحيث تدخل يدك تحت ثوبها وتلامس جسدها ، أخشى أن تكون قد فعلتها ، انك بطريقتك تلك سوف تسبب لنا فضيحة .

صمت غاضباً ، وخوفاً من أن تراني غاضباً ، راحت تدلك لي قدمي ، ثم القت برأسها في حجري وقالت بصوت خفيض حنين :

انك تلازم هذا المكان بصفة مستمرة ، انك تدفع بنفسك الى الجنون ، سوف أحضر الى غرفتك غداً في الصباح ، عندما يحضر الجميع الى هنا ، ان لدي مشكلة عاجلة ، وأريد أن آخذ رأيك فيها مررت بيدي على شعرها ، وقلت :

— سأكون في انتظارك ، ان شاء الله .

نهضت ثم انصرفت راضية عني ، لكنني كنت أعلم أنها قد بدأت تغار علي من هدى ، وبدأت أفكر في يوم الغد .

٥

صارت سعاد مشتهاة من كل من حولها بما فيهم أنا ما عدا عادل ، لقد أصابها مرض الانسانية الخطير ، وأحد عذاب الانسان من جملة عذابات كثيرة ، انه الملل والرغبة في التغيير بدون هدف.

كانت الجزيرة والقلعة تطل على العالم في وحدة وسكون ، وبدأنا جميعاً نتحول الى مثل تلك الكائنات المبهمة التي لا تعرف من قيمة الحياة شيئاً ، وان كنت أحاول أن أجعل من حياتي أمراً شائقاً ، وأن أمنح الحياة من حياتي قيمة جديدة ، عسى أن تتحرك الأحداث من حولي ، كنا نستعجل مرور الأيام وكأننا في سباق مع الزمن ، وقد تأتي علينا لحظات يتساوى فيها الزمن ويختلط بالأمس باليوم بالغد في دائرة لا يمكن تطويقها وكأننا مسحورون بأنشودة صوفية رائعة.

عادل شبع من سعاد وبدأت حماسته تفتر نحوها وزاد من فتوره نحوها أن أمه بدأت تشتكي منها وتتذمر لأنها لم تنجب لابنها الوحيد سوى ولد واحد ، وهي تريد له عشرة من الأبناء على الأقل ، وقد لاحظت سعاد وامها ذلك ، وبدأتا تشعران بالعداء تجاه زينب ، ووضح أن زينب تشجع عادلاً على الزواج من فتاة أخرى تنجب له أطفالاً ينفعونه كما تقول ... وهكذا صار مجتمعنا الصغير هذا يشهد صراعاً مثله في ذلك مثل بقية العالم.

تطور الأمر بين زينب من جهة وسعاد وجميلة من جهة أخرى الى مواجهة وعداء ، لقد سيطرت على زينب فكرة خطيرة ومدمرة جداً ، فهي الأم وصاحبة

الحق الأول والأخير في ابنها ، ولم تعد فكرة الانجاب هي الأساس في هذا الصراع ، بل كانت الشرارة التي تضرم النار ، لأن المجموعة في الجزيرة شعرت بأنها في حاجة الى الصراع والخصام .

كنت أراقب هذين الفريقين ، سعاد وجميلة من جانب وزينب من الجانب الآخر ، وعادل موزع بينهما لا يستقر على حال ، فتارة تجده مع زوجته وابنه ، وتارة تجده مع أمه في مكان منعزل . وكثيراً ما يحدث في منطقتنا مثل هذا الصراع ، وذلك عندما تتدخل الأم فيجد الازواج مبرراً للتخلص من الزوجة الأولى ، والزواج مرة ثانية ، انني أتصور ، أنه لو كان لعادل الكثير من الأبناء ، لقالت لعادل أنك لا يمكن أن تعيش وسط كل هذا الزحام ، خير لك أن تبحث عن زوجة تمنحك الراحة والاستقرار .

هل كانت سعاد تقترب مني ذلك الاقتراب الحميم لأقف بجانبها لأمنع هذا الزواج ، لقد قالت لي انها تريدني في أمر هام ، ما هو هذا الأمر الهام؟

اعتقد أنه لا يوجد في حياة المرأة أمر أكثر أهمية من الاحتفاظ بزوجها خالصاً لها ، بجانب ذلك فربما كانت تريدني لتشبع في نفسها ذلك الفضول الذي يدفعها للتعرف على عالمي؟ وهو عالم لا يخلو من اثارة وسحر رغم أنه عالم قديم ومحطم .

كانت هذه الأفكار تمثل جزءاً يسيراً من الأفكار التي كانت تراودني في ذلك الصباح وأنا في انتظار ما سيسفر عنه لقائي مع سعاد حسب وعدها لي .

كنت وحيداً في القلعة ، وكنت أعرف أن زينب وجميلة وتوفيق وعادلا في الجزيرة ، وأن سعاد هنا وحدها تقوم بأعباء العمل المنزلي وسوف تحضر بعد قليل ، انها الآن تعد نفسها وتعد العدة لزيارتي ، انني أحس بها تهيء نفسها لما يمكن أن يكون لقاء متعة وفجور وسقوط .

كنت أستلقي على السرير ، كان الجزء الأسفل من جسدي ملفوفاً بآزار من القماش الخفيف ، بينما كان الجزء الأعلى عارياً ، لا أستطيع أن أسجل كلما خطر بذهني من خواطر في تلك اللحظات الا أنني سألت نفسي هذا السؤال :

— ماذا تراني فاعلاً بها ان هي حضرت؟

هي تعرف قصدي، ولكنني لم أكن قد توصلت الى المرحلة التي تصل الى المضاجعة لها، أنها فكرة مستبعدة، ولا حول ولا قوة الا بالله، ولكن يجب أن أعترف أن الفكرة كانت واردة في ذهني بصورة ما، وأنني أحاول جاهداً أن أبعدها عن ذهني، وفي الوقت نفسه أستعد لهذا اللقاء، ولم أحاول منعه، ولكي أبرر انحراف تفكيري وسقوطي أمام روحي القلقة، القيت تبعة ذلك كله عليها، على سعاد، ورحت ألومها، اذ كيف تسعى لخيانة زوجها؟

وهكذا بدأت أحتقر سعاد الفاجرة، واستمر هذا الاعتقاد لفترة صببت فيها جام غضبي عليها، ولكن بعد أن وصل غضبي وحنقي عليها الى غايته انصرف ذهني نحو عادل، فرحت أبرئها وأخطي عادلاً لأنه يهملها، ومن عادل انصرف ذهني الى زينب، وقلت انها رأس كل هذا البلاء، ولدى تذكري زينب كان ينبغي أن توقظ ضميري لكنني لعنتها، وقلت في ذات نفسي:

— انها الآن في الجزيرة بين المزارعين في أحسن حالاتها من ضحك ومرح وزينة، ولكنها عندما تحضر الى هنا تنقلب الى وحش كاسر.

وأنا في هذه الحالة من الأفكار ومراجعة النفس شعرت بالنعاس، فنمت، ورحت أحلم بالجزيرة ورأس الحربة وسعاد، وقد حلمت بسعاد وهي تنزلق بجانبي، جسداً ناعماً وروحاً شابة، غاب عقلي وضميري، واستيقظ في وجداني شعور الحب الآثم بأجمل ما في الحياة من اثم وحرام. عدت كما كنت في تلك السنين الغابرة عندما كانت زينب صبية وجميلة، والتصقت بشباب زينب أو سعاد أو أي شباب آخر وأي جمال، انه يمدني بأسباب النشوة والانحلال والهيام، كانت لحظات لا معنى لها لأي شيء لحظات لا يضاهيها من حيث اثارتها وغموضها ونشوتها وطهرها سوى الموت. كان حلماً رائعاً. وهل الحياة الا مجرد حلم رائع.

٦

قالت لي سعاد وهي جالسة بقربي بجانب الساقية القديمة تدلك لي قدمي :

ـــ هل سمعت ما تقوله عمتي؟

ـــ لا .. ماذا تقول؟

ـــ قالت : أنها تريد أن تزوج عادلاً .

قلت لها وكأنني لا أعرف شيئاً :

ـــ هل قالت زينب ذلك؟

ـــ نعم !

ـــ ان هذا غير معقول ، كيف تفعل ذلك وهي تعلم انك لست زوجة عادل فحسب ، بل أنت ابنتنا .

ـــ أنها تبحث له الآن عن زوجة .

ـــ وهل يمكن لعادل أن يجد زوجة خيراً منك ، أنت شابة جميلة ومؤدبة ، وفوق هذا وذلك فأنت أم توفيق .

ـــ انها تعرف ذلك ، ولكنها تقول : انها تريد له الأبناء .

قلت لها بدهشة حقيقية :

ـــ وما ذنبك أنت في ذلك؟

أجابت بحزن وحسرة :

ــ انها تقول : أنني لن أنجب أطفالاً بعد توفيق.

ــ غريبة ، لماذا لا يكون عادل هو الذي لا ينجب؟

صمتت برهة ، ثم قالت :

ــ عادل رجل ، ولا يمكن إن يكون هو السبب. هكذا تقول ، ولكن بامكانك أن تمنع ذلك.

ــ كيف؟

ابتسمت في دلال ، ثم قالت :

ــ أنت صاحب الجزيرة والمضخات والقلعة ، وكل شيء ، فبامكانك أن توقف هذا الزواج.

ــ لم أفهم ماذا تقصدين؟

ــ أن قصدي هو أن تهدده ان هو أقدم على الزواج بأنك سوف تحرمه من الميراث.

توهج وجهي بالغضب ، وسرحت بذهني ، ولأنها كانت تعرف أنها قالت قولاً ثقيلاً ، نهضت في حياء ، ثم ابتعدت في هدوء.

أعرف أن كثيراً من الآباء يشهرون هذا السلاح في وجه أبنائهم ، لكن لن أكون هذا الأب اللعين ، هؤلاء الآباء الذين انساقوا في هذا الطريق تحت ظروف كثيرة فعملوا على تخويف أبنائهم وتهديدهم واذلالهم أحياناً ثم حرمانهم أخيراً من الميراث ، ففجروا في النفوس احقاداً وضغائن بوزن ما في الدنيا من أموال ، ناهيك عن ميراث صغير ، ولكن الانسان عندما تجرفه خبائل الكراهية والعداء ، يضحي بالحب والخير والجمال وهم أجمل ما في الحياة من جمال.

استغلت سعاد سقوطي وانحرافي لتشهر في وجه ولدي هذا السلاح الخطير ،

سلاح الحرمان من الميراث ، وهو لعمري سلاح خطير ، ان مجرد الحديث عنه يبدو حديثاً تافهاً وحقيراً .

لن أشهر هذا السلاح في وجه ولدي تحت أي ظرف من الظروف ، ولن أمتن عليه بما كسبته ، ولن أقول له في أي يوم من الأيام ، ان هذا حقي ، لأنه يعرف ذلك ، وسوف يذكره لي يوم أنتقل الى الدار الآخرة ، وما أجمل الذكرى الطيبة ، انها آخر ما بقي لنا .

تبدل الزمان وتغير الحال ، وتذكرت تلك الايام التي كنت فيها قانعاً وراضياً ، كان الايمان يعمر قلبي ، ويبلله بالقناعة والراحة والسكينة ، أين تلك الأيام من هذه الأيام التي بدت لي في ظلمتها ووحشتها كالجحيم .

كنت أظن أنني سأجد في الصمت والغربة والجنون هروباً وسلوى ، لكن سعاد لا تريدني أن أكون وحيداً وغريباً ومجنوناً ، انها تشدني الى الواقع الذي لا أريده ، وحتى أتمكن من ابعادها عني رحت أشهر في وجهها سلاحي الخطير ، خرفي وجنوني اللذان يبرران لي كل شيء ، ويحرمان غيري من كل شيء ، فبدأت أتحدث معها وعلى مسمع من البعض حديثاً فاضحاً ، بحيث لو تطور قليلاً لشك الناس من حولي في أمرها ، وبذلك خافت ، وبدأت تتجنبني وتنقطع عني الا عندما أريدها في أمر من الأمور ، فكانت عندما تلتقي بي تنظر إلي في ريبة وغضب وحيرة .

بدأت أفقد شعوري بالحب والولاء نحو الجزيرة ، لقد بدت لي كئيبة موحشة ، انها تضم مجموعة متنافرة وشريرة وأنانية وتجمع كل ما في العالم من فضائل وشرور .

كانت سلوتي الوحيدة في تلك الأيام ، هي في يومي الأحد والخميس من كل أسبوع ، حيث تستقبل الجزيرة قوافل الزائرين لضريح الشيخ ، كنت في هذين اليومين أبدو في أحسن حالاتي ، وكان فرحي يزداد كلما حضرت هدى الجميلة ، وأعتقد أنها كانت تحاول الحضور باستمرار بأيعاذ من أمها ، فقد سمع البعض بما تنوي به زينب من زواج عادل ، وربما راود الأمل والدة هدى أن يكون عادل من نصيب ابنتها .

كنت قد أطلقت على هدى اسم (الصبية) وكنت عندما أقول :

أين الصبية؟

كان الجميع يعرفون أنني أقصد هدى.

وفي يوم من أيام الخميس حضرت هدى ، فأقبلت نحوي ، وقالت بصوت فيه سعادة وفرح :

— جدي العوض ، كيف حالك؟

— الحمد لله يا ابنتي ، وكيف حالك أنت يا حلوة؟

لقد هزها اطرائي لجمالها ، هذا الاطراء الذي يحمل صدقاً حقيقياً ، فمدت لي يدها في دلال وهي تبتسم ابتسامة جذابة ، فمسكت بها ، وضغطت عليها بيدي الضعيفة المعروفة ، فلم تحاول طيلة الوقت أن تسحبها ، كنت أفضل أن أظل هكذا بقية عمري وأنا ممسك بهذه اليد التي تبعث الحياة ، وتعيد بعثي من جديد وتجعلني أفقد الاحساس بأي عذاب ينتابني ، كدت أنسى نفسي ، وأنسى العالم ما عداها ، لقد كانت باتساع الزمان والمكان ، وبسحر الحياة من غموض وجلال وجمال ، لكنني بعد فترة من الزمان الفسيح تركت يدها تسقط من بين أصابعي المرتعشة ، وسرت نحو مكاني فتبعتني الى هناك.

وهناك في حفرتي الرملية والرطبة ، استلقيت منتشياً ، ومددت قدمي ، فجلست في موقع الوسط بجانب جسدي الهزيل ، وقد أعطتني ظهرها الذي اكتسى بشعرها الأسود الطويل ، ثم أمسكت بقدمي اليسرى ، وإنحت لتدلكها لي دلكاً رقيقاً حميماً ، ومددت أنا يدي لترتكز على عجزها اللين المستدير ، وهنا ذابت نفسي وروحي وهامتا في عالم اللذة والنشوة ، لقد سمعت أحد الفلاسفة يقول : أنا أفكر ، فاذا أنا موجود.

أما أنا فأنني أقول :

— أنا أحب وأعشق ، فاذا أنا موجود.

بعد فترة لا أعرف مداها ، رفعت رأسي وجلست ، كنت في وضع يجعلني أحتويها تماماً ، فأحتصنتها ، والتصق صدري بظهرها الرفيع ، فلملمت كل جزء من جسدها في غمرة من يأس اللذة المجنونة الضائعة .

كانت قد أدركت شيئاً ، ولكنها لم تستطع أن تتخيله بوضوح تام ، لحظات إهتزت فيها المثل والأخلاق ، لم أعد أفكر بالدنيا ، أنني أعيش في عالم سعيد . إن الحل الوحيد لإنقاذي هو أن نقبل الحياة كما هي ، بكل ما فيها من فضائل وشرور وآثام ، وأن تتعايش هذه الخصائص الإنسانية ، في شذوذها وإنحرافها ، مع بعضها في سلام .

أخيراً شعرت بالضجر والإكتفاء ، فاستلقيت مرة ثانية ، وسحبت قدمي اليسرى ومددت لها قدمي اليمنى .

سمعت صوت عادل وهو قريب مني وهو يتحدث مع أحد المزارعين فناديته بصوت مسموع ، فأقترب مني وهو في حيرة من أمره ، لأنني لم اعتد على طلبه في أعوامي الأخيرة ، فقد كان هو الذي يقصدني عندما يريد أن يأخذ رأيي في أمر من الأمور .

عندما رآنا حيانا نحن الإثنين ، وهو يقف على مقربة منا .

قلت له باسماً :

— تعال وسلم على هدى .

كان مبهوراً أمامها ، لقد سخره جمالها ، ولما كان خجولاً ومتحفظاً ، شأن الكثير من الشباب عندنا ، فقد صافحها في أدب وحياء .

قلت له مازحاً :

— ما رأيك فيها ؟

لقد وجد الفرصة مرة أخرى ليمتع نظره بها ، وبعد أن تحقق فيها لبرهة كان يتمنى لو تطول ، قال لي مبتسماً :

— إنها فتاة لطيفة.

قلت له :

— لماذا لا تقول لي : أنها أجمل فتاة رأيتها في حياتي ، وتقول لي : لقد أحببتها يا أبي من النظرة الأولى ، وأتمنى لو تزوجت منها.

وهكذا ، بكلمات قليلة وصريحة إنهار حاجز الحياء والتحفظ بيننا ، وإنطلقنا نضحك في سعادة ومرح ، ضحكا يجلجل في الفضاء بعذوبة وصفاء ، ويعلن للخائفين من الجمال أن لحظات الحب لا مثيل لها بين خيرات الأرض جميعاً ، لقد كان وضعي يمكنني من أن أقول أي شيء ، قلت لهدى :

— هذا يا إبنتي ولدي الوحيد عادل ، إننا نبحث له في هذه الأيام عن زوجة ، لا تقلقي فهذا الأمر لن نبحثه معك هنا ، لأن زينب سوف تقابل والدتك وتبحث معها هذا الأمر ، وأنا وبعض الإخوان سوف نحضر في مرحلة لاحقة ، لنكمل ما بدأته زينب مع والدتك ونطلبك من والدك ، أما الآن فانني أريد أن أعطيك فكرة عن الموضوع حتى تكوني على علم ، صحيح أن عادلاً متزوج من سعاد ، ولكن أمه تريد له أطفالاً ، لأنه لم ينجب ، سوى ولد واحد ، وأمه لها الحق في أن تزوج ابنها الوحيد زوجة تلد له أطفالاً كثيرين ، وأنا أوافقها الرأي في ذلك ، أن عادلاً له الآن أكثر من ست سنوات لم ينجب خلالها أي طفل ، دعينا نكن أكثر صراحة ، ماذا يحدث لو حدث لتوفيق أي مكروه — لا قدر الله — بالتأكيد سوف يصبح وحيداً ، إننا يا ابنتي في حاجة إلى الابناء.

كان عادل وهدى يستمعان لحديثي طيلة الوقت وهما مبهوران تماماً ، لقد لخصت الأمر كله ، ولم أترك لهما فرصة للتعليق أو الإستفسار ، كنت أضع السؤال فأجيب عليه بنفسي ، وعندما فرغت من حديثي تطلعت هدى نحو عادل وهي تتمثل فيه زوجها المرتقب ، هذا الشعور الساحر الجميل عندما يغمر قلب الإنسان أول مرة

يجعله ينسى كل شيء ، لأنه يطغي على كل شيء ، وأعتقد أن عادلاً قد سحرها أيضاً ، لقد أخذ من امه جمال القسمات ، وأخذ مني شعوراً بالحياء والكبرياء والعزم .

نهضت هدى ، ثم ألقت نظرة على الجزيرة ، وكأنها تتمثل فيها حقاً من حقوقها المرتقبة ، ثم إنصرفت في خفر وخجل .

قال لي عادل بعد أن إنصرفت هدى ، وهو يبتسم في سعادة وسرور :

— إنك على علم بالموضوع .

— نعم ، فالعواجيز والمخرفين من أمثالي ، لهم أحياناً عقول تعي ، وآذان تسمع وعيون ترى وترصد .

ضحك ثم إنصرف مسرعاً ، كنت أعرفه إنه سوف يذهب إلى إمه حيث يمضيان الليل كله ، هما يقلبان هذا الأمر على وجوهه ، لقد كانا ينتظران موافقتي لينفذا هذا الزواج لأنهما كانا يعتقدان أنني لن أوافق عليه حرصاً على سعادة سعاد ، لقد كنت العقبة التي أقف في طريقهما ، أما الآن فقد إطمأنا لموقفي .

كانت هناك في مكان ما من الجزيرة ، عينان حائرتان ، ترصدان ما يجري ، وهو وأن كان مفهوماً ، إلا أنها لن تصدقه ، لم أعد اهتم بسعاد ، أنها تشعرني بالملل واليأس ، ولا أحد ينقذني سوى هدى .

في أول لقاء بين سعاد وهدى ، كرهت سعاد هدى ، وعجبت لشعور الإنسان الصادق .

٧

كل واحد في الجزيرة يتصرف وفق مصلحته الخاصة ، ثم يدعي بأنه يعمل من أجل الآخرين ، كنت أراقب هذا الجمع الصغير الذي يعيش حولي ، وأرى فيه صورة كاملة لما يمكن أن يكون عليه العالم ، دعني أفسر الأمر كما فهمته وكما وضح لي .

سعاد لا تريد أن يشاركها في زوجها أحد ، رغم ما تحسه من ملل ، وهذا حق من حقوقها ، وهي على إستعداد لبذل الغالي والنفيس من أجل الحفاظ على هذه العلاقة رغم ما فيها من فساد وخراب .

أما جميلة فإنها تريد أن ترى ابنتها الوحيدة مستقرة وسعيدة بغض النظر إذا هي أنجبت أم لا ، لأنها عندما تفكر في الأمر من زاوية أخرى فأنها ترى في سعادة إبنتها سعادة لها ، وفي إستقرار إبنتها إستقراراً لها ، أما إذا تعرضت علاقة ابنتها لخطر ، فأن مستقبلها ومستقبل إبنتها سوف يصبح مهدداً وغير مأمون العاقبة ، أما إذا حدث لي شيء والمقصود بهذا الشيء إذا مت ، عندها سوف يؤول كل شيء لعادل ، فيصبحون في يد الغريمة التي لا ترحم ، زينب . أما إذا تزوج عادل فسوف يصبح كالخاتم في أصبع الزوجة الجديدة التي سوف تعمل قدر المستطاع للاستحواذ على كل شيء ، وحرمانهم من أي شيء ، هذا ما كانت تهمس به جميلة في أذن ابنتها سعاد ، مما جعلها تعيش في خوف مستمر .

أما زينب وقد إنتصرت أخيراً كما تدعي ، فقد شعرت بزهو وسعادة مبعثها أنها قادرة على التصرف في إبنها وفق ما تريد هي . انها إمه التي ولدته ، فهي سيدة الموقف بلا منازع ، نوع من الغرور ، وبعض من الأحقاد والكراهية ، تلك التي تغمر الإنسان أحياناً بأوساخها دونما سبب معقول .

أما عادل فقد أحس بالفرح ، لأن حياته سوف تدخلها هدى ، بكل شبابها وجمالها ، لقد أصبحت حلمه الذي يراوده ليل نهار ، لقد كان عادل ضعيفاً ، وتكاد ، تكون أمه هي كل شيء في حياته ، أنني لا أستطيع أن أصف زينب بالخبث أو المكر . لكنها كانت من النوع الذي يملك قدرة هائلة على السيطرة على أبنائه ، لم تكن بالشخصية القوية ، لأن الشخصية القوية لا تعمل على تدبير الآخرين ، لكنها تتحلى بضعف يستجمع القوة على قهر الآخرين ، فقد كان من طبعها مثلاً أن تتخيل أشياء لا وجود لها . فاذا ضحكت جميلة ، أو همست سعاد ، فلا بد من أنهما يقصدانها ، ثم تتخيل بعد ذلك ، حديثاً كان يدار بينهما فتصوغ منه قصة ترويها بكل الصدق والإنفعال لعادل الذي يصدقها دون أي تفكير أو روية .

أما المزارعون فكانوا يراقبون كل ذلك بعين يقظةٍ لا تغفل لحظة واحدة ، وفي الحقيقة فأننا نجهل دائماً قدر هؤلاء الناس البسطاء ، أن لهم ملاحظة ذكية بحيث لا تفوت عليهم فائتة ، أنه من ذكائهم يوهمون الآخرين بأنهم لا يفهمون شيئاً .

أما أنا فقد كان يهمني أن يتزوج عادل من هدى ، حتى أراها وأتمتع بوجودها في الجزيرة ، لقد كنت في شوق عارم إلى هذه المخلوقة الصغيرة ، شوقاً كان يتعاظم يوماً بعد يوم ، لقد بدت لي وكأنها شيء إلهي أو يكاد ، فما أكاد أراها حتى يقع في روعي أنني أرى أحد الملائكة الأطهار ، لقد كانت هدى آية في الجمال ، إنها رشيقة وخفيفة كأشعة الشمس أو نسمات الربيع ، كانت تعلو وجهها سيماء من البراءة الحالمة أشبه ما يكون بتلك التي يخلقها خيال المرء على الكائنات الأسطورية ، أن عينيها الواسعتين العسليتين المظللتين بأهداب سوداء يميزانها عن جميع الفتيات ، وشعرها الأسود الطويل ولون بشرتها القمحي الذي يلمع كالذهب الصافي يجعلان

منها ومضة مشرقة من ومضات الجمال الساحر ، كان قلبي يهفو لها ليل نهار رغم أنني كنت أتصنع عدم الإهتمام بهذا الحدث الذي يثير كل هذا الجدل والعداء والخصام ، ولكنني كنت التقط من أخباره كل شاردة وواردة.

ومرة أخرى صرت موضع إهتمام كبير، فها هو عادل يتقرب إليّ من جديد، ويأنس للحديث معي ، فقد عرف أن موضوع هدى يستهويني. وزينب التي كانت قد إبتعدت عني لأنني كنت لا أريدها قد وجدت الفرصة لتصبح قريبة مني، فها هي تقص علي أنباء زيارتها لأهل هدى وما لقيته عندهم من إستقبال وترحاب، ولم تنس أن تهديهم من خيرات الجزيرة من أنواع الفول والثوم والقمح والتمر، كنت أعلم أن لها مالاً جمعته بطريقتها الخاصة ، وذلك عندما كانت تجمع ما تبقى من حبوب من بقايا الاجران لذلك فلم أعجب عندما قالت لي : أنها قد أهدت هدى سواراً من الذهب بقدر أوقيتين.

كانت والدة هدى تحضر إلى الجزيرة ، وتحاول أن تتقرب مني ، ولكنني كنت أنفر منها بقدر المستطاع ، لأن رؤية أمثال هؤلاء الأمهات المعجبات ببناتهن لأنهن ينلن بجمالهن كل ذلك القدر من الإهتمام يثير في نفسي الإشمئزاز والألم.

ونحن قد قطعنا شوطاً كبيراً في موضوع هدى ، اذا بسعيد يزورني في الجزيرة وقد إستقبلته أحسن إستقبال كعادتي ، وبعد أن سرد علي طرفاً من النوادر المتعلقة بالجنس التي بدأت أحبها ، سألني عن مفعول العقاقير التي احضرها لي أن كانت قد أفادتني أم لا ، بعد ذلك سألني بالود الذي يكنه لي عن صحة الشائعة التي سمعها عن زواج عادل ! لقد أخفيت عنه الحقيقة وأخبرته بكل الكذب والألتواء بأن لا علم لي بهذا الموضوع ، وسرعان ما صدقني وانطلق يحدثني عن الفتاة وأسمها وأهلها ، وعن الزيارات التي تقوم بها زينب لأهل العروسة وعن الهدايا التي قدمتها لهم ، وليس ذلك بالأمر المستغرب ، فلا سر يحفظ في منطقتنا ، فالناس لا شاغل لهم سوى مراقبة الآخرين ومتابعة ما يحدث لهم بحيث لا تفوت عليهم فائتة ، تعمدت أن أستمع إليه بكثير من الدهشة والإستغراب بحيث لا أثير شكه ، فهو صديقي ووالد

جميلة ، ولا يرضى لحفيدته سعاد أن يلحق بها أذى وهي تحت بصري وسمعي ، وأخيراً سألني عن رأيي ، فقلت له بوضوح وصراحة :

— كما تعلم يا أخي ، فأنه لا رأي لي ، لكنني أعرف أن زينب تريد لعادل طفلاً وربما يكون هذا هو السبب من وراء هذا الزواج الذي يتم من خلفي ، إنني أحب سعاداً ، كما أحب ابني عادلاً ، ولا أبدل بها أي إمرأة أخرى ، لكن ما باليد حيلة .

إبتسم بمرارة ، ثم قال لي بغضب :

— أرجو أن تفيق قليلاً يا العوض ، وأن تصنع شيئاً لإبنتي سعاد من أجلي ومن أجل أبيها توفيق — رحمه الله .

وعندما فرغ من حديثه أثار إهتمامنا إقتراب المعدية من الجزيرة ، فجعلنا نراقبها حتى رست ، فنزل منها صديقي الوزير السابق .

لقد عرفت فيما بعد ، أن قائد المعدية بعد أن تعرف عليه ، وعرف أنه يقصدني أراد أكرامه فتفضل وقاد المعدية نحو الجزيرة لينزل منها دون أن يكبده عناء الذهاب الى القلعة ومنها إلى الجزيرة ، وقد سمعت أيضاً أنه عندما كان بالمعدية كان يحيط به جمع غفير من الراكبين ، وقد كانوا ينظرون إليه معجبين ، فأن سقوط الكبار يستهوينا ، ولما كان وزيراً مخلصاً ونشطاً ، فقد فهموا أنه لم يعزل وأنما إستقال من الوزارة لأن الوضع في البلاد لا يرضيه ، وبذلك صار أحد زعماء المعارضة ، ولحسن حظه فان الناس عندنا تثق بالمعارضة وتكاد تهيم بها حباً وولهاً ، وكثيراً ما سألت نفسي عن علة ذلك ، إلا أن ذهني لم يهتد إلى إجابة معقولة ، الأمر الذي دفعني لأن أسأل أكثر من واحد عن سبب معارضته للحكومة ، كان البعض يذكر أنه يعارض لأن حوله يوجد معارضون كثيرون والبعض الآخر كان يعارض لأنه يريد أن يقول شيئاً ، أما البعض فكان يقول لي باستهتار واضح : نعارض الحكومة ونسقطها لأننا نريد غيرها .

كانت هذه الأفكار تراودني عندما إقترب مني صديقي الوزير السابق ، فأسرعت

لإستقباله ، فجلسنا ثلاثتنا على حصير تحت رأس الحربة نشرب القهوة ، وسعيد في أحسن حالاته لا يكاد يصدق نفسه ، وبعد قليل إنضم إلينا عادل والمزارعون وقد إستقبلوا الوزير السابق حسين سعد الله وجرمة الأكول.

وأخيراً سألت الوزير عن حاله ، فقال لي وهو يبتسم إبتسامة مصطنعة :

— أنت تعلم يا شيخ العوض ، أن الأحوال في البلاد تسير من سيء الى أسوأ ، غلاء وفساد وسوق سوداء وقد رفعت أكثر من مذكرة ، لكن لا أحد يهتم ، وأخيراً فضلت أن أبتعد وقد كان ، انني الآن أشعر بالسعادة والراحة والحمد لله.

قلت له بدهشة :

— إنني يا ولدي أذكر حديثك لنا هنا في الجزيرة عندما زرتها وأنت وزير ، لقد حدثتنا عن المستقبل الزاهر ، وقلت لنا أيضاً ، أن الحكومة ماضية في طريقها رغم ما تعانيه من قصور في آدائها لأنها سوف تحقق الخير للجميع في النهاية.

ضحك ساخراً ، وقال لي :

— يجب أن أقول ذلك ، لقد كنت وزيراً مسئولاً.

قلت له :

— وهل من المسئولية أن تخفي الحقيقة؟!

قال وهو يكاد يشهق من الضحك :

— كلهم كذلك.

قلت له بحسرة وألم :

إن هذا نفاق.

قال لي بعد فترة صمت وجيزة.

— صدقت ، أن من يحكم يجب أن يكون منافقاً ، إن بلادنا تعاني مرضاً خطيراً يا شيخ العوض.

قلت له :

ـــ إنك قد شاركت في إفساد الناس بالكذب عليهم ، لو كنت صادقاً وصريحاً لما لامك أحد.

قال لي بضجر :

ـــ يا شيخ العوض ، إنني لم أحضر إلى هنا لأتحدث في السياسة ، وإنما حضرت لآخذ رأيك في أمر هام.

ـــ خير إن شاء الله؟

ـــ إنني أفكر في إنشاء مزرعة للدواجن ، فما رأيك في ذلك.

سألته عن تخصصه وشهادته فقال لي :

ـــ لقد تخرجت من كلية الآداب ، قسم اللغة الإنجليزية ، وقد عملت بوزارة الخارجية حتى عينت أخيراً وزيراً للزراعة.

قلت له ناصحاً :

ـــ إنني يا بني لا أنصح أحد أن ينفذ مشروعاً يكون في غير تخصصه.

قال لي بحدة :

ـــ لقد كنت وزيراً للزراعة.

ـــ أعرف ذلك ، وأعرف أن كثيراً من الوزراء يشغلون مناصبهم لدواع سياسية ، وبدافع عن مصالح ذات صبغة خاصة.

وتشعب الحديث ، وسأل المزارعين عن أمر شراكتهم لي في الجزيرة ، فقال له فضل ضاحكاً :

ـــ يا جنابه جربنا كل الأوضاع ، فلم نجد خيراً من هذا الوضع.

وقال جابر بسخرية ذات مدلول خبيث :

ـــ لا أحد يا جنابه ينفذ ما يقوله في هذا الزمان.

نهض جرمة الأكول، ولما كان بدينا، فقد إنحشر ثوبه من الخلف بين عجيزتيه فصاح حسين سعد الله:

— البغلة سافة يا جرمة:

إضطرب جرمة، وسحب ثوبه، وغرقنا نحن في الضحك، وقد علق سعيد بقوله:

— يا جماعة أعذروه، إنه حامل في الشهر السابع.

نظر جرمة الى بطنه الكبيرة لحظة، ثم إبتعد متثاقلاً وهو يهمهم بكلام غير مفهوم ونحن نضحك عليه.

في المساء رست المعدية على الجزيرة، فغادرنا الوزير السابق ومن معه عائدين إلى المديرية وقد اقتنع بعدم جدوى عمل مزرعة للدواجن حسب قوله.

وقد إنصرف أيضاً سعيد قاصداً القلعة، حيث يقابل جميلة وسعاد، فيتدارسون الأمر، وقد يجدون في إجتماعهم عزاء وسلوى.

٨

تطور الأمر وأصبح زواج عادل من هدى حقيقة واقعة ، وهكذا تكون وفد الرجال الذين سيذهبون لإبرام عقد الزواج ، كان الوفد يتكون مني ومن فضل وجابر ، وقد اعتذر عثمان بحكم قرابته من جميلة ، وقد قبل من عثمان اعتذاره وقدّر له موقفه ، إذ لا يجوز أن يذهب معنا في مهمة هي في المقام الأول ضد جميلة وابنتها سعاد . ولكن عثمان وعد بأنه سوف يستقبل العروس عند وصولها إلى القلعة أحسن استقبال ، وبهذا يكون قد كسب الجانبين.

ذهبت أنا وعادل وجابر وفضل ومعنا بعض الأصدقاء ، وقد وجد جابر وفضل فرصتهما أخيراً ليكونا موضع كل هذا الاهتمام مني ومن عادل ، إنهما الآن يسيران معنا جنباً الى جنب في مهمة لا يذهب فيها إلا الرجال المحترمون.

عندما وصلنا إلى منزل العروسة ، كان في استقبالنا أهلها ومعارفها وفي مقدمتهم والدها ، وهو رجل بسيط طيب إسمه أحمد محمد أحمد ، ولا يقولون له ، شيخ أحمد أو حاج أحمد ، لأن هذه الألقاب أكثر من أن تطلق عليه لقلة شأنه ، وإنما يطلقون عليه العم أحمد ، ومن المدهش حقاً في منطقتنا أن أمثال هؤلاء الناس البسطاء هم من يلدون ، فتيات يكن في غاية الجمال والذكاء ، وهم دائماً على استعداد لتزويجهن لأول طارق ، ولكن عادلاً يعتبر من الأعيان في المنطقة وهو صاحب ملك في الجزيرة وفي البر الغربي والبر الشرقي كما تقول أمه ، وزواج عادل يعتبر من الأحداث المثيرة ، والناس يجدون ، لذةً ما بعدها لذة عندما يخوضون في

شئون الآخرين ، وقد انقسموا في هذا الأمر ، إلى ثلاثة فرقاء ، فريق وقف مع عادل مؤيداً ومناصراً ، وفريق وقف مع سعاد مواسياً وساخطاً ، وفريق وقف على الحياد ، الفريق الأول حضر العقد وأكل وشرب وبارك لعادل زواجه ، والفريق الثاني إعتصم بمنزل سعاد وأمها مهدّئاً ومجاملاً ، أما الفريق الثالث فقد حضر العقد وأكل وشرب وبارك لعادل ثم ذهب ليقابل سعاد وأهلها مواسياً ومهدئاً ، وبهذه الطريقة وجد كل واحد في القرية أن له موقفاً يلتزم به ويدافع عنه حتى طلوع شمس الغد إذا إقتضى الأمر.

وقد قالوا عني إنني خرفت وجننت ، البعض قال إنني (أضينة) أو (دلدول). أما الذين أنصفوني فقد قالوا إنني أسعى لمصلحة إبني الوحيد ، لكن أحداً لم يعرف ، الحقيقة ، إنني أعشق هدى وأريدها أن تكون قريبة مني ، وليس هناك من سبيل الى ذلك سوى أن أسعى لترويجها من عادل.

قد يسأل البعض ، لماذا لا أتزوج هدى؟ وهذا أمر يمكن تحقيقه في منطقتنا ويوجد من يشجعه ويعمل على نجاحه وتحقيقه ، وما دامت الحياة قد أصبحت في الجزيرة عبارة عن صراع ، فقد دبرت جميلة وسعاد هذه الفكرة والتي لو قدر لها أن تنجح لكانت في الصميم من قلب غرمائهم وفي مقدمتهن زينب وعادل ، وكان سعيد من سعى بهذه الفكرة ، وقد قال لي إنخ يضمن تحقيقها ، فأنا الأصل ، والبقية هم الفروع ، والكلّ يسعى لينال الحظوة عندي أنا ، وماذا في ذلك؟ أن الرجل هو الرجل صغيراً كان أم كبيراً ، ولا فائدة للمرأة إلا وهي شابة وجميلة ، وأنا والحمد لله ما زلت قادراً ، وإذا كان هناك قصور ما فالعقاقير يمكن أن تحل الأمر ، وقد قطعت في ذلك شوطاً لا بأس به ، كان سعيد يعتقد أنني أجهل الباعث الحقيقي لسعيه هذا. إن في إمكاني أن اتزوج من هدى ، ولكنني سوف أخسر حياتي ، ما مضى منها وما بقي ، لذلك فقد صرفته عن هذه الفكرة بلباقة وحزم لا تقبل المراجعة ، فقد قلت له :

— إنني سعيد مع زينب والحمد لله ، ولو أردت الزواج ، فلا أحد يجبرني

عليه، ولا أحد يمنعني منه، كن في حالك يا شيخ سعيد، فنحن لسنا أولاد اليوم أو البارحة، نحن ولدنا يوم ضربت بوارج كتشنر الديم وهي ترحف لفتح السودان، فكر معي كم من العهود عايشناها وحضرناها، فأين هي الآن؟

علق سعيد وهو يجر نفساً عميقاً:

— صدقت يا العوض، اللهم ألعن الشيطان، هذا كله من النسوان، النسوان ما عندهم أمان.

— لا تلقِ تبعة كل شيء على النسوان يا سعيد.

— يا أخي، الله يلعن الرجال، ما بيعرفوا قيمة النسوان إلا على السرير.

وبعد أن ثرثرنا قليلاً انصرف سعيد، ولم يعد لهذا الموضوع مرة ثانية حتى تزوج عادل من هدى.

٩

وأخيراً أشرقت شمس هدى في الجزيرة :

وكما ينهمر المطر على أرض قاحلة ، فيحيلها الى أرض خصبة وخضراء ، كذلك هدى وهي تخطر في الجزيرة بحيوية ورشاقة وفرح ، كانت ترتدي ثوباً طويلاً يتدلى حتى أسفل قدميها وهو نوع من الثياب الرائجة في هذه الأيام ، فبدت كملكة من الملكات . كانت عندما تشيح بوجهها عن أشعة الشمس الحارقة وتواجهنا ، كنا نرى الشمس وقد أضاءت المكان . كانت جميع العيون تتبعها وتراقبها في حلها وترحالها وكأنها قبلة للعابدين ، وهي تسير مع زينب أينما سارت ، إنها صاحبة الفضل عليها من دون الناس ، جميعاً ، لذلك فإنها تدفع الثمن الآن بصبر واستسلام لا يخلو من الغرور أحياناً .

وبالنسبة لموقفي المانع والسلبي والضعيف ، فقد أهلني هذا الموقف لكي أكون رسول سلام بين هذه الأطراف التي يعادي بعضها بعضاً ، بل أنها تسعى بهذا العداء لتعيش فيه كما تعيش الديدان في الأماكن القذرة ، وقد أثمرت وساطتي ، فاتفقت مع عادل أن يعدل بين زوجتيه ، فيقضي ليلة مع هدى ، وليلة مع سعاد ، وأنا لم آتِ بجديد فكل من تزوج بامرأتين أو أكثر يفعل ذلك غالباً ، حتى صار هذا الوضع عرفاً متبعاً .

وافقت هدى وهي ممتعضة ، ووافقت سعاد وهي مساءة ، ومن حقها أن تستاء

فهي الزوجة المفترى عليها ، لكنني لمحت لها في أثناء حديثي معها بأنني سوف أنصفها إن هي سمعت كلامي ، وقد سمعته لأنها إستنتجت من كلامي عن الإنصاف ، أنني سوف أعطي توفيقاً نصيباً من الجزيرة ، ورغم ما في هذه الخطوة من إنصاف وعدل إلا أنني لا أميل لمثل هذه الحلول كما سبق وذكرتُ فرغم إخفاقي وجنوني وغربتي ، وسقوطي ، كنت عازماً أشد العزم على ترك كل شيء كما هو ، وأترك لالأيام تصفية ذلك

كانت ثقتي في عادل كبيرة بأنه سوف يكون منصفاً بين الجميع ، وهكذا قررت أن أترك كل شيء كما هو.

لا شيء يوقف الحياة إلا الموت ، أما الإنسان حي ، حتى ولو كان مسخاً عجيباً مثلي ، فإنها تسير ، سارت الحياة بعد غرق توفيق وعصام ، وسارت في أحوال غيرها ، وها هي الآن تسير بعد زواج عادل من هدى . إنني لفرط ما شاهدته من عداء وخصام كنت أظن أن الأحوال لن تستقرّ عندنا ، لكنها الآن استقرت وسارت وكأن شيئاً لم يكن وبدأ العداء يتخذ شكلاً آخر ، وذلك عندما تدب الغيرة بين سعاد وهدى ، فتحاول كل منهما أن تبذل قصارى جهدها في ليلتها لإرضاء عادل ، فتتزين كل منهما أجمل زينة ، وتصنع له أحلى الطعام وأشهاه ، وهكذا وجد عادل نفسه أخيراً وقد كسب خيراً كثيراً بهذا الزواج ، قلت في ذات نفسي :

— ليتني فعلت في شبابي كما فعل.

تصرمت سنتان كاملتان ، وولدت هدى غلاماً أسميناه عصاماً ، وذلك تخليداً لذكرى ولدنا العزيز الذي فقدناه.

وفي ضحى يوم من الأيام ، وأنا أتقلب في حفرتي الرملية الرطبة كالدودة التي تبحث لنفسها عن فجوة تكون أعمق في جوف الأرض ، أقبلت نحوي سعاد ، وبعد أن حيّتني في أدب وحياء ، وكنت قد تحليت بالأخلاق الحميدة ، وصرت من الملازمين لحلقة الشيخ حسن التوم حيث نستمع لدروسه في الدين التي يلقيها بعد صلاة المغرب حتى صلاة العشاء بالمسجد كل يوم ، وقد ظنت سعاد أن إنصرافي

عنها لأنني أجد عند هدى ما يكفيني، لا يهم ذلك، لقد رفعت رأسي وحييتها وطلبت منها أن تجلس بجانبي فجلست بفرح وسعادة.

لقد آثرت أن تحدثني عن سبب حضورها لي مباشرة حتى لا تتركني مبلبل الذهن فقالت بحنان:

— إننا يا جدي نريد لتوفيق حقاً معلوماً في الجزيرة.

فهمت ما ترمي إليه، فنظرت إليها نظرة حنان ورضى وتذكرتها وهي طفلة تجري هنا وهناك، أو هي فتاة ناضجة تكافح معنا أيام الفيضان، أو هي تذرف الدموع بحرقة عندما قررت الحكومة نزع الجزيرة منا، وقد شجعتها نظرتي الودودة الحالمة، لتمسك بقدمي كسابق عهدها، وتدلكها لي دلكاً خفيفاً رقيقاً أثار في نفسي كوامن الشجن، وشعرت بها والعطر يعبق منها فيجعل من الوحدة كركرة تهز أقطار النفس بالصخب والنشوة، إستغفرت الله وقلت لها مستفسراً:

— وماذا تطلبين لتوفيق؟

قالت لي، وقد توقفت عن دلك قدمي، وإن ظلت ممسكة بكفيها الرطبتين اللينتين على قدمي:

— الدنيا يا جدي غير مضمونة (هذه العبارة معناها، إنك قد تموت قريباً) والزوجة الجديدة قد تفرض سلطانها على عادل وتطلب منه أن يتفرّد هو وهي وأولادها بالجزيرة، عندما تصبح خالصة له، فهو الوريث الشرعي الوحيد لك، بعد عمر طويل (شيء من المجاملة التي لا بد منها) فأصبح أنا وولدي وأمي تحت رحمتها وقد لا ترحمنا، إنها الضرّة يا جدي، إنك لا تعلم حقد الضرة وكراهيتها وقسوتها للزوجة الأولى ولأولادها، إنه حقد وكراهية لا يعلمها إلا علام الغيوب، كما يقول المثل، وعندما يكره الرجل زوجته، يكره أبناءها أيضاً، وسوف يفعلها عادل يوماً ما رغم ما تراه الآن من ود وصفاء، إنني أعرف ذلك فهي تعمل بالمثل الذي يقول:

ـــ تمسكن حتى تتمكن.

هذه البنت لا تعرفها يا جدي حق المعرفة ، إنها كالأفعى تلسع دون ألم ، لكن لسعتها قاتلة ، أن عادلاً أصبح فاقد الإرادة أمامها ، وهو على استعداد لتلبية ما تطلبه منه ، إنها تسيطر عليه سيطرة تامة ، وأخشى أن تكون قد عملت له عملاً (تعني أنها قد ذهبت إلى أحد المشائخ ودفعت له مالاً ليكتب كتاباً يسحر به لعادل ، فيجعله مطيعاً لها كالعبد ، وهو إعتقاد شائع عندنا).

ثم أردفت تقول لي :

ـــ إنك عندما تغيب عنا ، بعد عمر طويل.. فسوف يصبح أمرنا في كفّ عفريت ، وقد نتعرض إلى ما لا تحمد عقباه.

وأخيراً ذكرتني بالأمر الواقع الذي أعرفه ، لكنني كنت أتحاشاه ، وأنصرف عنه وذلك عندما قالت : إنني ابنة توفيق حوار الشيخ المنحول ، ووالدي له ما لعادل من حق لكنه ليس إبنك ، لقد جاءك عن طريق الشيخ ، فصار بمكان الابن ، فاجعل له حقاً ، وأعطي حفيده ما يستحقه من حق عليك ، وسجل له عشرة أفدنة ومضخة.

تململت في حفرتي ، ثم سحبت قدمي من تحت كفيها وجلست وتطلعت إليها ، وأنا لا أدري ماذا أقول ، لقد حدثتني حديثاً منطقياً ، وأظن أنها قد رددته في وحدتها بينها وبين نفسها مرات ومرات ، وناقشته مع أمها مرات ومرات حتى استقرت أخيراً على هذه المقالة البليغة الموجزة المقنعة ، بعد أن فكرت قليلاً ، أردت أن أحدثها عن شيء ربما غاب عنها ، وهو أنها تتحدث وكأنني راحل عن هذه الدنيا قبلهم جميعاً ، صحيح أنني أقربهم جميعاً إلى الموت ، ولكن متى كان للموت منطق ، لكنني فضلت أن أناقشها في هذا الأمر ، وأن أردّ على حديثها بما أراه متمشياً مع فكرتي فقلت لها :

ـــ سوف أحدّثك يا ابنتي حديث شيخ مجرب ، إن ما قلته صحيح ما في ذلك

أدنى شك ولو كان والدك حياً لنال ما يناله عادل أو عصام ـــ لو كان حياً ـــ من حق له في الجزيرة. إن الأمر الواقع الآن، هو أن القدر أراد أن يكون كل شيء الآن من نصيب عادل، ولن أتدخل بأي حال من الأحوال لتغير شيء مقدر، هذا حق عادل، وأنا عندما أمنحه هذا الحق أكون قد أنصفته، وعندما ينصف الأب ابنه فسوف ينصف الإبن أولاده وأهله، من بعده، أما إذا تصرفت في الجزيرة فسوف يعطى ذلك الحق لعادل أن، يفعل ما يشاء.

تململت سعاد في استياء وضجر، فقد فهمت أن حديثي يدور على غير ما أرادت، لكنني واصلت حديثي وأنا أشك في أنها ستفهم منه شيئاً.

ـــ إنني يا ابنتي لا أريد أن تكون الحياة مسرحاً للصراع يأكل فيها القوي الضعيف، لأن الحياة لا تستحق كل هذا العناء، لماذا تحملين هموم المستقبل بكل هذا الشقاء، وتنسين الكلمة التي تقول: ليأتي غدي بالسيئات، فقد عشت ملء يومي سعيداً.

الحياة سهلة، لكننا نحن من يبدع فيها كل هذا الخراب، ان من نتصارع لأجلهم مهما كانت صلتهم بنا، فإنهم لا يستحقون منا ذلك كله، وعليك أن تعلمي أن إبنك عندما يكبر فسوف يكون قادراً على أن يصنع لنفسه ما لا تعلمين، إنك تعتقدين أن الجزيرة هي كل شيء، لأنك لم ترى غيرها، لكنك لا تدركين من حياته وحياتك أي شيء. وقد لا تكون الجزيرة في حياته سوى معالم وأطياف، إن تصاريف الحياة أمر نجهله كل الجهل، ولا نعلم من حياتنا إلا ما حدث وما يحدث الآن ولو بثانية واحدة أو جزء من الثانية فأمر لا يعلمه سوى علام الغيوب، لا تفكري في مستقبل ابنك، لأن، المستقبل يحمل في طياته أكثر مما نتصور.

كانت سعاد تصغي لحديثي في يأس ومرارة وبرود وإمتعاض، ذلك أنها أدركت من حديثي المتشعب هذا أمراً واحداً يهمها، هو أنني لا أنوي أن أمنح توفيقاً شيئاً من الجزيرة فما كان منها إلا أن نهضت في نفور وغضب، فقلت لها مهدئاً:

— إنك تديرين معركة، أبطالها وضحاياها هم أنا وأنت وزوجك وأمك وابنك، فماذا بقي لنا؟

قالت وهي تستعد للانصراف:

— لقد قصدتك قبل ذلك، لتمنع عادلاً من الزواج، فتملصت، بل أكثر من ذلك، كنت أنت من دبر أمر ذلك الزواج، والآن قصدتك لتنصف ولدي، فلم تفعل شيئاً، ترقرق الدمع في عينيها، وقالت والعبرة تكاد تخنقها:

— ماذا فعلت لك حتى تسعى في أذيتي!؟

نظرت إلي نظرة أودعتها كل ما تحمله من حقد وكراهية، ثم قالت غامزة:

— طبعاً، لن تحتاج إليّ، إن هدى هناك!!

ثم انصرفت غاضبة.

لقد هدّتني هذه الإشارة، وآلمني أكثر، أن تحتقرني سعاد كل هذا الاحتقار، فتململت في حفرتي، وزحفت لأجد مكاناً أكثر برودة أطفيء فيه غليل نفسي المعذبة فرغم ما قلته لها من حديث موضوعي ومنطقي، إلا أن أمرها وأمر جميلة وتوفيق ظل يشغلني، لكنني كنت واثقاً من عادل، وسبب هذه الثقة، أن عادل بعد أن تزوج هدى وعاش معها وولد منها وعرف انها كغيرها من النساء، وإنها لا تختلف في شيء عن سعاد بل ربما كانت لسعاد مميزات يعرفها، بدأ يعاوده الحنين لتلك العشرة الجميلة، أيام سعاد تلهو معه في مدارج الطفولة وملاعب الصبا هنا في الجزيرة، وقد بدا واضحاً أن كفة سعاد تميل إلى الرجحان رغم كل شيء، وسعاد تعرف ذلك، وجميلة أيضاً تعرف ذلك، لكنهما تتجاهلان هذا الأمر وتغاليان في شكوكهما فربما كانتا تطمعان في المزيد من متاع الدنيا، فالإنسان لا يكتفي أبداً.

وكان عادل يسره أن ينادى باسم ابنه الأكبر، وذلك عندما يقولون له: «أبو توفيق» إنني أقترب من النهاية، لكنني لا أعترف بهذه الحقيقة، وكنت أتصور أنني آخر من يموت، وأخيراً هداني تفكيري إلى هذه الحقيقة:

— لو تمطت الأيام فصار يومي يساوي ألف يوم مما يحسب الناس ، فلن تكون الأيام سوى تلك الأيام التي نعرفها ، ولن تكون النهاية سوى تلك النهاية التي نعرفها ، لذلك فلن أتمنى لحياتي أن تطول إلا بالقدر الذي قدّر لها ، وقد كنت أعيش يوماً بقدر حياتي كلها ، بل إنني عشت لحظات بعمق الحياة إبتداء وانتهاء.

كانت هدى قد أدركت أنها أثيرة لديّ، وأنني أعشق الجمال ، وهي قد أدركت ذلك ، كانت تحاول جاهدة أن تفتنني ، وكنت آخذ منها بالقدر الذي أستطيعه وهو لا يتجاوز ما كنت قد بدأته معها قبل زواجها من عادل من لمس ومداعبات.

كانت هناك مواضيع كثيرة تشغلني ، الأصوات ، والأشباح ، والموت والجزيرة ، وغير ذلك ، كنت وأنا في حفرتي أترنم بقصيدة شائعة عندنا ، كتبها أحد الصوفية ، الكبار ، وهي عبارة عن مناحة مروعة في الموت ، يقول فيها :

بالله يا نفسي توبي وأعملي حسناً — عسى يجازيك يوم البعث والندم
أمي وأختي وجيراني بأجمعهم — يبكوا عليّ بكاء ليس ينفعني
لو كان لي نطقه كنت أقول لهم — كفى البكاء والبكاء في الجوف يحرقني
وقلعوني قديماً كنت لابسه — ولبسوني جديداً اسمه الكفن
صلوا عليّ صلاة لا سجود لها — آخر صلاتي من الدنيا فيا حزني
ونـزلوني على قبر بلا مهل — ردوا عليّ تراب القبر وانصرفوا
وجاءني ملك في الحشر يسألني — الله في محضر الملك يسترني

١٠

حاج التوم الأنصاري ، والد صديقي حسن ، كان رجلاً صالحاً ، وقد أطلق عليه الناس لقب الأنصاري لأنه كان من أنصار المهدي ، وهو يعتز بأنه رافق الإمام محمد أحمد المهدي وحفظ معه القرآن في الخلوة وشهد معه جميع المواقع ، واشترك في فتح ، الخرطوم ، لكنه لم يشترك في قتل غردون باشا ، وعندما تولى الخليفة عبد الله الحكم كان من المناوئين له ، وقد عاد الى القرية غاضباً واتصل ببعض المرغنية وصار ختمياً لأنه اقتنع بأن المهدية انتهت بموت المهدي ، وإنما ما عاشت بعده إلا بقوة الدفع التي سوف تكف يوماً ما.

كنت أعرفه عن بعد ، لكن معرفتي به قد توثقت بعد أن قبض عليه وعليّ غيرنا في أحداث تلك المظاهرة وزجّ بنا في السجن ، ويومها سرّ سروراً عظيماً يوم رآني مقبوضاً عليّ بتهمة التحريض ومقاومة الحكم الإنجليزي في البلاد ، وقد كان حاج التوم الأنصاري الوحيد من بين الكبار الذي قبض عليه متهماً.

وفي السجن قال لي :

— لو كان معنا إبني حسن لاشترك في المظاهرة ، لكنه الآن في مصر أم الدنيا ، يتلقى العلم في الأزهر الشريف.

قلت له مؤيداً :

— صدقت ، فحسن شاب عظيم.

فدعى له.

— ربنا يوفقه، ويعود بالسلامة.

— آمين.

— هل تعرف لماذا سمّيت عوضاً؟

تجاهلت السبب، لأنني كنت أريد أن أسمع منه المزيد عن سبب تسميتي عوضاً، لذلك فقد أجبته بالنفي.

ضحك في زهو، ثم قال لي:

— إن لذلك قصة طريفة أريد أن أسردها عليك. كان الأمير يونس ولد الدكيم يحكم منطقتنا أيام حكم الخليفة عبد الله، وفي ليلة من الليالي المقمرة، جثم الغول الأحمر على القمر ليخنقه، فخرجنا جميعاً ندق على الطبول والأواني والصفائح حتى تفزع الغول فيفكّ خناق القمر، وفي تلك الليلة قال الشيخ طه المنحول:

— إن هذا نذير شؤم، وإن بلاء كبيراً سوف يحلّ بالبلاد.

وعندما سمع الأمير بمقالة الشيخ، قبض عليه بتهمة ترويج البدع والشعوذة التي لا تقرها المهدية، لكن الشيخ أصرّ على موقفه، فحكم عليه الأمير بالقتل، وأرسل الحكم للخليفة في أم درمان ليوافق عليه، وعندما تسلم الأمير الموافقة بالحكم، أرسل في طلب الشيخ من محبسه، فأحضر إليه، وعندما امتثل بين يديه قال له بزهو وهو يشير إليه بالصحيفة التي عليها الحكم:

— هذا هو قرار الحكم عليك بالموت، وقد وافق عليه الخليفة وهذا خاتمه ظاهر عليه.

فرد عليه الشيخ بلهجة الأهالي عندنا:

— «أرتي هتم كنه»؟

فاستفسر الأمير عن معنى هذه العبارة ، فقيل له ، إن معناها : هل الله ختم عليها ؟

فثار الأمير وهاج وقال له متوعداً :

في ضحى الغد لن تستطيع أن تقول شيئاً ، لأنك سوف تصمت للأبد .

وتشاء الأقدار ، فإذا ببوارج الإنجليز تصل إلى الشاطىء في صباح اليوم التالي ، يوم تنفيذ الحكم في الشيخ ، وتقذف القرية ومعسكر الأنصار بالقنابل ، وفي أثناء ذلك ، الزحام والهرج الذي يرافق الانسحاب ، نسي أمر الشيخ فنجا ، وكانت ولادتك في ذلك اليوم ، فاستبشر بك الشيخ خيراً ، وطلب من والدك أن يطلق عليك إسم عوض ، لأن الله عوضه خيراً بولادتك وفداه ، وهذا أيضاً هو سر حب الشيخ لك ، ذلك الحب الذي ما زال متصلاً حتى توفاه الله ودفن في جزيرتك .

كانت هذه القصة شائعة ، وسمعتها من أكثر من واحد ، ولكن كانت هذه هي المرة الأولى التي أسمعها من رجل مثل حاج التوم الأنصاري .

كان حاج التوم متشبعاً ومريداً للطريقة الختمية ، وكان يقيم الحضرات في منزله وهو الذي يتولى أمر الاحتفال بمولد الرسول صلى الله عليه وسلم ، كل عام ، فيذهب إلى المديرية فيحضر « الصيوان » ، ويشرف على نصبه ، وفي العصر الذي يسبق الليلة الأخيرة كان هو يرتب أمر الزفة ، فكان هو ومجموعة من الذاكرين يحملون الدفّ والصاجات والطبل وغير ذلك من أدوات العزف ، فيترنمون بهذا المطلع :

الذاكرون جو يا ليبي

فيخترقون الشوارع الرئيسية ، في موكب كبير من الرجال والنساء والأطفال ، وكان نساء القرية يقفن في أركان المنازل عند مفترق الشوارع في انتظار مرور الزفة ، ولدى مرورها يزغردون ، وعندما تصل الزفة إلى المركز ، تقف أمامهم فرقة من رجال الشرطة وهم يحملون البنادق على أكتافهم ، وكان أكثر ما يبهجنا ، هو عندما يحضر المأمور لتفتيشهم ، فيؤدون له التحية ، بحركة منتظمة ومدهشة ببنادقهم وصوت الشاويش على عنبر يدوي :

وما أن ينتهوا من تأدية التحية حتى يسيروا في مقدمة الزفة. وبعد أن ينتهوا من الطواف يعودون إلى مكان الصيوان حيث يشرب الجميع عصير الليمون ثم الشاي، وبعد صلاة المغرب تبدأ الفترة الثانية من البرنامج الذي يقدمه حاج التوم وذلك بتلاوة من آي الذكر الحكيم للشيخ عبد الرحمن أمام المسجد، وقصيدة بالشعر القومي للعم هلال، ولكن ما يفرح حاج التوم الأنصاري هو أن والده حسن والذي حضر من مصر في عطلته السنوية سوف يلقي كلمة جامعة وشائقة بهذه المناسبة. وبمرور الزمن اشتهر حسن في القرية وصاروا يطلقون عليه إسم الشيخ حسن الأزهري، وبعد ذلك يتفرغ الجميع للذكر فيجلس الذاكرون في صفين متقابلين وما هي إلا لحظات حتى يندمج الجميع في الذكر بقيادة حاج التوم.

كانت هذه هي الصورة العامة لما يحدث في الصيوان، أما خارج الصيوان، فقد كانت الصورة تختلف، حيث يقف باعة الحلوى من سمسمية وحمصية مستوردة من مصر أمام حلوياتهم وهي مكومة على مناضد مستطيلة، وهم ينادون الزبائن بأسمائهم ليشتروا في الليلة الأخيرة، الليلة المباركة، وفي باحة المولد غير بعيد ترى بعض الحلقات ممن يمدحون بالطارات.

مرت الأعوام، وانتقل حاج التوم الى رحمة مولاه، ورحل الناس إلى البر الشرقي بعد عام الفيضان، وصار الشيخ حسن الأزهري من العلماء، ويقول بعض المريدين للشيخ حسن: إن الرسول صلى الله عليه وسلم يأتيه في النوم، ويأتيه في ساعات يكون فيها بين النوم واليقظة، فيعلمه بعض العلوم، وقد صدقت ذلك، لأنني كنت أحضر حلقات الدرس بالمسجد كل يوم، وهي تبدأ بعد صلاة المغرب حتى يحين وقت صلاة العشاء، كان يتحدث عن المسألة الواحدة حديثاً مستفيضاً يستمر بضع أسابيع قد تمتد شهوراً، وهو يبدأ حديثه بآيات من القرآن الكريم، فالسنة النبوية، ثم ينطلق بعد ذلك إلى أقوال الصحابة والتابعين والصالحين وقصص الأنبياء والمأثور من الأقوال والحكم ما يملأ قلوبنا شوقاً وحباً، فهو إذا حدثنا عن

الصلاة بدأها بالأذان فأخذ يوماً أو يومين، ثم الوضوء، فيأخذ كذلك يوماً أو يومين، ثم الأركان، وفضيلة الجماعة وفضيلة السجود، وغير ذلك من أركان الصلاة حتى يكون الأمر واضحاً. وكان الطلاب من قريتنا يحضرون من مدارسهم وجامعاتهم في العطلات، وبينهم ولدي ابني عادل، وهما توفيق من زوجته سعاد، وعصام من زوجته هدى، إنهم يمثلون جيلاً أكثر حيوية وأصالة إنهم ليسوا كالجيل السابق، جيل كمال علي عنبر، وآدم سعد وغيرهم، ذلك الجيل المتطرف، ولأن التطرف يقود الى التعصب الأعمى، فإنهم سرعان ما يتحولون الى ذلك الجيل الوصولي والانتهازي، فيتسلقون بسرعة، ويسقطون بسرعة.

وهم، كغيرهم من الشباب، لا يرون في الشيخ حسن ما يمكن أن يكون نداً لهم في علمهم وثقافتهم، وفي أحد الأمسيات، جلس الشيخ كعادته ليلقي درسه وكان عن فضيلة الخشوع، وبعد أن حمد الله وصلى على نبيه تلا علينا قوله تعالى:

(وأقم الصلاة لذكري (وقوله تعالى (ولا تكن من الغافلين) وقوله تعالى (لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون).

قال الشيخ حسن في تفسير هذه الآية:

— قيل سكارى من كثرة الهم، وقيل من حب الدنيا، وقال وهب: المراد به ظاهره، ففيه تنبيه على سكر الدنيا، إذ بين العلة فيه فقال: (حتى تعلموا ما تقولون)، وكم من مصلٍّ لم يشرب الخمر وهو لا يعلم ما يقوله في صلاته.

ثم انتقل بنا الشيخ حسن الى سرد بعض الأحاديث المتصلة بموضوع الخشوع، فأسمعنا قوله صلى الله عليه وسلم: (من صلى ركعتين لم يحدث نفسه فيها بشيء من الدنيا، غفر له ما تقدم من ذنبه)، وقال صلى الله عليه وسلم: (انما الصلاة تمسكن وتواضع، وتضرع وتأوه وتناوم، وتضع يدك فتقول اللهم، اللهم، فمن لم يفعل فهي خراج)، وروى عن الله سبحانه وتعالى في الكتب السالفة، انه قال: (ليس كل مصل اتقبل صلاته، وانما أقبل صلاة من تواضع لعظمتي، ولم يتكبر على عبادي، وأطعم الفقير الجائع لوجهي)، وقال صلى الله عليه وسلم للذي أوصاه:

(واذا صليت فصل صلاة مودع) ، وقال صلى الله عليه وسلم : (من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله إلا بعداً) ، والصلاة مناجاة فكيف تكون مع الغفلة.

ثم ينتقل الشيخ حسن الى ايراد بعض الأقوال المأثورة عن الصالحين في موضوع الخشوع ، فيحدثنا عن قول بكر بن عبد الله : (يا ابن آدم ، اذا شئت أن تدخل على مولاك بغير اذن ، وتكلمه بلا ترجمان ودخلت ، قبل ، وكيف ذلك؟ قال : تسبغ وضوءك ، وتدخل محرابك ، فاذا أنت قد دخلت على مولاك بغير ترجمان).

ثم يحكي لنا بعضاً من قصص الأنبياء ، فيقول : (وكان ابراهيم الخليل اذا قام الى الصلاة يسمع وجيب قلبه على ميلين) ، وقيل لخلف بن أيوب : (ألا يؤذيك الذباب في صلاتك فتطردها؟ قال : لا أعود نفسي شيئاً يفسد عليّ صلاتي ، قيل له : وكيف تصبر على ذلك؟ قال : بلغني أن الفساق يصبرون تحت سوط السلطان ليقال فلان صبور ، ويفخرون بذلك ، فأنا قائم بين يدي ربي فأتحرك لذبابة؟).

وكان علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وكرم الله وجهه ، إذا حضر وقت الصلاة يتزلزل ويتلون وجهه فقيل له : (ما لك يا أمير المؤمنين؟ فيقول : جاء وقت أمانة عرضها الله على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملتها).

وروى عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : (قال داود عليه السلام في مناجاته : الهي من يسكن بيتك ، وممن تقبل صلاته؟ ، فأوحى الله اليه : يا داود انما يسكن بيتي وأقبل الصلاة من تواضع لعظمتي ، وقطع نهاره بذكري ، وكف نفسه عن الشهوات من أجلي ، يطعم الجائع ويؤوى الغريب ويرحم المصاب ، فذلك الذي يضيء نوره السموات كالشمس ، ان دعاني لبيته ، وأن سألني أعطيته ، أجعل له في الجهل حلماً ، وفي الغفلة ذكراً ، وفي الظلمة نوراً ، وأنما مثله في الناس كالفردوس في أعلى الجنان لا تيبس أنهارها ولا تتغير ثمارها).

ويروى حاتم الأصم رضي الله عنه انه سئل عن صلاته فقال: (اذا حانت الصلاة، اسبغت الوضوء، وأتيت الموضع الذي أريد الصلاة فيه، فأقعد فيه حتى تجتمع جوارحي، ثم أقوم الى صلاتي، وأجعل الكعبة بين حاجبي، والصراط تحت قدمي والجنة عن يميني والنار عن يساري، وملك الموت ورائي أظنها آخر صلاتي، ثم أقوم بين الرجاء والخوف، وأكبر تكبيراً بتحقيق، وأقرأ قراءة بترتيل، وأركع ركوعاً بتواضع وأسجد سجوداً بخشوع، وأقعد على الورك الأيسر، وأفرش ظهر قدمها، وأنصب القدم اليمنى على الابهام، وأتبعها الإخلاص، ثم لا أدري أقبلت مني أم لا؟).

وقال ابني عباس رضي الله عنه: (ركعتان مقتصدتان في تفكر، خير من قيام ليلة والقلب ساه).

ويستمر شيخنا حسن يتحدث عن الخشوع يوماً أو يومين، حتى اذا ما قتله بحثاً، انتقل الى فضيلة أخرى من فضائل الصلاة، حتى شغف به الناس حباً، ولكن ظهر له أعداء وخصوم، يطعنون في علمه، ويشكون في وعظه، وحجتهم في ذلك أن علوم الشرع ينبغي الا تخرج عن الكتاب والسنة؛ وهؤلاء الخصوم كانوا يلجؤون الى عدة أساليب يظهرون بها خصومتهم، فكانوا يسرعون بمغادرة المسجد فور الانتهاء من الصلاة أما البعض فكان يبالغ في عدائه، وينتظر حتى اذا ما تهيأ الشيخ حسن لالقاء درسه، وأحاط به الناس، وقفوا وعمدوا الى أحذيتهم يأخذونها ثم يخرجون والناس تتابعهم بنظراتهم وكأنهم يقولون لنا: نحن خارجون لأننا لا نريد سماع ما يقوله شيخكم.

وكان البعض يسلك طريقاً فيه نوع من الطرافة رغم جديته، فقد أعتقد البعض أن خير ما يفعله الانسان من عبادة هو أن يقرأ القرآن الكريم، لذلك فنراهم يجلسون على مقربة من مجلس الشيخ فيتلون آيات الله همساً حيناً، وجهراً حيناً آخر مما يشيع الاضطراب في صفوف المستمعين، وكاد ذلك أن يؤدي الى نزاع لا تحمد عقباه لولا صبر الشيخ حسن وحكمته.

كان الشيخ حسن قد فرغ من القاء درسه عن فضيلة الخشوع عندما اقترب منه أحد الطلاب وسأله هذا السؤال :

متى بدأت الحياة يا سيدي الشيخ؟

فقال له الشيخ :

— ان الانسان يا ولدي هو محرر الحياة ، فالحياة تبدأ اذاً يوم يولد الانسان ، وتنتهي الحياة بموته ، ليبدأ حياة أخرى فيكون من أهل الجنة ان كان من المؤمنين ، أو من أهل النار ان كان من الكافرين .

وقد ابتسمنا في اعجاب ورضى بعلم الشيخ وسعة ادراكه ، ولكن الطالب يسأل مرة أخرى وكأنه يريد اعجاز الشيخ :

— من أين يبدأ الكون ، وأين ينتهي؟

فقال له الشيخ :

— الانسان يا ولدي هو مصدر كل شيء ، لأن الله كرمه على كل شيء ، بما فيهم ملائكته ، لذلك فان الانسان هو مركز الكون ، الكون يبدأ عنده ، وينتهي عنده .

ولما لم نكن قد سمعنا بهذا العلم من قبل ، فقد صمتنا مبهورين ، ويبدو أن النقاش قد أثار في الحاضرين اثارة ولذة ، فسأله أحدهم :

— هل الله موجود؟ واذا كان موجوداً ،فأين هو؟ ولماذا فرض علينا العبادة؟ ولماذا يعاقبنا على تركها؟

وهنا سرت في الحاضرين رعدة أرجفتهم ، وهم بعضهم لو يثب على السائل فيمسك بخناقه ، لكن الشيخ قال لهم مهدئاً ، وهو يبتسم :

— ان هذه الأسئلة ليست غريبة ، وليست جديدة ، انها أسئلة قديمة قدم البشرية ، أنني سعيد لأن ابننا يسأل سؤالاً ربما دار بخلد الكثيرين ، وأنني سوف أرد عليه بما أعلم ، والله هو العليم .

اعلم يا بني أن اول شبهة وقعت في الخليقة هو شبهة ابليس لعنه الله عندما رفض أن يسجد لآدم لأن الله خلقه من طين وخلقه من نار ، وكلنا يعلم أن الله سبحانه طرده من الجنة ليكون مصدر فتنة وشر في الخليقة ، ومن المعلوم الذي لا مرية فيه أن كل شبهة وقعت لبني آدم ، فأنما وقعت من أضلال الشيطان الرجيم ووساوسه ، ونشأت من شبهاته.

هذا ومن جادل نوحاً وهودا وصالحا وابراهيم ولوطا وشعيب وموسى وعيسى ومحمداً صلوات الله عليهم أجمعين ، كلهم نسجوا على منوال اللعين الأول في اظهار شبهاته ، وحاصلها يرجع الى دفع التكليف عن أنفسهم ، وجحد أصحاب الشرائع والتكاليف باسرهم ، اذ لا فرق بين قولهم (أبشر يهدوننا) وبين قوله : (أأسجد لمن خلقت طينا).

فاللعين الأول عندما حكم العقل على من لا يحكم العقل عليه ، لزمه أن يجري حكم الخالق في الخلق ، أو حكم الخلق في الخالق ، والأول غلو ، والثاني تقصير.

فصار من الشبهة الأولى مذاهب : الحلولية ، والتناسخية ، والمنبّهة ، والقلادة من من الروافض حيث غلوّ في حق شخص من الأشخاص حتى وصفوه بأوصاف الإله.

فصار من الشبهة الثانية مذاهب : القدرية ، والجبرية ، والمجسمة ، حيث قصدوا في وصفه تعالى حتى وصفوه بصفاة المخلوقين.

أما أول شبهة وقعت في الملة الاسلامية ، فهو حديث ذي الخويصرة ، اذ قال :

ــ أعدل يا محمد فأنك لم تعدل. حتى قال عليه السلام : ان لم أعدل فمن يعدل؟ فعاود اللعين وقال : هذه قسمة ما أريد بها وجه الله تعالى. وذلك خروج صريح على النبي عليه الصلاة والسلام ، ولو صار من اعترض على الامام الحق خارجياً ، فمن اعترض على الرسول أحق بأن يكون خارجياً ، أوليس كذلك قولاً بتحسين العقل وتقبيحه؟ وحكماً بالهوى في مقابلة النص ، واستكبار على الأمر بقياس العقل؟ حتى قال عليه الصلاة والسلام : سيخرج من ضئضىء هذا الرجل قوم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرميه...

واعتبر حال طائفة أخرى من المنافقين يوم أحد اذ قالوا : هل لنا من الأمر شيئاً ؟ وقولهم : لو كان لنا من الأمر شيئاً ما قتلنا ها هنا . وقولهم : لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا . فهل ذلك الا تصريح بالقدر ؟ وقول طائفة من المشركين : لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء . وقول طائفة : أنطعم من لو يشاء الله أطعمه . فهل هذا الا تصريح بالجبر .

فهذا ما كان في زمانه عليه الصلاة والسلام ، وهو على شوكته وقوته وصحته وبدنه ، فلماذا نقلق الآن ونضطرب لدى سماعنا لأسئلة ابنتنا .

وبعد موته صلى الله عليه وسلم ، ظهرت بدع كثيرة ، منها بدعة معبد الجهني ، وغيلان الدمشقي ، في القول بالقدر وانكار اضافة الخير والشر الى القدر ، وقال واصل بن عطاء في مرتكب الكبيرة أنه في منزلة بين المنزلتين ، فهو ليس مؤمناً مطلقاً ، ولا كافراً مطلقاً ، واعتزل أستاذه حسن البصرى فصار من المعتزلة .

وهكذا اختلف المسلمون ، وظهرت منهم فرق وطوائف ، وأخبر النبي عليه الصلاة والسلام (ستفرق أمتي على ثلاثة وسبعين فرقة ، الناجية منهم واحدة ، والباقون هلكى ، قيل : ومن الناجية ؟ قال : أهل السنة والجماعة ، قيل : وما السنة والجماعة ؟ قال : ما أنا عليه اليوم وأصحابي) .

نسأله سبحانه وتعالى أن يغمر قلوبنا بالايمان ونكون من الناجين .

وردد الحاضرون :

— آمين ... آمين ...

ولكن الجدل لا يقف ، فها هو السائل يقول :

— أو أننا آمنا بما تقوله يا سيدي الشيخ ، فأننا بذلك نتحول الى تراكم عرضي يقودنا الى حالة من السكون ، ولكننا نؤمن بأن المادة هي الحركة ، معنى ذلك أن الكون كل واحد متماسك وهو في حالة حركة ؟

ولدى سماعنا لهذا الحديث ، صرنا وكأن على رؤوسنا الطير ، ونظرنا الى الشيخ مشفقين عليه ، لكننا عندما تطلعنا اليه ، رأينا الابتسامة الهادئة تعلو وجهه ، فتجعله صبوحاً مضيئاً ، شعرنا بالراحة .

قال الشيخ حسن ــ أفاده الله ــ في رده على السائل :

ــ أعلم يا ابني ان الحركة والسكون بيد الله ، والاسلام هو التوازن بين المتناقضات جميعها .

فقال السائل متحفزاً :

ــ وكيف يكون ذلك ؟

صمت الشيخ برهة ، ثم قال له بثقة واطمئنان :

ــ يمكن للمسلم أن يرى الأشياء بنظرة مادية ديالكتيكية ، وفي نفس الوقت ينظر اليها بنظرة مادية ميتافيزيكية ، وهو يحلها كذلك بخاصية مادية ثم يرجعها الى نظرة ميتافيزيكية .

صمتنا جميعاً بما فينا السائل ، ويبدو أن السائل قد أدرك أن الشيخ قد فهمه فلاذ بالصمت ، واستمر الشيخ يقول :

ــ المسلم يا ولدي يفعل الشيء وهو متوكل على الله ، والفعل هنا وسيلة مادية ، والتوكل وسيلة مادية ميتافيزيكية ، وهو عندما ينجح يحمد الله ، وعندما يفشل يحلل أسباب الفشل ثم يرضى بما قسم الله ، فتحليل الفشل هنا نظرة مادية ديالكتيكية ، والرضى بما قسم الله هو نظرة ديالكتيكية ميتافيزيكية . وبذلك يمكن القول بأن الاسلام استطاع أن يجد المعادلة الصعبة ، التي احتار فيها الفلاسفة والمفكرون ، وهذا كله من فضل الله على عباده .

نظر الشيخ حسن الى السائل ، وقال له مازحاً :

ــ لنفرض انك يا ولدي من الشيوعيين .

وهنا حاول السائل من أصحاب توفيق وعصام أن يعترض ، ولكن الشيخ قال له ضاحكاً :

ــ لقد قلت يا ولدي لنفترض ، وما أعرفه عن الشيوعية هو حكم طبقة العمال أو البروليتاريا ، فلنرجع الى قولك عن المادة من أنها الحركة ، وهو ما يطابق الديالكتيك المادي ، ان حكم البروليتاريا كحل نهائي لأبد الدهر ، يتناقض تماماً مع قولك عن المادة والحركة ، لأن استمرار حكم البروليتاريا سوف يتحول الى سكون ، أليس كذلك ؟

قال السائل مبهوراً :

ــ أعتقد ذلك .

سأله الشيخ بود :

ــ اذاً ما الحل؟

وقد أجاب الشيخ على سؤاله ، بقوله :

ــ ان الحل هو العودة الى الاسلام ، وسوف يشهد القرن الخامس عشر الهجري القادم ذلك بأذن الله.

وردد الحاضرون :

ــ آمين... آمين يا رب العالمين.

وحانتْ صلاة العشاء ، فنهض الحاضرون لأداء الفريضة وهم في فرح وغبطة لما سمعوه من الشيخ حسن من علم وحديث لم يسمعوا به من قبل .

وبعد الصلاة ، تفرق المصلون ، أما الطلبة فقد تجمعوا من جديد خارج المسجد ليواصلوا النقاش ، وهو نقاش طويل ، بعد الذي سمعوه من الشيخ حسن الأزهري.

اقتربت من الشيخ حسن ، وسألته مازحاً :

— من أين تعلمت هذا الحديث الغريب ، الذي كنت ترد به على ابننا الطالب ؟

قال لي باسماً :

— لقد تعلمت هذا الحديث ، وهذا اللون من الجدل ، يا شيخ العوض ، من اتصالي بالأخوان المسلمين في مصر ، فلولاهم لوجدت الشيوعية في بلاد المسلمين مرتعاً خصباً ، فجزاهم الله كل خير .

قلت له سائلاً :

— هل أنت منهم؟

أجابني ساخراً :

— كان ذلك أيام الشباب .

١١

لقد صرت رجلاً مسناً كما يقولون ، أجلس على السرير ، أو على الأرض تحت ظل رأس الحربة ، أو عند حفرتي بجانب الساقية القديمة ، أصغى بتلقائية ، لجميع القوانين الأزلية التي تهيمن حولي وأفسر ما يكمن وراء تلاطم الأمواج ، وحفيف جريد النخل ، وخفق الأعلام المنصوبة حول ضريح الشيخ .

الهمس يدور بأن رأس الحربة قد تسقط في أي لحظة ، رفيعة وطويلة ، تميل مع الريح في مرونة وسلاسة ، انها لا تقاوم ولا تصمد ، انها فقط ترقص وترقص .

قال لي :

— هل من رفيق يؤنس وحشتك ؟

وعندما رأى صمتي ، ابتعد عني وهو يقول :

— آه من قلة الزاد ، وبعد السفر ، ووحشة الطريق .

حبيبتي — رأس الحربة — شدت من أعلى بالحبال ، حتى لا تقع عندما تقع ، على النهر ، أو ضريح الشيخ ، وضربات الفأس أسمعها ترن في أذني ، كو ... كو ... كو ...

قلت لهم :

— لا تقطعوا رأس الحربة ، دعوها تقع وحدها .

ولكن لا أحد يأخذ برأي ، فأنا بعيد ، وطريح الفراش ، وهم آلة الموت الغامضة التي تأخذ بأرواح تلك الكائنات التي تعرف وتعي ، لكنها لا تنطق ولا تتكلم.

الموت يقترب مني ، ما في ذلك أدنى شك ، لم أمرض في حياتي ، سوى ذلك المرض الذي ألم بي عندما نزعت مني الجزيرة ، ولكن مرضي الآن مرض غامض ، لم أعرف له مثيل من قبل ، انه مرض يقول لي :

— أنا لست مريضاً ، أنا مقدمة للموت ، فالموت — صاحبي — لا ينبغي أن يأتي فجأة ، دون أن يعلن عن نفسه ، حقيقة صغيرة من حقائق الموت ، ولكن لا بد منها ، حتى يتهيأ لها الناس.

ثلاثة رجال أشدّاء يمسكون بالحبل ويشدون إليهم رأس الحربة حتى لا تقع على النهر أو ضريح الشيخ ، وصوت الفأس يرنّ في أذني ، وأحس به ثقيلاً في قلبي.. كو... كو... كو...

التماسيح الصغيرة تلعب في الجزيرة ، تماسيح لها عيون كعيون القمر ، وهناك تمساح كبير يقترب مني ، إنه يقترب ، لكنني لا أخاف منه.

عادل وعثمان وفضل هم من يمسكون بالحبال ويشدونها ، وجابر هو من يضرب بالفأس على ساق رأس الحربة الصلب القديم ، كو... كو... كو...

التمساح الكبير يقترب مني ، والتماسيح الصغيرة تفرّ مذعورة ، وببطء يزحف حتى يجثم على صدري.

صوت الفأس يرنّ في أذني... كو... كو... كو...

أغلب الظن أن جابر قد توقف عن الضرب ، ربما يستجمّ قليلاً ، لكن صدى ذلك الصوت ما زال يرنّ في أذني... كو... كو... كو...

طويلة وشامخة ، كنت أراها وأنا في القلعة تملأ الفضاء أمامي ، وتسد الأفق من خلفي وعن يميني ويساري ومن فوقي ومن تحتي ، إنها تقول :

ــ أنجدني يا حبيبي قربني إليك ، جئنا معاً ، فلماذا تتركني وحدي؟

صوت الفأس البليدة لا يفكر ولا يرحم ، وعقل جابر المتحجر يعمل فقط في قطعها ، الحبال تشد رأس الحربة وهي تميل ــ كما كانت تميل ــ وصوت الفأس يرنّ في قطعها ، الحبال تشد رأس الحربة وهي تميل ــ كما كانت تميل ــ وصوت الفأس يرنّ في أذني ... كو ... كو ... كو ... صوت الفأس البليدة لا يفكر ولا يرحم .

التمساح جاثم على صدري ، لكنه لن يمنعني من أن أرى رأس الحربة عندما تقع وتهوي على الأرض ... أرض الجزيرة التي نمت فوقها ، وعندما تقع ، تقع كما تقع العروش والممالك والأمبراطوريات ، ضخمة وهائلة ، لا تقع جامدة ، بل تثير الغبار كنقع المعارك والحروب ، ثم تعلو وتهبط مرات ومرات ، وأخيراً تستقر باردة وهامدة ... آه من سقوط الشامخين .

في ذلك الصباح الجميل ، الذي مضى قبل لحظات حملت رأس الحربة ، كما تحمل الأم طفلها الصغير ، وهناك في الموضع الذي هي فيه الآن ، غرستها ، وبعد أيام قليلة ، كان هناك عصفوران يقفزان فوقها وهما يغردان بأصوات عذبة ، قريبة تلك الأيام ، وبعيدة تلك الأيام .

رأس الحربة في ذهني ، وصوت الفأس يرنّ في أذني ... كو ... كو ... كو ... وصوت ينادي :

ــ تعال يا حبيبي ، أنت سيفي ... أنت درعي .

لا أملك يا حبيبتي سيفاً ، ولا أملك درعاً ، التمساح جاثم على صدري ، آه لو تعرفين زمن الضعف والوحدة .

في العام الخامس عبأنا منها أربعة شوالات ، فصاح سعيد :

ــ هذه ليست نخلة ، إنها حديقة .

وقلنا في سرور :

— ما شاء الله... ما شاء الله.

رأس الحربة لم تقع على الأرض كما أرادوا ، لقد هوت على النيل ، فأثارت رشاشاً وطيناً ، إنه أول رفض لها ، فهي عندما تقع ، تريد أن تقع كما تريد وتهوى ، لهم الحق في قطعها ، وليس لهم الحق في تحديد الموضع الذي تقع فيه.

التمساح يتمدد فوق صدري ، لكنني رغم ثقله فإنني أتنفس وأرى ، وقد رأيت رأس الحربة عندما هوت.

١٢

سأل أحدهم :

— أين نحفر القبر؟

وسمعت صوت عادل يجيب :

— في الموقع بين رأس الخربة وضريح الشيخ.

همس أحدهم :

— مات ! !

وسمعت صوتاً يردّ عليه بهدوء :

— هس... إنه يحتضر.

ومضت لحظات، دخلت في أثنائها زينب، وقد سمعتها تقول لعادل :

— لقد عاد فضل من المديرية بعد أن اشترى لنا جميعاً ثياب الحداد، إنه نوع من القماش الأسود الخشن، إننا سوف نلبس السواد حداداً على والدك.

ثم شهقت والعبرة تكاد تخنقها :

— لقد كان نعم الأب، ونعم الزوج، إنه يستحق منا أقصى ما يوجبه علينا الحداد.

دخلت هدى، وسألت بدهشة وفضول:

— هل نبدأ النواح؟

ردت عليها زينب بجفاء:

— لا.. ما زال حياً، إنه يحتضر.

وأغلب الظن، إن هدى قد أعدت عبارات تصف فيها محاسني، وتعدّد فيها مناقبي، لتهزّ قلوب النساء فيبكين وينحن بحرقة وحزن.

التفت عادل، وأصدر الأوامر التالية الى جابر:

إذهب يا جابر أنت وعثمان وفضل، وافرشوا حجرة القعود العامة، واملأوا الجرار بالماء، وأباريق الوضوء، وأعدوا السكر والشاي وأدوات القهوة.

لم أسمع صوت جابر، لكنني أعتقد أنه قد أطاع الأوامر الصادرة اليه من عادل بهمة ونشاط، فإن الموت يبعث في الآخرين من الأحياء نشاطاً وحيوية تتدفق في انطلاقة لا حدّ لها، لأنهم قد نجوا من الذي أنا فيه.

قبل هذه اللحظات كنت أحب الحياة وأعشقها، وأعتقد أن حياتي مقبرة للجميع.

قد عجبت للتشابه الكبير والمطابق بين بطن الأم، وبطن الأرض، فكلاهما مظلم وضيق حسب ما هو شائع، إلا أنني أجدهما من الاتساع بحيث أجد فيهما راحتي تماماً.

أودّ أن أذكر باديء ذي بدء، أن موتي لم يكن شاقاً، ولا صعباً، ولم أعرف أبداً أنني متّ، وأنا في سكوني ذلك، والذي يطلق عليه البشر، اسم الموت، تلاشت في ذهني كل الأفكار الدنيوية، لقد شعرت بالرحيل الى مكان مجهول، فيه من الغموض والإثارة ما يشعرني بالرغبة والإسراع اليه.

فقدت صلتي بالناس، وجاءت لحظة لم أعرف فيها عنهم شيئاً، إن أحداً لا

يهمني أمره ، وأعتقد أن الأحياء أيضاً فقدوا الاهتمام بي ، ما عدا تلك الأحاديث التي تتعلق بالإعداد لمواجهة مقتضيات هذا الحادث العابر من دفن وحزن وغير ذلك ، وقد سجلت طرفاً منه في بداية حديثي.

والآن فإن ما كان غامضاً بالنسبة لي قد وضح تماماً ، أما الأصوات التي كنت أسمعها فقد كانت أصواتاً حقيقية لا ريب فيها ، وأنها أصوات أشخاص نعرفهم وقد لا نعرفهم ، وقد يكونون أحياء ، وقد يكونون أمواتاً ، فالأمر سيان ما دامت هي مجرد أصوات تنبىء عن أشياء لا نعرفها ، لكنني الآن أعرفها حق المعرفة.

أما الأشباح فقد وضحت لي تماماً ، إنها في كل مكان ، تنتشر انتشار الهواء ، وإنهم معنا ومعكم في كل وقت وفي كل مكان ، لكنهم لا يهتمون بالأحياء إلا نادراً ، ذلك عندما نحس بهم إحساساً عارماً وقوياً ، بالقدر الذي يثيرهم ، إنهم حينئذ يظهرون لنا ويخاطبوننا بلغتهم الغامضة التي لا نفهمها إلا بأقطار أجسادنا كلها ، وهذا الفهم لا يأتينا إلا إذا كنا نملك القدرة والاستعداد لفهمهم ، وهذه القدرة لا تأتينا دائماً ، إنها تأتي في لحظات الانفكاك من عالم الأشياء إلى عالم النقاء.

وأما الخوف ، فقد زال عني تماماً ، كما زال عني الشعور بالعجز واليأس والكراهية ، وهذا لا يعني أنني أصبحت أتخلق بأخلاق الصلاح والفضيلة والخير والشجاعة والجمال... لا وألف لا ، إذ لا إحساس لي بأي شيء ، إنني شيء نوراني كالنقاء نقاء ، ومثل الشعاع شعاع.

العمل يسير على قدم وساق لإعداد القبر لي في الجزيرة ، وفي الموقع الذي كنت أحب أن أدفن فيه ، صحيح أن هذا المكان كان أحبّ مكان لي في الدنيا ، لكن الآن لم أعد أهتم بهذا المكان ، ذلك أنني رأيت الجنة ، ورأيت النار ، وماذا تكون الجزيرة ورأس الحربة ، وضريح الشيخ أمام ذلك كله ، أنني لعلى استعداد لكي أضحي بهذه الأشياء ألف مرة في سبيل نظرة الى الجنة ، دعك من الجلوس فيها.

ولأن حياتي كانت طاهرة — سوى ذلك الإثم الذي اقترفته مع سعاد في تلك اللحظات التي صرت فيها إبليساً ، ولأنني استغفرت الله وتبت ، والله يقبل التوبة وهو

الغفور الرحيم ، ولأنني أؤمن بالله ورسوله الكريم ، وبما أنزل إليه من القرآن ، وبكل ما يحويه هذا القرآن من أوامر ونواه ، فإنني أعتبر نفسي من أهل الجنة ، وعلم ذلك عند الله وحده .

بعد أن وريت الثرى ، وابتعد الناس عني ، رأيت جمعاً من الملائكة ، وهم جمع من الخلق لا يشبهون الخلق في شيء ، يقتربون مني ، ويهيئون لي مكاناً فسيحاً ومريحاً أستجمّ فيه من عناء الحياة ، لأنني بعد قليل سوف أكون في الحضرة الإلهية ، وهذه الحضرة لن أتحدث عنها ، لأنها تحتاج الى لون من الكتابة يتشكل بزمن لا كالزمان ، وبكلمات غير منطوقة أو مكتوبة ، إنني لا أملك إلا أن أستودعكم الوداع الأخير من مرقدي هناك ، لحين أن نلتقي أنا وأنتم ، وعندها سوف تعجبون كيف إننا كنا مجرد أطياف وأشباح هائمة في دنيا الغرور ، وإنما هنا كانت الحياة الحقة ، وأنا أعرف أن أكثركم لن يقنعه هذا اللقاء ، ولكن سواء اقتنعتم أم لم تقتنعوا ، فسوف نلتقي جميعاً ، ونتساوى جميعاً ، لا تفرق بيننا سوى صالح الأعمال .

وداعاً... وإلى اللقاء هناك .